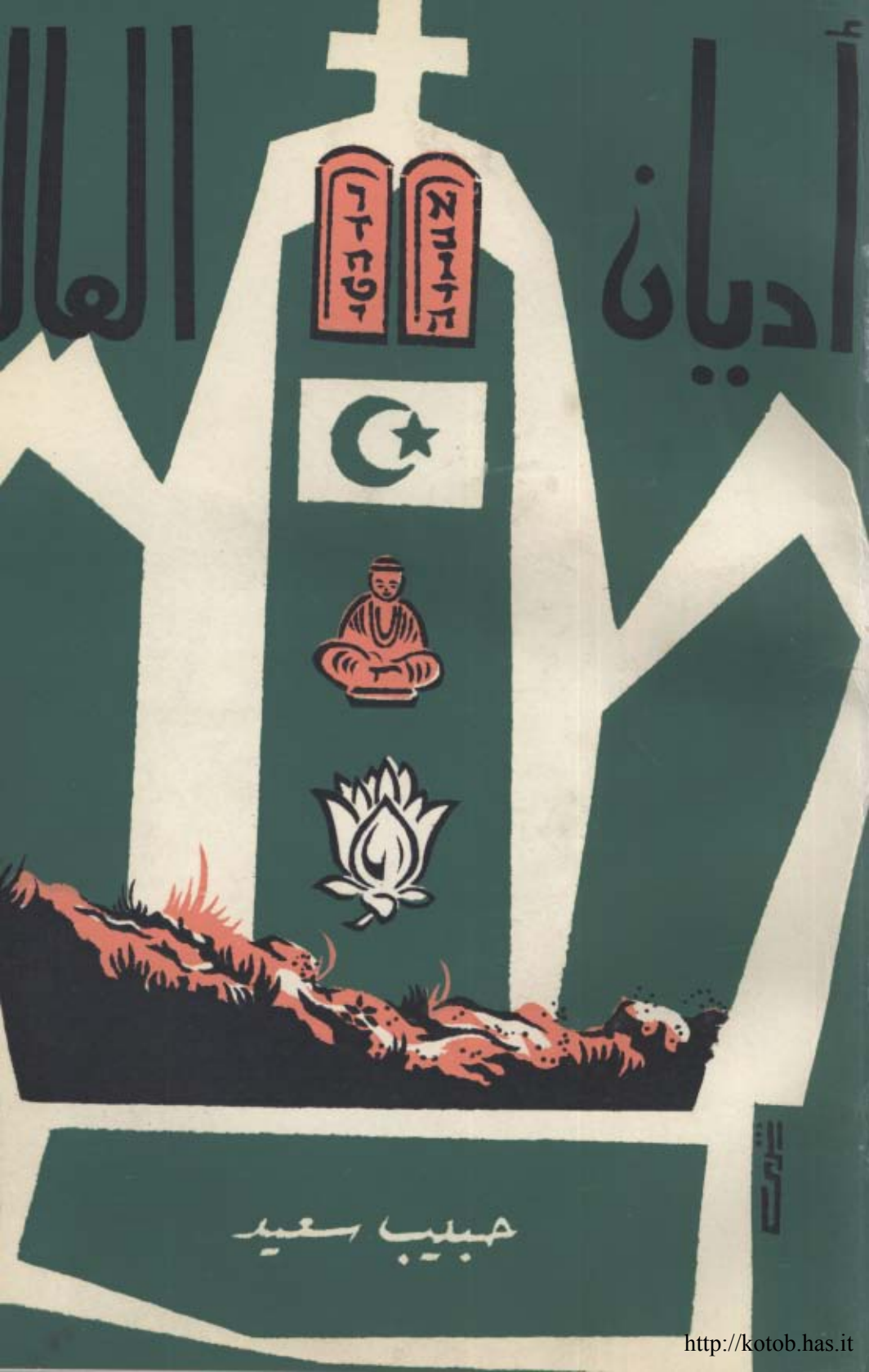




ادیان

الامان

Zindagi



حبیب سعید

کتاب

Sa'ad, Habib

أديانُ العالمِ

جبي سعيد

صدر عن
دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية—القاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

٩ الدين في طفولته .
[المعر والدين - عبادة الأسلاف - الغذاء ورعاية الطبيعة - خلاصة]

١٥ الاديان البدائية .

[التسليم بقدسية الأشياء أو الأشخاص - مظاهر الفلق في اجراء الطقوس -
- امتزاج الدين بالسحر - الاعتقاد بأن كل الأشياء لها روح - عبادة الأرواح
وتوقيرها - عبادة الأخجار والأشجار والحيوانات - الاعتراف بآلهة عليا -
ألوان السحر - المعرفة أو علم القيب - الاغرام - طقوس التطهير - الذبائح
والتقدمات - الأساطير - الموتى وعبادة الأسلاف]

٣٠ الاديان القومية .

١ - مصر
[عبادة الحيوانات والآلهة ذات الرؤوس الحيوانية - مجموعة اوزيريس -
أوزيريس - حورس - أسطورة لميريس - عبادة الشمس - الحياة الأخرى
في دين قدماء المصريين - الديوتة - الخنافون والوحداقية]

٢ - بابل
[آلهة بابل - ماردوخ - الأساطير البابلية والشعر القصصى - الخليفة -
الطوفان - هبوط عشتار إلى أرض الأموات - الذبائح والسحر والتنجيم]

٣ - اليونان
[دين اليونان وشعراء التراجيديدى (المأساة) - الفلاسفة والآلهة]

٤ - الرومان
[دين الدولة الرومانية في بكور عهدها - جوبيتر - الإله مارس - الإله يانوس -
- الأترسكيون - الرومان يقترضون من اليونان - استيراد من الشرق -
المرحلة الأخيرة - الأديان السرية]

٦٨ اديان الهند .

[تمهيد - الهندوسية - الكتب المقدسة - نظام الطبقات - تعاليم ثلاثة
خطيرة : تجوال الروح ، الأعمال ، الانطلاق - مؤثرات البوذية - ظهور
فكرة التجسد - ثلاث الآلهة - براهما - شيفا - فشتو . - تجسيدات فشتو

صفحة

عبادة الرجل العادي - البقر في بلاد الهند - الهندوسية الحديثة - دين
المنبوذين - جبود الصلحين - الخلاصة - أية فكرة، عن الله تشع قلب الهندوسى -
- الغفران - مبدأ الاخاء - الدين العملى - البوذية - مذاهب البوذية المختلفة -
- المؤسس - بحث عن النور - حياته وتعليمه - مؤثراته الشخصية - بوذا
والمرأة - أخريات أيامه - الحقائق الأربع - الأطوار الأربعة - ما هى النرفانا -
طبيعة الإنسان - نظام العبادة فى البوذية - كيف يكتمل هذا النفس
فى البوذية]

أديان الشرق الأقصى ١٠٩

[تمهيد - بلاد الصين - الكنفوشية وغيرها من أديان بلاد الصين - الدين
فى بلاد الصين - الفلاسفة الثلاثة - من هو كنفوشيون - عبادة شنتاى -
عبادة الأرواح - عبادة الأسلاف - العلاقات الخمس - التقوى البتوية -
الدولة - تعاليم الأدبية - أهمية كتب الأدب القديمة - مكانة المرأة -
التاوزمية - البوذية الصينية - خلاصة الديانة الصينية - الصين الحديثة -
نور معرفة الله - الشنتوية والأديان الأخرى فى بلاد اليابان - أسطورة
شنتو - أصل اليابان تاريخياً واجتماعياً - شعب اليابان - أديان اليابان -
الشنتوية - توقير القبيلة - عبادة الميكادو - الأخلاق الشنتوية - علاقة
الشنتوية بالبوذية - وجهة النظر الرسمية للشنتوية - الشنتوية الرسمية اليابانية
- البوذية اليابانية - بوذية أميدا والمسيحية - الحالة الدينية العامة فى اليابان -
التمسك بالله - النزاع بين الدين والوطنية]

أديان الشرق الأوسط ١٤٨

[تمهيد - ديانة الفرس - زرادشت - الخير والشر - نظرية زرادشت فى
الأخرويات - تقسيم الزمن - البارسيون - أبراج الصمت - دين زرادشت
واليهودية]

اليهودية ١٦٢

العبرانيون - إله العبرانيين - إله إسرائيل فى الأسفار المقدسة - الشعب المختار
- كلمة حق - العهد والملكية - الهيكل - التطور فى اليهودية - الله
فى اليهودية - فى رسائل الأنبياء - الحياة الأخرى - دين العهد القديم -
اليهودية بعد السبي - يوم الكفارة - عيد المظال - الأسفار المقدسة فى

صفحة

اليهودية - عصر المكابيين - الأحزاب والطوائف اليهودية - العصر الروماني -
يهودية الأحبار الربيين - المشنا - التلمود - السكبالا - يهودية العصر
الحديث [

٢٠١ الاسلام

[مؤسس الدعوة الإسلامية - الله في الإسلام - صفات الله في الإسلام -
عبادات الإسلام - العقيدة الإسلامية في الأخرويات - الحديث الإسلامي -
الشيعة الإسلامية - التصوف في الإسلام - القضاء والقدر في الإسلام
والمسيحية - المشكلة في هذا العصر - عقيدة أهل الإسلام]

٢٣٥ المسيحية

[مصدر الإيمان المسيحي - الله هو الخالق - الله هو الديان - الله فاد
ومخلص - الله الآب - يسوع المسيح في المسيحية - تجسد الكلمة - معنى
الصلب - الروح القدس - الكنيسة المسيحية - طوائف المسيحية -
الكنيسة شركة في المسيح - الكنيسة مؤسسة في المجتمع - الكنيسة
شاهدة لربها - الكنيسة خادمة العالم - الله في المسيحية - الله قريب المثل
دائماً - الله في الجوهر قوة أدبية روحية - الإنجيل في المسيحية - البشائر
والإنجيل - الفوارق في روايات الإنجيل - المسيحية والخطية البشرية -
الحياة والموت - المسيحية والتقدم - المسيحية دين جامع - كلمة الله -
الكلمة في الفكر اليهودي - في الفكر اليوناني - الثالث في المسيحية -
عقيدة الثالث في الوحدة - أسماء الله صفات - عقيدة الثالث في الكتاب المقدس]

٢٩٨ هل لله شخصية

[ما الشخصية ؟ - هنا تسعنا العقيدة المسيحية - الله معلن لذاته]

٣٠٤ الختام

[دين بني فارس - العبرانيون - الإسلام - بلاد الصين - بلاد الهند - المسيحية]

مصادر هذا الكتاب

الكتاب المقدس

القرآن الكريم

مجلدات مجلة « الشرق والغرب »

رسالة التوحيد - للاستاذ الشيخ محمد عبده

زورق الشمس - ديانة المصريين القدماء

مقارنة الأديان (الإسلام) - دكتور أحمد شلبي

History of Religions — E. O. James

Man's Religions—John B. Noss

The Faith of Other Men — Wilfred C. Smith

The Philosophy of Good Life — Charles Gore

Encounter of the Faiths — George W. Carpenter

Free Will & Predestination — W. M. Watt

Religions of the World — Carl Clement

هذا الكتاب

علم القانون المقارن من العلوم التي لا غنى عنها لرجل القانون ، لتكوين عقلية القانونية . وعلم الدين المقارن من العلوم المرعية الجانب في كليات الدين لانارة أذهان الطلاب والباحثين ، لتفهم وجهات النظر المختلفة ، وتقوية روح النصفه والتسامح تلقاء آراء الآخرين وعقائدهم . ومنذ سنوات أصدرت كتاباً مختصراً عنوانه « أديان العالم الكبرى » لم يعالج إلا بعض الأديان التي يعتنقها البشر في إيجاز مفرط اقتضته الظروف يومئذ . وقد تلقاه القراء الكرام لقاء كريماً وفدت طبعته مرتين في زمن وجيز . وقد أحسست - كما أحسّ كثيرون غيري - أن الحاجة ماسة الآن إلى كتاب شامل يجمع بين دفتيه أديان العالم كلها: البدائية ، والقومية ، وأديان الهند ، والشرق الأقصى ، والشرق الأوسط . ولم يكن بد في مثل هذه البحوث التي جمعها كتاب واحد ، من أن التزم جانب الإيجاز على قدر الإمكان ، خشية الضياع في متاهات العقائد والممارسات التي تفتقت عنها أذهان البشر ، وتعلّقت بها أرواحهم على مسار التاريخ .

ومن دواعي الأسف أن كثيرين من كتابنا الذين يتعرضون لبحث أديان الآخرين ، ينجحون إلى النقد والتجريح ، وإلى الخوض في موضوعات ليسوا هم من الثقات فيها ، وأحياناً يميل بهم الغرض ، بل التعصب للعقيدة ، إلى تمويه الحقائق وتضليل الأفسكار ، وشرح المعاني والألفاظ شرحاً بعيداً عن جادة الصواب .

وفي هذا الكتاب آليت على نفسي أن أتجنب كل نقد أو تجريح ، وأن أصور الأديان على النهج العلمي ، لا كما يؤمن بها الكافة والبسطاء ، بل كما يؤمن بها الخاصة من المثقفين . وذلك لأن بين جماهير الكافة في كل نظام من النظم الدينية لا نجد إلاّ قليلاً مما نقدر على إخراجه من دائرة الوثنية الوضيعة ، والآداب الرخيصة ، والتخوف من الأرواح الشريرة . ولم أراعِ اسوأ ما في عقائد الآخرين

بل أفضل ما بها ، بقيتاً منى بأن في كل دين من دلائل المثل العليا ، ما تستطيع النفس أن تنهض به للوصول إلى الأخلاق الكريمة .

وفي كثير من المواقف استندت إل مقتبسات من أقوال العلماء والمفكرين ورجال الشرع من أصحاب الأديان المختلفة، دون أى تعليق أو تعقيب من عندى ، وتركت لحصافة القارئ الكريم التمييز بين الحق والباطل، والتفكير الذاتى فى هذه البحوث .

وكمسيحى أو من يقيناً وفى حماس ، أن دين المسيح يشبع حاجات الإنسانية ويستجيب إلى صرخاتها الصامتة . وأن المسيحية لا تنكر ولا تبطل « كل ما هو حق وجميل وجليل » فى أى دين من أديان العالم ، وأن ليس شىء من الحق فى أى دين آخر لا نجده فى المسيحية ، بل أن الرؤى التى رآها البشر فى مختلف العصور بصور باهتة داكنة ، والتى تاقّت إليها الإنسانية مدى الأجيال ، نراها متلعة فى المسيحية ، ناصعة البيان ، قوية الوضوح ، ذلك لأن الدين ليس كفاح الإنسان فى السعى نحو الله وحسب ، إنما هو أيضاً إعلان الله ذاته للإنسان .

والحق ، كانت رحلة فكرية ممتعة ، تلك التى قت بها متتبهاً عقائد البشر فى الأديان الفطرية الساذجة ، إلى أرقى الأوضاع والعقائد التى أشرقت بضياها على العقول والقلوب .

وها أنا أقدم هذه الرحلة إلى قرأى الكرام ، راجياً أن يجدوا فيها متعة ودراسة ونفعاً ، داعياً أن يكون هذا الجهد الذى بذلت مرضياً عند الله ، ومقبولاً ومثمراً عند القراء الكرام .

الدين في طفولته

إن الدين في أى وضع من أوضاعه قديم قدم الجنس البشرى ذاته . وكل محاولة لتفهم نشأة الدين في العالم تقتضى حتماً التسليم بأن في قلب الإنسان، وروحه وكيانه، نزعة روحية، ومطلباً يتعدى حاجات كيانه الجسدى ومطالبه . على أننا في مثل هذا البحث نواجه الصعاب التى تقترن عادة بالبحوث التى تحاول تقصى أصول المؤسسات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية، وذلك لقلة مالدينا من معرفة، وضآلة ما تحت أيدينا من أدلة. والحق، لسنا نعرف بالضبط أين ومتى وكيف نشأت الأوضاع الدينية . وكل ما لدينا من هذا القبيل هو تلك المظاهر والأوضاع التى تجسدت فى أشكال يئنة ظاهرة مثل قبور الموتى، والهياكل والمحاريب، والنقوش والرسوم، وبقايا الحضارات الغاربة، التى أبقت عليها أحداث الزمن وعثب الناهبين . هذه وحدها هى التى تقدم لنا بصيصاً من نور عن نشأة الأديان قبل كتابة الأسفار المقدسة ومدونات الأقدمين .

وقد بُذلت فى السنوات المتأخرة جهود لتدعيم هذه الأدلة الأثرية من بقايا التاريخ، بالنظر الباقية لدى الجماعات البدائية القديمة التى مازالت تعيش على هامش الحضارة فى أستراليا وأفريقية والهند وأندونيسيا وجزر المحيط، تحت ظروف

وفي أوضاع تمانل حياة الإنسان البشري في العصر الحجري . وهنا لا بدّ من الحرص في الاجتهاد والاستنتاج ، لأن تلك الجماعات البدائية الباقية حتى اليوم يظلّها تاريخ طويل معقد ، ولا يحدى أن نستند إلى أوضاع حياتها الحالية في تعزيز نشأة الأديان ، وذلك لأن الأوضاع الحالية تطورت عن أوضاع أخرى في أزمنة سحيقة .

السحر والدين :

وقد زعم بعض الباحثين والمفسرين أن « عصر السحر » سبق « عصر الدين » ، وقالوا إنه في زمن ما من الأزمان ، ظن الإنسان أنه مستطيع التساطع على قوى الطبيعة بالسحر ، والشموذة ، والتعاويذ والتأّم ، فلما أعيته الحيلة وأحسّ بالعجز والفسل ، لجأ إلى قوى أخرى تتفوق عليه ، مثل الأرواح ، والآلهة والأسلاف ، لتفعل ما عجزت دونه الأساليب السحرية . ويفترض هذا الزعم أن « عصر السحر » تطور إلى « عصر الدين » ، وأخلى الساحر مكانه بتعاويذه وتأمّنه ، ليحلّ محله الكاهن بذبائح وصلواته .

على أن مثل هذا الزعم لا تسعفه الأدلة التاريخية ، وذلك لأن المظهرين ، السحر والدين ، يعيشان جنباً إلى جنب في ظل الجماعات ، قديمها وحديثها أيضاً ، وهما متلاحمان معاً في نسيج الحياة بحيث لا يمكن أن يكون أحدهما سابقاً على الآخر أو ناجماً عنه . والتميز بين السحر والدين لا يقوم على تسلسل تاريخي ، إنما الفارق بينهما هو في طبيعة ووظيفة النظم والأفكار والممارسات في كل منهما . فالسحر يقوم على أقوال وتصرفات يأتيها من يملكون المعرفة والقدرة على إخضاع القوى الفائقة للطبيعة ، لتحقيق أهداف معينة ، أما الدين فهو يفترض وجود كائنات روحية خارجة عن الإنسان ، ومتسلطة على شئون الحياة والكون . ولئن اختلف الإنان في الأساليب

والأهداف نظرياً ، فإنهما في الواقع ممتزجان معاً عملياً في حياة الجماعات البدائية ، والمتطورة أيضاً .

وحين يلجأ الطبيب البدائي - أو الساحر - إلى الرقى والتعاويذ لشفاء مريضه ، أو إيذاء غريمه ، أو إثارة الحب أو الكراهية ، أو إنزال المطر ، أو إخصاب الأرض ، أو ضمان الصيد والقنص ، أو وفرة الحصاد ... فإننا نحسبه في هذه الأحوال ساحراً ، ولكنه من الناحية الأخرى قد يكون مديناً إلى الأرواح أو الآلهة والتوافق معها لامتلاك هذه القوة السحرية - على الأقل من وجهة نظره هو . من ثم لا يمكن الفصل بداءة بين السحر والدين فصلاً جازماً قائماً على تسلسل تاريخي .

عبادة الأسلاف :

وقد زعم بعضهم أن نشأة الدين تقترب بعبادة الأسلاف ، مستندين إلى نظرية ابتكرها كاتب اغريقي قديم - هو ايهوميروس (٣٢٠ - ٢٦٠ ق.م.) - الذي حاول أن يثبت أن آلهة اليونان كلها - مثل زيوس وغيره من أترابه الذين عاشوا فوق جبال الأوليمب - كانوا في الأصل حكاماً ومصلحين ظفروا بولاء رعاياهم ، فارتفعوا بعد موتهم إلى مرتبة الآلهة الخالدين في السماء ، وكان شأنهم شأن الشمس والقمر والنجوم التي قفزت إلى مرتبة الآلهة .

وكأنما أصل فكرة الألوهية وتطورها ، إنما كانت نتيجة عبادة الموتى البارزين وتألهمهم . وإذا كانوا موضع التوقير والخشية في حياتهم على الأرض ، فإن أرواحهم قد أكرمت بعد موتهم ، وقدّمت لها الترضيات ، وقامت حولهم ممارسات وأوضاع من العبادة .

الغذاء ورعاية الطبيعة :

إن أعرق انفعالات الإنسان في المجتمعات البدائية وأشد حاجاته ومطالبه ،

وأكثر ما يثير آماله ومخاوفه - كل هذه تتركز في حياة الجماعة ، لا في حياة الفرد . وفي الظروف البدائية الخطرة التي عاش تحت ظلالها النوع الانساني مدى العصور ، لم يكن بدُّ من حياة جماعية . ولكي يتمكن أفراد الجماعات المتعددة من التعايش معا في علاقات اجتماعية منظمة ، وتكييف أنفسهم وفق البيئة الطبيعية والروحية والاقتصادية ، لم يكن بدُّ من الدين كقوة للوحدة والتماسك . ويأتى بعد هذا التماسك الحرص على الحياة وصيانتها ، وهى المطلب الجوهري الأول للجنس البشرى . إن الحياة والغذاء وإنجاب الأطفال ، هذه كانت حاجات الإنسان الأولية فى الماضى . وستبقى كذلك ، مابق الإنسان على وجه هذه الأرض . وقد تُضاف إلى هذه الحاجات الأولية أشياء أخرى للترفيه والتجميل ، ولكن ما لم تتوافر تلك الأولويات ، فإن الحياة الإنسانية يُقضى عليها بالفناء . إذاً تكون صيانة الحياة ، وتوفير الغذاء ، وإنجاب الأطفال ، هى المقومات الأساسية التى تستوجب الرعاية من قوة أعلى . وهذه الرعاية العليا هى التى تمثل الخير العام للإنسان ، عليها يتوقف بقاء الإنسان ودوام الجنس البشرى . وهنا يظهر الدين ليضمن للإنسان هذه الرعاية من سلطة أعلى منه . وتبدو هذه القوى الخفية - قوة التغذية والتناسل - من المقدسات ، ويقف الإنسان منها موقف الانفعال العميق والاهتمام الشديد - ويعزوها إلى قوة خارقة فوق إدراكه الحدود وطاقاته المألوفة . وهذه القوة هى الطبيعة التى عبدها الإنسان فى شتى الأوضاع والأشكال . وقبل أن يبتكر الإنسان أساليب استغيات تربة الأرض ، وتربية الماشية واستخدامها ، ويوم كان يعتمد على الصيد والقتص وجذور النباتات البرية الصالحة للاكل - كانت تلك الحيوانات والنباتات مصدر الرعاية وسرّ البقاء . ولذلك حاول انشاء علاقات مقدسة بينه وبينها ، وتثبت الحفريات القديمة وجود هذه العلاقات .

خلاصة :

يتبين من الأدلة الأركيولوجية والأنثروبولوجية (أى علم الآثار وعلم الأجناس البشرية) ان الإنسان البدائى قد بهرته أسرار الموت والحياة ، وبهرته القوى الخفية التى تهى له الغذاء والرعاية وكل مقومات وجوده البشرى ، وبهرته القوى المتسلطة على الطبيعة . وإذ قد أعوزته المعرفة الكافية لإدراك الأطوار الطبيعية فى الكون ، والنواميس التى لم تدخل فى نطاق مشاهداته ، اضطر أن يبتكر شتى الوسائل لتوطيد علاقات ودية لاسترضاء القوى المسيطرة على هذه الظواهر الخفية التى أحاطت به . وهذا الإحساس هو الذى ولد لديه فكرة « عناية إلهية » من نوع ما ، أكبر من نفسه ، وتتحكم فى مصيره . كان هذا هو التفاعل الذى أحس به الإنسان البدائى فى اختبار العناصر الخفية التى لم يقوَ على تأويلها والتنبؤ بها ، والتى أدخلت الرهبة والخشية إلى نفسه لقد اضطر للافصاح عن هذا الإحساس عن طريق إقامة طقوس وممارسات لتوطيد علاقات المودة والتفاهم بينه وبين مصدر كل خير يُفدق عليه فى الحياة فى العالم المنظور وغير المنظور .

ولم يكن يهدف فى استرضاء هذه القوى الخفية والتوافق معها ، إلى مجرد ضمان أسباب العيش والبقاء ، والتسلح بالأمل والثقة فى رحلة الحياة ، وذلك لأن الإنسان البدائى - حتى فى أولى أنواعه - كان قد أخذ يهفو إلى حياة من وراء القبر - حياة أشبه بحياته التى عاشها على الأرض ، لأنه لم يكن يقدر أن يفكر إلى أبعد من هذا - حياة ستبقى فيها قائمة ، حاجته إلى الطعام والآلات النشيمة التى استخدمها . وإذ قد هفت نفسه إلى هذه الحياة الأخرى بجسده الحالى ، لم يكن بدَّ له من الاستعانة بالوسائل التى تضمن له هذا البقاء . وأقرب شاهد على ذلك ما أثبتته لنا علم الآثار فى الحضارة المصرية القديمة .

وحتى إذا حسبنا أن هذه الفكرة - فكرة الحياة الأخرى - طرأت على الحضارة المصرية بعد أن بلغت مرحلة بعيدة فى التاريخ البشرى ، فاننا واجدون فى الكهوف القديمة لانسان ما قبل التاريخ ، هذه الفكرة عينها فى وضع غشيم . فالانسان القديم قد لاحظ فى عملية الصيد والقنص لتوفير غذائه أن دم الحيوان متى سال ، نجم عنه الاغماء ثم الموت . لذلك حسب الدم السائل الجوهرى الذى قد يعيد الحياة إذا أعيد إلى الجثة .

وإننا لو اجدون الناس حتى اليوم فى بعض القبائل البدائية التى مازالت على الفطرة فى أطراف استراليا وأميركا وجزر البحر وغيرها ، يجرحون أنفسهم ويسيلون دماءهم على جثة الميت أثناء مراسم الجنازة . وقد ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فزعموا أن أية مادة مخضبة باللون الأحمر قد يكون لها فعل الدم . وهذه الفكرة تعمل العادة التى كانت شائعة فى العصر الحجري من حيث دفن الميت فى ثياب حمراء وفى تربة مصبوغة باللون الأحمر ، وذلك لى تعود الحياة إلى الميت يوما ما .

بهذه الأساليب والممارسات بدأت فكرة الدين - على ما نعتقد . والحق أن علوم الآثار لا تقدم لنا إلا المواد الغشيمة الأولية ، على أنه من هذه البدايات المبكرة قد تطورت النماذج الكثيرة للأساطير والطقوس والعبادة والممارسات التى يتألف منها تاريخ الدين - يوم انتقل الانسان البدائى فى عصر كان يجمع فيه طعامه جاهزاً من الغابات والحراج ، إلى عصر أخذ فيه ينتج طعامه ويصنعه لنفسه .

الأديان البدائية

خضع الإنسان البدائي لمشاعره وإحساساته التي تولدت فيه من اتصاله بظواهر العالم الخارجى ، ومن الاختبارات التي استمدتها من أسلافه فى الحياة القبلية ، والتقاليد والعقائد التي تواترت جيلا بعد جيل ، وهو يقبل هذه كلها قضايا مسلّمة لا يجادلها ولا يناقش فيها ، مهما يكن فيها من الخيال والبعد عن حقائق العلم .

وقد امتازت الأديان الفطرية البدائية بظواهر شتى نوجزها فيما يلى :

١ - التسليم بقدسية الأشياء أو الأشخاص

ومن يلقى نظرة على أية جماعة بدائية ، يشعر لأول وهلة بقدسية المكان ، أو الشخص ، أو الشيء ، أو الطقس ، أو الحادث — الذى يتخذ موضوعاً لعبادته . وينظر البدائي إلى هذه الأشياء نظرة إكبار وتقدير تختلف تماماً عن نظرتنا إلى مجذافه أو رمحه أو أفراد أسرته . وهذه القدسية التي ترهبه وتأسره مستمدة فى نظره من قوة فائقة للطبيعة ، فيها الحياة أو الموت ، فيها الخير أو الشر . وكل شيء مقدس يحمل فى ثناياه نفعاً أو ضرراً حسب الحالة ، ولا يمسه إلا الإخصائيون كالزعماء أو الكهنة أو رؤساء القبائل ، والاقتراب منها

مشحون دائماً بالرهبة والخشية ، والتوقير والاحترام ، أشبه بمخافة الرب ، في الأديان الراقية .

٢ - مظاهر القلق في اجراء الطقوس

وفي مواجهة الأشياء المقدسة يتوالد بعض القلق ، ويتساءل البدائي دائماً : هل يمكن إثارة هذه القوة المقدسة للعمل ؟ وهل يكون عملها هذا صالحاً ؟ ومتى بدت بوادر هذا القلق ، خلقت حاجة ملحة تدعو إلى التصرف والتكلم بطرق وأساليب لإنتاج الخير ، لا الشر . هذا هو أساس الطقوس الدينية في الأديان البدائية .

٣ - امتزاج الدين بالسحر

أشرنا فيما سبق إلى بعض الآراء عن علاقة الدين بالسحر. وقد بذل العلماء والباحثون جهوداً مضيئة للتمييز بين الاثنين وتحديد معالم كل منهما ، فلم يكن التوفيق حليفهم في هذا المضمار ، لأن السحر مقترن بالدين حتى في أرق أوضاعه . وقد ذهب بعضهم إلى أن هناك فارقاً زمنياً وشكلياً بين الدين وبين السحر . وزعموا أن السحر هو المحاولة الأولى للإنسان لإخضاع قوى الطبيعة بإجراءات وطقوس معينة تهدف إلى التسلط على هذه القوى . وتلك كانت طقوساً خرافية طبعاً، ولكن الإنسان وثق بها واطمأن إليها، وفي بعض المواقف أحس أن بعض هذه القوى في غير متناول السحر ، فعكف إلى مراوضتها وتملقها وإقناعها بالأدعية والصلوات آملاً أن تستجيب لدعائه . فكان الدين قد ظهر بعد أن فشل السحر . وعلى الرغم مما في هذا التمييز من قدر ، فإن جمهرة الباحثين في الجماعات الدينية والسلالات البشرية قد نبذوه ، وذلك لأنه لا يمكن تحديد تسلسل زمني بين السحر وبين الدين ، ولأن الطقوس السحرية

متشابكة معاً في الأديان البدائية ، بل حتى في الأديان الراقية ، بحيث لا يمكن الفصل بينها .

٤ - الاعتقاد بأن كل الأشياء لها روح (Animism)

إن بين القبائل البدائية - حتى في هذا العصر - تسليماً عاماً بأن لكل الأشباح الثابتة ، والخلائق الحية المتحركة - أنفساً أو أرواحاً - وأن لكل مخلوق بشري نفساً أو أنفساً تغادر الجسد ، مؤقتاً أثناء الأحلام ، وتغادر نهائياً عند الموت . وهم يعتقدون أن لهذه الأنفس والأرواح شكلاً وفكراً وإحساساً وإرادة ، وهي مثل الكائنات الحية ، تفكر وتعقل في اعتدال مزاجها ، وتعتدى وتتشاحن حين تغضب أو يعكر مزاجها ، وهي تحب المداهنة والمدارة ، والإخلاص لها والولاء في خدمتها ، ويتوجب على الإنسان أن يتحلّى باليقظة والحذر في مرضاتها والتوافق معها .

والفكرة الهامة لدى الشعوب البدائية هي أن الطبيعة كلها تتملكها وتسيطر عليها ، وتتراحم فيها ، كائنات روحية ، يقيم لها البدائي وزناً كبيراً ، لأنها مشحونة بالقوة التي تؤثر على مصير الإنسان ومصالحه . .

• - عبادة الأرواح وتوقيرها

قيل - وبحق - إن الإنسان عبد كل شيء فكر فيه تحت الأرض ، وكل شيء بين الأرض والسماء ، وكل شيء في السموات . وتارة يُعبد الشيء كأن به حياة وفاعلية ، وتارة أخرى يعبد ، لآلذاته ، ولكن بسبب الروح أو النفس الحالة فيه . وتارة لا يُعبد الشيء إطلاقاً ، بل يكون فقط رمزاً للحقيقة التي يمثلها هذا الشيء المنظور للموس . ومن الميسور أن تجري هذه الأوضاع الثلاثة للعبادة في وقت واحد ، كما هو الحال في عبادة الأصنام في بلاد

الهند ، فالعابدون الجهلاء يحسبون الصنم ذاته حيًّا ، وآخرون يزعمون أن به روحاً ، ولكن المثقفين أو المتفلسفين يحسبونه رمزاً لحقيقة تجسم وراءه .

ويلي العبادة التي تترن عادة بالصلاة والمديح - التوقير والرهبة . وهذه تشمل احترام القوة المقدسة والاعتراف بوجودها . ويصعب أحياناً معرفة أين ينتهى التوقير ، وأين تبدأ العبادة .

٦ - عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات

وقد شاع بين القبائل البدائية توقير **الأحجار** من كافة الأحجام - من الحصى الدقيق إلى الصخور الكبيرة السائبة . وقد تكون مفردة أو مجتمعة في أكداس . وكثيراً ما تكون هذه الأحجار غريبة في شكلها وتكوينها ، وأحياناً تصيغها اليد البشرية بحذق وفن ، كما هو الحال في الأدوات الصوانية والأسلحة . وأحياناً تفال الأحجار الساقطة من الجو توقيراً ، ومن الشواهد القديمة على ذلك حجر الكعبة في مكة الذي يقبله كل حاج مسلم تبركاً به . وتوقير الأحجار ذات الأشكال ، والأدوات والآلات ، لم يكن دائماً في أزمنة ما قبل التاريخ فقط ، بل قد نجده اليوم في افريقية والهند واليابان وهنود أمريكا الشمالية . وإنا لو اوجدون اليوم بين القبائل البدائية في جزر الفيليبين عقيدة سائدة يزعم أن أسلحة زعيم القبيلة تحتزن قوة تعمل من تلقاء ذاتها . وقد رُوى عن أحد زعمائهم : « لم يكن إنساناً عادياً ... فإن معاصريه قد أصرُّوا على أن فأسه ورمحه يقتلان تلقائياً بمجرد صدور الأمر إليهما » . وليست هذه العقيدة نادرة ، فالفأس ما فتئت مكرمة موقرة في المناطق الريفية في ألمانيا واسكندنافيا ، وكانت مألوفة في العالم اليوناني الروماني .

وتوقير **النباتات والأشجار** فكرة ذائعة عامة بين الشعوب البدائية ، بل في الثقافات المتقدمة أيضاً . وأنا لنرى بقايا هذه الظاهرة في استخدام شجرة الميلاد . ويقال ان الخطبين في بعض مناطق أوروبا الجبلية يهيمون حتى اليوم بدعاء يلتمسون

فيه المغفرة قبل قطع شجرة كبيرة . والأشجار والنباتات لاتلهم التوقير فقط ، ولكنها تمثل قوة إنتاجية هائلة لاينتضب معينها . وتأليه الأشجار والنباتات والحبوب إنما هو تقدير طبيعي لقوى الطبيعة الغامضة التي تمنح النماء والاكثر . . فالأشجار تعاون المحصولات في النماء ، وتكثر نتاج قطعان الماشية ، وتخصب النساء ، حتى ليقال ان النساء العواقر يلدن اطفالا متى تزوجن هذه الأشجار !!

وتوقير الحيوانات من المظاهر الشائعة في الأديان القبلية . وهذا إحساس طبيعي ناجم عن القرابة بين الإنسان والحيوان . وقد سادت هذه القرابة شعوباً كثيرة إلى الاعتقاد بأن نفس الإنسان عندالموت — أو حتى أثناء الحياة — قد تجوز في غير عناء إلى جسد حيوان ، والعكس . وما أ كثر الاساطير والقصص الخيالية التي رويت عن حيوانات ظهرت في أشكال بشرية . والأسد في أفريقية ، والنمر في الملايو ، والنسر والدب وكلب البحر في اميركا الشمالية ، والعجل في اليونان ومصر ، والبقرة في الهند وأفريقية واسكندناوه ، والجاموسة في جنوب الهند ، والكنفارو في استراليا — هذه كلها من الحيوانات التي تخلع عليها تلك الاقوام صفات من البطش ، أو القوة ، أو الرقة ، مما يجعلها موضع التوقير والاحترام ، والعبادة احياناً .

وفي الاطوار المتأخرة للاديان البدائية اتجهت الشعوب إلى توقير عناصر الطبيعة مثل الأرض ، والهواء ، والنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والغيوم ، والرياح ، والانهار ، والبحيرات الخ .

٧ - الاعتراف بألهة عليا

وهنا يحق لنا أن نسأل ، هل كان لتلك الشعوب البدائية علاقات بإله

متعال ... كائن سام. وانا لنرى في كثير من الجماعات البدائية اعترافاً بوجود إله فوق الجلد ، خلق كل الأشياء — الإنسان والأرض والبحر والجو ، وهو يرقب من مسافة بعيدة كل شئون البشر . ولئن يكن يرى احياناً مالا يقبله من هذه التصرفات ، فإنه لا يتدخل في شئون الناس . وقد كان مثل هذا الاعتقاد واضحاً ظاهراً بين القبائل البدائية مثل الاقزام في أفريقية ، وأهل فيجي في اميركا الجنوبية ، وأهل الغابات في استراليا . ومن عقائد تلك القبائل أن الإله المتعالى عاش يوماً ما على الأرض ، وعلم الناس الشرائع الاجتماعية والادبية، ثم تقاعد في عالم الجو، حيث يرقب بعينه من بعيد تصرفات الناس ، وحياناً يوقع بهم صارم العقاب على انحرافهم . فالبرق سلاحه ، والرعد زئيره ، ولكنه لا يرى ابداً .

ولعلَّ مرد هذا الاعتقاد أن الناس راحوا يتساءلون — حتى وهم على الفطرة — من اين جاءتنا هذه الطقوس ؟ من الذى بدأ كل هذه الأشياء ؟ من هو الأب الأول ؟ وإذ قد أعيتهم الحيلة في الحصول على أجوبة لهذه الأسئلة من القوى المحلية التى عاشوا معها وعاشت معهم، اضطروا إلى أن يرتفعوا إلى العلى، إلى قوة خفية غير منظورة، إلى كائن سام . وهنا بذرة الوحدانية التى تطورت في تاريخ الاديان . على أن هذا الكائن السامى الذى آمنوا به لم يدخل إلى حياتهم ، وظل بعيداً مترفعاً ، فكانت فكرتهم مطارحة فلسفية بدائية أكثر منها حقيقة دينية .

٨ - ألوان السحر

يمكن وصف السحر عامة على أنه محاولة — بترداد بعض الألفاظ المعينة ، أو القيام بأعمال معينة ، أو كليهما معا — للتسلط على قوى العالم لاختضاعها لإرادة الإنسان . ولا يمكن فصل السحر عن الدين فصلاً تاماً كما سبق القول .

وللسحر أنواع وأوضاع وأوصاف مختلفة تبعاً لاختلاف البيئات وأساليب العمل . فهناك مثلاً ما يسمونه السحر بطريق « التقليد » والحكاية . ومثال ذلك ما نشهده في بعض الجماعات البدائية الزراعية ، إذ يعتقدون مثلاً أنه إذا ذهب الزارع إلى حقله وقت تفتح براعم الحبوب ، وقام بأداء بعض الالفاظ والقفزات ، فإن النبات ينمو إلى علو قفزته . وإذا ذهب أحدهم مثلاً إلى تل منحدر ودرج الحجارة من فوق المنحدر وهو يدق الطبول ، ويزعق زعقات عالية ، فإنه قد يحدث بذلك عاصفة رعدية تهطل الأمطار .

وهناك ما يسمى بالسحر الأسود . ومثال ذلك أن يصنع أحدهم تمثالاً لعدو من الشمع أو أية مادة أخرى ، ويطعن هذا التمثال بالدبابيس ، فإن هذا العدو يموت . وبين البدائيين أناس يزعمون أن لهم قدرة على إخراج الأرواح الشريرة من المصابين بها ، أو حتى إدخال الأرواح الشريرة إلى أجسام الأصحاء . وأمثال هؤلاء هم الأطباء السحرة ، وادعياء الطب ، والمشعوذون . وطريقة الساحر أو المشعوذ أن يقع في حالة هيـام جنونية هستيرية ليرتفع إلى مستوى عالم الأرواح ، وهناك يتسلط على أرواح معينة — وخاصة أرواح المرض والموت لكي يطردها من تحمل في أجسادهم من البشر ، أو يغريها على الدخول إلى أجساد الأصحاء .

٩ - العرافة أو علم الغيب

في الأديان البدائية علاقة وثيقة بين السحر وبين العرافة ، أي بين التوافق مع القوى الروحية ، وإدراك ماهو غامض وخفي في الحاضر والمستقبل . ويُظن أن هذا الإدراك يتم بواسطة طقوس معينة في العرافة والرجم بالغيب . فالعراف قد يستخدم قواه السحرية الكامنة فيه ، أو قد يوطد علاقات بينه وبين عالم

الأرواح ، وخاصة أرواح الموتى ، وبهذه الوسيلة يحصل على معلومات عن أشياء أو أشخاص أو حوادث في الأرض ، أو فوق الأرض ، أو تحت الأرض . والمعتقد في بعض الأديان البدائية أن العرّاف يكون على إتصال بروح أو نفس معينة « تطلعه » على الخفايا والأسرار . وفي بعض المواقف يكون للعرافة مظهر ديني جليّ يملّيه إلهام علوي ، إما عن طريق الأحلام أو الرؤى أو كلام الآلهة . وهذه مظاهر آمن بها الأغريق ولها قصص في دينهم القديم .

ومن مظاهر العرافة قراءة الطوالع في طيران الطير ، أو قصف الرعد ، أو ظهور مذنبات في الجو ، أو الكسوف والخسوف ، أو الحوادث المفاجئة ، أو الموت المفاجيء ، أو غير ذلك من الظواهر .

ويبدو أن العرافة ضرورة من مقتضيات الحياة البدائية ، بحيث لا يخلو منها أي دين بدائي .

١٠ - الأحرام

إن فرض الاحرام طريقة ذائعة عامة في الأديان البدائية ، فشخص زعيم القبيلة محرّم دائماً مادام يتمتع بالقوة والنشاط والحوية والزعامة ، وأما متى شاخ ، فإن هذه الفضيلة ، تزول عنه ، وفي أحيان كثيرة يقتل . والمظنون أن الزعيم مشحون بقوة عظيمة بحيث يتعرض للخطر الجسيم كل من يلمسه ، أو ثيابه ، أو أدوات طعامه ، أو حتى البُسط والسجاجيد التي يمشى عليها . ولزام على كل من تعدّى هذا الحرم أن يتخذ اجراءات معينة لإزالة الآثار الخطرة التي قد يتعرض لها المعتدى . وعند المثلوث بين يدي الزعيم ينبغى التحوط في حذر دقيق لمراعاة الحرم .

وقد روى القصص الديني في الأديان البدائية حوادث عن رجال ونساء ماتوا فزعاً وذعرأ بعد أن علموا أنهم أكلوا سهواً من بقايا طعام الزعيم !

وهناك أحرام على أشخاص آخرين ، فالرهبنة التي يحسُّ بها الناس في حضرة الملوك والكهنة ، قد تتسحب إلى أشخاص آخرين في ظروف معينة . ففي رقاع كثيرة من العالم يُحسب المحاربون مثلاً محرّمين قبل المعركة وبعدها ، ومثلهم صيادوا الحيوانات وصيادو الأسماك . ويوضع حرّم عادة على كل من اتصل بالميت . وقديمتد هذا الحرم حتى إلى النادين المأجورين . كذلك لا يجوز لمس الذين يقتلون الناس إلا بعد إجراء طقوس معينة للتطهير من عدوى الموت وغضب الروح الراحلة . وقليلون بين القبائل البدائية هم الذين يخلون من الحرم في طور ما من أطوار حياتهم ، فالطفل المولود حديثاً ، والمرأة عند الولادة ، والمرأة التي تزملت حديثاً ، والمشترون في حفلات دينية — كل هؤلاء وغيرهم ، هنا أو هناك ، يلحقهم الحرم الموقت .

وليس هذا كلٌّ ما في الأمر ، فهناك أعمال ، وأشياء ، وألفاظ مقدسة ، وأماكن يشملها الحرم . فالأسلحة الحادة ، والحديد ، والدم ، والرأس والشعر (لأن بهما روحاً) والشعر المقصوص ، والأظافر المقصوصة (لأن بها بعض الروح حتى بعد فصلها عن الجسد) ، وأطعمة معينة ، والعقد والخواتم ، وغيرها كثير قد يشملها الحرم .

١١ - طقوس التطهير

أشرنا إلى طقوس التطهير في حديثنا عن الأحرام ، وذلك لأن الأحرام في نظر البدائيين كانت مصدر خطر عند الاعتداء على حرمتها ، لما في ذلك من إثارة القوى المعتدى عليها ، وحملها على الانتقام وتوقيع الجزاء ، وما قد ينشأ في نفس المعتدى من إحساس بالذنب وكره للدنس . وهذا التدنيس قد يعرض الجماعة كلها للخطر والأذى ، فما لم يُطهر المعتدى على الحرم ويفسل دنسه ، فإنه يُنبذ من المجتمع ، بل قد يحكم عليه بالموت .

على أن مصدر التلويث والتدنيس ليس مقتصرًا على الاعتداء على الاحرام، فهناك الولادة، والموت، وسفك الدماء، والدم ذاته، والاختلاط بالأشخاص الجرومين - كل هذه مصادر للتلويث والتدنيس. بل قد تكون هناك أحوال خارجة عن الطبيعة، مثل وجود روح نجس يسكن في أسرة أو قرية، مما يتطلب إجراء طقوس معينة للتطهير، وطردها هذا الروح النجس من مكانه.

ويتم تطهير الدنس الطقسي بطرق مختلفة، منها الاصوام، وقص الشعر والأظافر، والزحف وسط أبحرة من الدخان الطقسي، أو المرور والقفز فوق النيران، أو الفصل بالماء أو الدم، أو إحداث جروح في الجسم ليخرج منها الروح الشرير مع الدم. وإن سكن روح نجس في جماعة، أو دخل رجلاً أو امرأة، فإنه يمكن طرده بإدخال روح أقوى منه، ويكون دخوله في هذه الحالة مطهراً.

في الواقع أن وسائل التطهير لا تقع تحت حصر.

١٢ - الذبائح والتقدمات

إن الفكرة البدائية في الذبائح والتقدمات تعني تقديم أو تدمير (إحراق) شيء ما من الجمادات أو النباتات أو الحيوانات أو الإنسان لحمل الروح الشرير على مغادرة الجسد إلى عالم الأرواح أو الآلهة. وأبسط أنواع الذبائح هي التقدمات ذات القيمة لمراعاة الروح الشرير. وقد شملت هذه التقدمات - في أولى أطوارها - الذبائح الحيوانية، بل البشرية أيضاً. وذلك لأن الأرواح الشريرة - مثلها مثل الإنسان تفتقر إلى الحيوية والقوة الكامنتين في الحياة وفي الدم.

وحين يكتشف اليوم الرجل البدائي أن قوى معينة تسلك مسلكاً غير هادئ، أو تحيد عن الطريق المألوف - كما يحدث في حالات المرض أو القحط

أو المصائب الأخرى، يعتمد إلى تقديم الذبائح للقوى التي يعجز عن قهرها . وهذه ذبائح استرضائية . وحين يحسُّ أنه أساء إلى القوى بتصرفاته، يعتمد إلى تقديم ذبائح للتكفير ، وهذه ذبائح مغفارية ، يكفر بها عن سوء فعله . أو قد يأمل البدائي أن يفتح الطريق لكي تنساب إلى نفسه قوى خارقة للطبيعة ، وهذه هي الذبائح السرية المقدسة ، مثل إقامة وليمة عشاء مقدس للقوى الروحية . وكل هذه الذبائح تحمل سمات الدين ، ولكن السحر منطو أيضاً بين ثناياها .

وإذا انتقلنا مرحلة أخرى ، إلى ما فوق المستوى البدائي ، نرى في تقديم الذبائح عنصراً هاماً في نشوء وتطور مانسميه الآن بالعبادات الدينية الرسمية . فالبدائي لم يكن يقدم الذبائح والتقدمات بدون تلاوة ألفاظ معينة ، ألفاظ التكريم والاسترضاء . وهنا منشأ الحمد الذي نراه في العبادات الدينية ، والذي تطور إلى ترانيم وأغان وتسابيح . وبعد الحمد يحق للعابد أن يتقدم بالطلبات والمنح والبركات . وهنا منشأ الصلوات والأدعية الطقسية . كما أن تنوع أساليب العبادة والذبائح في الأديان البدائية لم يكن يُقدَّم إلا في أماكن معينة لأداء هذه الطقوس . وعلى مسار الزمن ، ومرّ الحقب ، قامت المعابد والهياكل لهذا الغرض . ولكي تكون هذه الحفلات والممارسات مقدسة ، لم يكن بدّ من قيام أشخاص معينين ، وهنا منشأ طبقة الكهنة في الأديان اللاحقة ، وهم الذين كرسوا حياتهم للعناية بالأماكن الدينية ، وإقامة الشعائر والطقوس ، وكشف إرادة الآلهة بالعرافة والتنبؤ .

١٣ - الأساطير

إن رواية الأساطير شائعة بين الجنس البشري كله ، وهي عند البدائيين متصلة بحياتهم كلها ، وذلك لأن الأساطير وسيلة لدى بعض القبائل لتعليل (٢ م — الأديان)

العادات والمقائد والممارسات والاحتفالات وتوطيد سلطانها في النفوس . فالبدائيون كثيراً ما يجدون أنفسهم أمام عادات وطقوس يصعب عليهم تأويلها وفهم معانيها . ومن الطبيعي ، في مثل هذه الحالة ، ان يحاولوا تأويلها بالقول : إن آباءنا لقنونا هذه الأشياء - ثم يعودون إلى الوراء ، إلى أصول بعيدة ، إلى آباء لا يذكرونهم ، وإلى أبطال خياليين أسطوريين ، أو إلى آلهة عليا - كل هذا لكي يثبتوا قوة وصلاحيه هذه العادات والطقوس الموروثة المتواترة - فالأساطير من هذه الوجهة إنما هي لتزكية العادات والتقاليد القبلية .

ومن الأساطير التي كان لها شأن في تاريخ الأديان البدائية محاولة تعليل الخليقة ، وقد تعددت هذه الأساطير في كثير من المناطق . وراح الناس - حتى في عصور سذاجتهم - يتساءلون : من الذي خلق هذه الأرض ، وكيف خلقت وكيف صارت صالحة لسكنى البشر . ومن تلك الأساطير أن الإله الأعلى ، أو البطل الديني ، غطس في المياه ، وجاء بالرمال التي صنع منها الأرض ، أو أنه أخرج الناس والحيوانات والنباتات من كهف ووضعها في الأرض ، أو أنه كافح مع جبابرة للحصول على المواد التي صنع منها الأرض .

وهناك أنواع من الأساطير تعبّر في أوضاع خيالية عن مظالم ومساوى ، النظم العائلية والاجتماعية . وهذه ، مثل الأحلام ، حافلة بالرموز ذات المعاني . وبعد أن تُروى مراراً وتكراراً تصبح متفنناً لتوتر خفي ، ويكون لها أثر فعال في إزالة هذا التوتر السكامن في النفوس .

وهناك صنف آخر ، هو الأسطورة شبه التاريخية . وهي التفنن في اصطناع حادث أصلي تاريخي يقترن عادة بحياة بطل أو رائد من الرواد ، وسبكه في قصة مذهلة تثير الإعجاب ، تتخللها حوادث وروايات تهز المشاعر ، وتلف اسم البطل بأستار من السحر ، حتى تغدو شخصيته صورة متملعة في عالم الأساطير الدينية ، حتى يبدو شبه إله .

١٤ - الموتى وعبادة الاسلاف

نحن هنا أمام مجموعة هامة من الآراء ، ذلك لأن فكرة فناء شخصية الإنسان بعد الموت ، يصعب التوفيق بينها وبين اختبارنا اليومي. فالراحل الذي زاملنا زمالة عزيزة ، وعاش بيننا سنوات طويلا ، يترك وراءه فراغاً رهيباً في حياتنا ، ولامناس من أن نكثف أنفسنا وعاداتنا لتحمّل فراقه. وفي هذا التكيف كثيراً مانفكر فيه ، وتبقى معنا أمداً طويلا مؤثراته وذكرياته ، وننخيله حياً في أحاديثنا وأحلامنا. هذه كلها اختبارات عرفها جيداً أسلافنا الذين عاشوا في فترة ما قبل التاريخ ، كما نعرفها نحن اليوم. فلا غربة بعد ذلك أن نرى الإنسان في عصر ما قبل التاريخ ومثليه الذين خلفوه ، يحسّون إحساساً دقيقاً دفيناً بأن الموتى الراحلين ليسوا أحياء وحسب ، ولكنهم يفتقرون إلى حاجات الحياة الأرضية التي شغفوا بها. على أن أسلافنا أحسّوا في الوقت عينه - بسبب هذه العقيدة - بشيء من الضيق والقلق. وكان هذا مبعث حيرة لهم ، لأن الموتى لا يسهمون فعلا في الحياة العادية التي ألقوها على الأرض .

لهذا كله نرى أسلافنا البدائيين يتخذون كل حيلة لتوقى تدخل الموتى في شئون الحياة الأرضية وخلق الاضطرابات فيها. فكانوا مثلاً يكسدون كومة من الحجارة على جسد الميت، أو يربطونه بحبال متينة، وأحياناً كانوا يفرزون وتداً إلى صدره لكي يقيدوا الجسد إلى الأرض، فلا يكون له فكاك منها. وكانت تلك الوسائل لمنع الجسد من « المشى ». وفي الوقت عينه كانت تُترك التقدّمات في مكان الدفن لاسترضاء الميت. وما زالت بعض هذه العادات باقية حتى اليوم في كثير من رقع العالم. وفي أكثر من بلد في العالم ما يزال الميت يُحمل على الأكتاف إلى لحدّه ، وكثيراً ما يسير حاملو نعشه طريقاً متعرجاً ملتويّاً لتضليله حتى لا يعود مرة ثانية . ومن العادات المألوفة حمل النعش إلى

خارج المنزل من غير طريق الباب المفتوح ، كأن يُحمل من النافذة أو من فتحة في الجدار تُتعلق توأً بعد خروجه . ويضع زنوج الكونفو أشواكا على القبر في طريق العودة المؤدى إلى القرية ، وذلك لكي تدمى أقدام الميت ، وتحول بينه وبين العودة إلى بيته . وأحياناً يقيمون حواجز طبيعية مثل أسوار حول القبر ، أو نباتات شوكية حادة ، أو حفر أخاديد عميقة في طريق العودة .

ويبين من هذه العادات أن هناك عداء بين الأموات والأحياء . على أن هذا التأويل ليس دقيقاً . وهو يصدق على حالات معينة دون غيرها — مثل الموتى الذين أهمل شأنهم في الحياة ، أو الذين قضوا بطريق العنف والقهر ، أو الذين قُطعوا من أرض الأحياء في عنفوان شبابهم ، أو الذين ماتوا في ألم ووجع من الأمراض القاسية ، أو الذين قُتلوا في الحوادث الطارئة أو في عراق مع غيرهم ، أو الذين ماتوا وهم بعد في مهودهم . مثل هؤلاء تبيت نفوسهم على الضغن والحقد ، بحيث يُحتمل أن ينتقموا لأنفسهم من الأحياء . على أن كل الموتى ليسوا أعداء ، وكثيرون منهم من الأصدقاء الأوفياء ، وخاصة الأسلاف . لهذا قامت الحضارة الصينية ، على إيمان متفائل بأن أرواح الأسلاف تواق دائماً إلى مساندة ذرائعهم ، وهم لاشك فاعلون هذا إذا قدّم لهم الأحياء التكريم اللائق بهم .

ولتحقيق الهدف المزدوج — أى مصلحة الموتى الأعداء واسترضاء الأصدقاء منهم — شاعت في أكثر رقااع العالم عادة التقدّمات عند القبور ، وخاصة في الأعياد والمواسم . وقد جرت العادة أن تقدم في هذه المناسبات الأطعمة والمشروبات التي يحتاج إليها الموتى والأحياء على السواء . وتبدأ محاولات استرضاء الموتى حتى قبل دفنهم . وذلك لأن من عاداتهم أن يدفنوا معهم الأسلحة والملابس والأثاث والأشياء الثمينة (وضمنها — كما كانوا يفعلون في مصر القديمة —

الأفران الصغيرة والأرغفة الخشبية والكراسى وما شا كل ذلك) . وفي الأزمنة السحيقة كانوا يرسلون الزوجات والخدم إلى القبور والمدافن، وهناك إما يذبحونهم أو يحرقونهم ، أو يدفنونهم أحياء مع الميت . وإلى عهد قريب تعيه ذاكرة الأحياء، كان « الملوك » فى أفريقية يدفنون معهم مئات من الرجال والنساء أحياء .

وليس ينسع المجال بعد هذا البيان أن نقوم بجولات فى رقاع الأرض المختلفة لتعيين العادات والعقائد والأوضاع المختلفة التى تراعيها الشعوب والقبائل البدائية . ولكن حسبنا أننا أجملنا الخواص والظواهر المتعددة التى تتألف منها الديانات البدائية . ومن الشيق أن بعضها قد انتقل إلى الطبقات الجاهلة فى الأديان الراقية ، وما فتئت تراعى حتى اليوم .

الأديان القومية

مصر — بابل — اليونان — الرومان

ليس من اليسير أن ننقل طفرة واحدة من الأديان البدائية بما فيها من أسرار ، وبروق ، ورعود ، وجبال ، وأرواح ، وعبادة أسلاف . . . إلى الأديان القومية الأكثر تعقيداً ، التي نشأت — في مصر وبابل وبلاد اليونان وإيطاليا — بعد أن التأمت القبائل وصارت أمماً ، ونهض ملك ، أو مدينة ، ليربط قبائل كثيرة ومدناً عديدة إلى وحدة متكلفة . وما ماردوخ في بابل ، وأمون في مصر ، وزيبوس في اليونان ، وجوبيتر عند الرومان — إلا امتداد للآلهة القديمة ، وقد خلعت عايتها لغات أكثر رقياً ، وثقافة أعلى شأنًا ، وتقاليد تاريخية أبعد أثراً — صفات وسجايًا متنوعة ، ومنحتها قوى تتفق وهذا التطور الجديد .

وفيما بعد لم تقدر ، حتى الأديان الراقية الكبرى ، أن تتخلص كلية من أصولها العميقة ، ولم تقوَ على انتزاع جذورها من التربة البدائية التي غذتها أولاً . وقد وجد الباحثون والمؤرخون والمنقبون لذة وممتعة في دراسة أصول الأديان المختلفة التي اندثرت معالمها ، والتي كانت من العوامل الهامة للانتقال

من عبادة الأرواح البدائية، وعبادة تعدد الآلهة - إلى الأديان العليا الراقية التي تحمل رسالة عالمية، وتخدم حاجات الإنسان الروحية .

وفي هذه الدراسات التاريخية التي تأخذنا من مرحلة إلى أخرى في تطور العقائد والأديان ، نرانا أمام تفاصيل دقيقة مطولة ، ومتناقضات عجيبة مذهلة ، تزحم عقل الباحث ، وتستلب لبّه ، وتثير فضوله . لذلك سنضطر إلى الإيجاز في التفصيل والتحليل ، حتى لانضلّ في متاهات العقائد والديانات التي تفتقت عنها أذهان البشر ، وتعلقت بها أرواحهم وقلوبهم على مسار التاريخ.

١ - مصر

لعلّ مصر تقدّم لنا أبسط صورة في التطور من عبادة الأرواح ، إلى عبادة الآلهة المتعددة، والأخلاقيات القومية المنبثقة من هذه العبادة. وذلك لأن مصر - على الأقل في بكون تاريخها - لم تعانِ تدخلا من الغريب الدخيل، كما حدث في ما بين النهرين ، وانقضت فترات من الزمن طويلة ، كانت سيدة مصيرها . على أنه في الدلتا (مصر السفلى) كان الاتصال مستمرا مع العالم الخارجي، والسائحون الذين وفدوا في أفواج كبيرة ، حاملين معهم آراء وعادات جديدة اقتبس المصريون كثيراً منه .

وكان هذا الاكتفاء الذاتي - نسبياً - مردّه إلى التخوم التي صانها قروناً طويلاً، فالبحر الكبير في الشمال، والصحراوات الشاسعة في الشرق والغرب، والجبال الإستوائية وشلالات المياه في الجنوب . وقد ظلت مصر فترات طويلة من التاريخ مكتفية بذاتها ، يغذيها نهرها السعيد ببحيراته ، لذلك اتسع الوقت والجمال لدى أهلها للتفكير في الإلهيات والأخويات ، كما سنرى فيما يلي :

عبادة الحيوانات والآلهة ذات الرؤوس الحيوانية:

بدأت الآلهة المصرية القديمة على شكل حيوانات ، وكان لكل جماعة معبودها وحارسها في الحياة الريفية البدائية. من ثم نرى مثلاً تينيس وأبيدوس يعبدان ابن آوى ، والفيوم تعبد التمساح ، وطيبة تعبد آمون في شكل كبش ، ومنف تعبد إلهين هما اللبؤة والعجل أبيس ، وندره تعبد هاتور ، وهى بقره ، وأدفو تعبد الصقر. وجماعات ومدن أخرى قدمت عبادتها للقرد ، وفرس البحر والحية ، والقط ، والضفدعة وغيرها من المخلوقات .

هكذا بدأت معتقدات المصريين القدماء بأن الآلهة تتقمص أجسام الحيوانات المختلفة لتجول بين الناس ، وترصد حركاتهم وأعمالهم. ومن أشهر هذه الحيوانات العجل أبيس - كما أسلفنا القول - ولهذا الإله شروط خاصة ينبغي أن تتوفر فيه عندما يبحث الكهان بين آلاف العجول . فجلده أسود وعلى جبهته نقطة مثلثة الشكل بيضاء ، وعلى جانبه الأيمن علامة شكل الهلال ، وتحت لسانه علامة أخرى مميزة تشبه الجعران المقدس . فإذا عثروا عليه أذاعوا البشرى في طول البلاد وعرضها ، واحتفلوا به يوم الفطام احتفالاً لا مثيل له في الروعة والفخامة. فرجال الدين والحكام يسرون أمامه ويقتادونه عبر النهر في قارب مطلي بالذهب حتى يصلوا إلى معبده العظيم ممفيس ، حيث يبقى العجل موضع الرعاية والتكريم طول حياته . أما يوم يموت فحزن البلاد عليه شامل ، ويستمر الحداد عليه حتى يُذاع خبر العثور على مجل جديد له السات عينها .

ولكن يبدو لنا أن هذه الحيوانات والطيور لم تُعبد من أجل خواصها الحيوانية فقط ، بل من أجل قواها البشرية (وأحياناً الفائقة للبشر) ، ومن أجل الخواص التي امتازت بها أو مثلتها . وذلك اعتقاداً منهم أن الخواص الإلهية يمكن أن تظهر في الحيوان أو الإنسان أو في كليهما . ولذلك صوروها في

أجساد بشرية تحت رؤوس حيوانية أو العكس. فالإله « أنوبيس » مثلاً حارس المدافن والمقابر ودليل الموتى ، كانت له رأس ابن آوى . « وتوت » إله العلم حمل فوقه رأس « ايبس » .

تلك كانت عبادة قدماء المصريين في مراحلها الأولى ، يوم كانت الجماعات مستقلة ، يتباعد بعضها عن بعض ، ولكن في أثر الحروب والغزوات التي ضمت جماعات أو مدنا بعضها إلى بعض ، تضامّت تبعاً لذلك هذه الآلهة المتفرقة وكونت مجاميع ، كما حدث في مصر السفلى (الدلتا) ومصر العليا .

مجموعة ازييس — اوزيريس — حورس :

ظهرت هذه الأسرة متأخرة في تاريخ مصر ، ولكن أفرادها قد ألهبوا خيالات العامة إلهاباً لم يداًه آلهة غيرها .

ولأوزيريس أصل يرجع إلى ما قبل التاريخ كما تقول بعض الأساطير . وما يقال انه وفد من ليبيا أو من سورية في شكل إنسان ، وكان في الأصل إلهاً زراعياً . وإلى القارىء الكريم أسطورة تتحدث عن هبوط أوزيريس إلى أرض مصر :

هبط أوزيريس إلى الأرض في صورة إنسان بالقرب من مدينة (طيبة) حيث نزل عند كاهن متواضع . ولم تكن طيبة مدينة عظيمة مشهورة كما عرفناها فيما بعد ، فليس بها آنذاك شوارع جميلة متسعة ، ولا معابد كثيرة ، ولا تماثيل متقنة ضخمة الصنع ، ولا قصور أنيقة البناء ، بل كانت مصنوعة من خشب وبوص وطين . أما قصر الملك ومساكن الأمراء والنبلاء فكانت مبنية من الأحجار .

وانهالت الأسئلة على أوزيريس وإيزيس في طرقات المدينة وأزقتها .

فتوقف الناس عن أعمالهم، يتفرسون فيهما مبهوتين، إذ لم يسبق لهم أن شاهدوا
كائناً بشرياً في مثل هذه المهابة والقوة والجلال، ولا امرأة في مثل هذا الطهر
والوداعة والجمال، حتى أن ملكهم وملكهم تضائل تأثيرهما وهيبتهما بجانب
هذين الزأرين الشبيهين بالآلهة، وأحسّ الشعب بالغريزة أنهما ليس من سكان
الأرض، وقدّم لهما رجل الشارع كل تبجيل وإكرام.

وانتهات الأسئلة على منزل الكاهن حيث حلّ أوزوريس: من أين جاء
الغريبان؟ كيف وصلا المدينة؟ هل في قوارب عن طريق النيل أم من التلال
والوديان على ظهور الاتن؟ من هما وما الغرض من قدومهما؟ إلى غير ذلك من
علامات الاستفهام، أما الكاهن وأهل بيته فاحتفظوا بالسر ولم يزدوا على القول
بأن الغريبين جائلان، ظهراً عند المعبد، وقبل الفزول في البيت فترة من الزمان.
وكما مرّت الأيام ازداد الناس حيرة من أمرهما، وازدادوا لهما احتراماً وخشية
تقرب من العبادة، وجال بينهم الغريبان ينصحان الشعب، ويأسوان الجراح،
ويصنعان خيراً ورحمة، فحيما اشتد الكرب وثقل المرض أو وقع الجور، ظهر
أحدهما بجانب الملهوف والسقيم والمظلوم.

وكان أوزيريس مشغولاً طول النهار في المزارع والحقول، يرافق الزراع
والعمال، ويشرح لهم أساليب جديدة في الزراعة والصناعة، يعلمهم كيف يصنعون
الحراث ويستخدمونه في شق الأرض وتقليبها، وكيف يصنعون الشادوف،
ويرفعون به الماء لرى الزرع، بدلا من نقله وحمله فوق الظهور.

وفي هدأة الليالي القمرية كان يجلس حوله لقيف من أهل الريف
من الشباب والشيوخ، وهم يستمعون إلى أنغامه العذبة فاغرى الأفواه
مسحورين، ولم يكتف بالعزف وحده، بل اصطفى من بينهم نخبة من الشبان
درّبهم على العزف بالناي، فكانت الجوقة المصرية الأولى التي أطربت وأبدعت
وهزت أوتار القلوب.

ولم يطل الوقت حتى سمع فرعون مصر بالخبر، وأخذ علماً بنشاط الغربيين في مملكته . فاستدعى أوزوريس إلى القصر ودار بينهما الحديث التالي :

الملك : مَنْ أنت ومن أين جئت ؟

أوزوريس : أنا غريب قادم من أرض بعيدة ، وقد سمعت كثيراً عن أرض مصر ، فطاب لي أن أزورها وأشاهد أهلها ، وأمكث فيها بعض الوقت ثم أعود من حيث أتيت .

الملك : فأين الأرض التي تتحدث عنها . لقد شقَّ جنودى طريقهم إلى أبعد الحدود ، ولم نسمع شيئاً عن بلادكم تلك من قبل ؟

أوزوريس : بلادنا بعيدة جداً ناحية الغرب بحيث لا يستطيع إنسان الوصول إليها بدون دليل .

الملك : لكن كيف جئت أنت ، وبما أنك استطعت الحجىء إلينا ، فأنا في استطاعتي الذهاب إلى هناك ، اشرح لي الطريق فإن لي رغبة في زيارة تلك البقاع .

أوزوريس : كلا أيها الملك . فقد قلت لك انه ليس في مقدور إنسان أن يفعل ذلك .

الملك : فأنت عاجز عن العودة إلى موطنك .

أوزوريس : لقد بدأت الرحلة وسأحاول الرجوع . ولست أظن أنى بالغ أرض الوطن ، وأنا مقيد بهذا الجسد الفانى .

الملك : لقد سمعت كثيراً عن حكمتك ومهارتك ، وأود أن تمحضر إلى القصر لتلقى دروساً على الوزراء والحكام والسحرة .

أوزوريس : بكل سرور . لكنى لا أستطيع أن أهدى رسالتى بين الفقراء من عامة الشعب ، ولا أن أتهاون فى إسداء المعونة إليهم ، كلما احتاجوا إلى ذلك .
وذهب أوزوريس إلى القصر ، وجعل يلقي العلماء والحكماء مبادئ وتعاليم جديدة كل صباح . وتوسل إليه رجال الحاشية أن يقيم فى جناح القصر حيث ينعم بأشهى طعام وأغفر لباس ، لكنه رفض مفضلاً مسكن الكاهن المتواضع — الذى استضافه أولاً — على أجنحة القصر وأطايب الملك .

وكثيراً ما كان يخطب فى جموع الشعب عن العبادة والمعابد التى يتلون فيها الصلوات والدعوات ، فيشرح لهم كيف أن التماثيل الحجرية التى يعبدونها ويتقربون إليها أصنام لا تسمع ولا تعى ولا تستجيب ، لأنها صماء بكاء لا حول لها ولا قوة . وإنما يهيم على الناس كائن إلهى يستطيع حمايتهم والاستماع إليهم وإمدادهم بما يحتاجون ، فالشمس التى تمدهم بالنور والدفء صورة ملهوسة ومظهر واضح لقوة الكائن الأعلى ، والنيل الذى يروى أرضهم ويفدى زرعهم هبة لهم من إله السماء . . ويستطرد فى حديثه إلى القول بأن من عاش نزيفاً مستقيماً غير محب لذاته ، استطاع — رغم كونه إنساناً — أن يدرك الملكوت الذى يحتله ذلك الإله ، ويستمتع بهائه وسناه .

وشاهد الناس أعمال هذا المعلم التقدير وعجائبه واختبروا نبذه ومحبه حتى مال بعض مشاهديه وسامعيه إلى الاعتقاد بأنه هو الإله الذى يتحدث عنه .

وبهذه الطريقة استطاع أوزوريس أن يلفت أنظار المصريين إلى أعلى ، ويفرس فى نفوسهم روحاً إلهية والإيمان بالكائن الأعظم .

أسطورة ايزيس :

ولإيزيس أسطورة خيالية مؤثرة ، أغدقت عليها عطفًا بالغًا . فقد جاء فى « نصوص الأهرامات » وهى أقدم المصادر التاريخية — أن أوزيريس إله

الخير قتله أخوه « ست » ، بإغراقه في النيل ، ولكن أختيه ايزيس ونفتيس
وجدا جسده وبسكياه بكاء مرأ ، وبينما كانت إيزيس تحتضن جثة أخيها
(وزوجها في الوقت عينه) انتعش فترة من الزمن ، وعادت إليه الحياة ،
وحملت منه ، فولدت ولدها حورس سرأ ، وتولت رعايته وتربيته في الدلتا
دون أن يكشف أحد امرها . ولما شبَّ عن الطوق ، بعثت به لينتقم لأبيه .
وقد أفلح في العثور على جثة أبيه . وأمام محكمة الآلهة ثبت أن « ست » هو
قاتل أوزيريس ، ولذلك صار الملك حورس ملكا خلفا لأبيه . وكان « ست »
قد انتزع عين أخيه الثالثة ، وثبتها في جبهته اقراراً له بالملك . ولكن حورس
استرد هذه العين ، فصار ملكاً إسمًا وفعلاً . وعلى التو أخذ حورس العين
وثبتها في جثة أبيه ، فاستيقظ وانتصب ، واستعاد قوة أعضائه . على أن أوزيريس
بعد ذلك لم يبق على الأرض ، بل انطلق إلى العالم السفلي ليكون ديانا للموتى ،
بينما صار حورس ربا في العالم ، وحاكم مصر (مع ملوكها) والشمس بكل قوتها
وجبروتها .

عبادة الشمس

ولم يكن « حورس » هو إله الشمس الوحيد ، بل كان هناك آخرون
غيره ، أحدهم « رع » الذي جاء ليكشف « حورس » . وكان هذا الإله
« رع » يطلُّ على المصريين من جبل المشرق كل صباح ، مزهوًا بأشعته الذهبية ،
مظفراً بانتصاراته على قوات الظلام ، بادئاً رحلته النهارية في زورقه الساج في
البحر السماوى ، طاوياً ملايين السنين ، واهب النور والدفع وكل مقومات
الحياة للنبات والحيوان والإنسان ، رقيباً بعينيه النفاذتين على ما يعمل الأحياء
من صالحات أو سيئات ، عائداً آخر اليوم إلى حيث يحجبه واد عميق يصب
فيه النهر السماوى خلف جبل المغرب .

وفي هليوبوليس — في مصر السفلى — أفلح كهنة إله الشمس « اتوم »

في اثتلافه مع « رع » وتلك كان الخطوة الأولى ، فقد افلحوا بعدها في اثتلافه مع آلهة الشمس الأخرى، التي كانت تحت اسم « حورس ».

ولهذا السبب اتخذ الفراعنة المتأخرون في عصر الأهرامات (٢٦٠٠ — ٢٢٠٠ ق . م .) لأنفسهم لقب « ابن رع » . وبنيت مسلاتهم رموزاً هائلة للدلالة على أشعة الشمس . أما الفراعنة الذين رقدوا في نومهم الطويل داخل أحجار الأهرامات ، فقد كانوا أيضاً رموزاً للشمس ، وكانوا واحداً معها في الموت كما في الحياة . من ثم كانت الشمس — أبوهم في الحياة — حياتهم الخالدة في الموت أيضاً .

وفي عصر الامبراطورية الجديدة — بعد ألف سنة من هذا التاريخ — صارت ملكة مصر رئيسة كهنة الشمس ، وعن طريق الفراعنة الذين جَسَّموا هذا الإله ، غدت الشمس أباً لأبنائها الذين صاروا آلهة بالولادة .

وفي الوقت عينه يتخذ الإله الشمس لقباً مزدوجاً « آمون رع » . وكان « آمون » هذا إلهاً محلياً في طيبة بمصر العليا ، وإلهاً في معبد الكرنك على مقربة منها . ولما غدت « طيبة » بقوة الفتح والغزو المدينة الحاكمة في مصر كلها (حوالى ٢٠٠٠ ق . م .) ارتفع شأن آمون وصار إلهاً قومياً ، واتحد مع « رع » القاهر القوى . وحول « آمون رع » قامت أسرة إلهية تتألف من زوجته « مت » إلهة طيبة ، ووالدها « كنسو » إله القمر . وكان الكباش شعار « آمون رع » ، وأمامه وقفت الكوبرا للدلالة على أنه ملك الآلهة ، وفوق رأسه قرص الشمس المجنح .

خلاصة :

وبعد هذه الجولة يمكن أن نذكر بإيجاز بعض الآلهة والأرباب الذين انتشرت عباداتهم عند قدماء المصريين .

١ — «رع» إله الشمس، مصدر النور وواهب الدفء. وقد كانت عين شمس أو هليوبوليس مركزاً لعبادته. ثم انشهر الإيمان به في جميع الأقاليم.

٢ — آمون وترجمته الإله المستتر، وما زال مجهولاً كيف ومتى بدأ الإيمان به. وكانت «طيبة» في الوجه القبلي مركزاً لعبادته. وقد اختلف بـ«رع» فيما بعد وصار يُعرف بالإله «أمون رع» كما تقدم.

٣ — «اوزيريس» هو الإله الذي هبط من السماء، أو الإله المتجسد الذي وفد من ليبيا أو سورية. وهو الذي يرسم للناس سبل المحبة والتعاون والسلام فيمكث بينهم فترة من الزمن، مجاهداً في سبيل الخير والبر والعدل، إلى أن يفدر به أخوه ست ويقتله مفرقاً أجزاء جثته في بقاع مختلفة.

٤ — «ايزيس» زوجة اوزيريس تعاون زوجها في رسالته على الأرض ثم تستعين بالسحر بعد مصرعه، على جمع أجزاء جثته وإعادتها إلى الحياة. ويحاول اوزيريس استعادة ملكه الأرضي، ولكنه يخفق، فيختاره مجمع الآلهة سيداً على عالم الأموات، وقاضياً أعظم في وادى الظلام.

٥ — «ست» عدو الإنسان، إله الخبث والحقد والشر، أحكم المكيدة ضد أخيه حتى قتله واغتصب الملك.

٦ — «تمحوت» واضع الحروف ومعلم القراءة والكتابة، هو إله الحكمة وحارس القانون.

٧ — «حورس» ابن اوزيريس أخفته أمه حتى بلغ الرشد، ثم تنصفه الآلهة، فينتقم لأبيه، ويأخذ الملك بالميراث.

٨ — وعدا هؤلاء، آلهة أخرى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال — لا الحصر — الإله «بتاح» الذي عبده أهل ممفيس، وكان إلهاً غريباً غامضاً قيل عنه انه هو الذي خلق العالم من الطين، وكان ملفوفاً من قمة رأسه إلى

أخص قدمه بالضامات — كأنه مومياء — للدلالة على أن تاريخه غارق في القدم لا تُعرف له بداية . وهناك أيضاً « مات » إلهة الحق ، التي ترسمها النقوش المصرية واقفة عند باب قاعة الديبونة ، حينما كان يوزن قلب الإنسان . و « هو » إله الذوق ، و « انوبيس » حارس المقابر ، وغيرهم كثيرون . أجل ، كان المصريون يؤمنون بتعدد الآلهة ، فهم لم يعبدوا فقط آلهتهم التي وُلدت ونشأت في مصر ، بل قد عبدوا أيضاً آلهة مستوردة من الخارج مثل « أناهيتا » من بلاد فارس ، و « عشتار » معبودة بابل وفلسطين .

الحياة الأخرى في دين قدماء المصريين :

لم يكتف المصريون بالإيمان بحياة الروح في العالم الآخر ، بل جاوزوا هذا الاعتقاد إلى عقيدة مؤداها أن الأجسام تقوم كما هي مرة أخرى ، لتستأنف وجودها في حياة أكمل . لهذا بذلوا أقصى الجهد ، وعصارة الفكر والبحث ، في العناية بالأجساد بعد الموت ، وتحنيطها وإخفائها ، حتى تعود إليها الأرواح يوم البعث ، وتستمتع بالخلود في فردوس السلام الكامل .

ولم تكن السماء عند المصريين منازل تضيئها النيرات ، ولا طرقات مفروشة بالذهب ، ولا قصوراً فخمة تحوى ثمين الجواهر ، بل كانت سماؤهم استثنافاً لما يؤديه الإنسان على الأرض . فالسما في عقيدتهم واد خصب ، تتخلله قنوات لا حصر لها ، يمدّها النهر السماوى بالماء النقي العذب . هناك الحنطة والشعير والحبوب موفورة لكل طالب ، والعنب والتين يغذيانه بأطيب الثمار وأحلى الشراب ، وأشجار الجوز منتشرة يتفياً الإنسان ظلها حينما أراد . لم تكن حياة الإنسان الأخرى إذاً حياة الكسل والجود ، بل كان عليه أن يحرق ويذبح ويحصد ويدرس ، كما كان يفعل في حياته الأولى ، مع فارق عظيم هو أن عمله في السماء كان سهلاً يشيع في نفسه الغبطة ، ليناً يبعث في قلبه الجبور . فلا حاجة لخزن الطعام وإدخار المال ، ولا خوف من هبوط النيل

أو جفاف الأرض ، فقد رتبت هذا كله الآلهة ونظمته ، بحيث يُرفع عن كاهل الكائن السماوى ، كل ثقل وكرب ، ولا يعتوره هم أو حزن فيما بعد .

الدينونة

وبعد الموت كانت الارواح — رجالا ونساء — تتجه إلى الوادى الرهيب ، وهو على شكل نصف دائرة ، رسبت على جوانبه صخور وجبال شامخة . وفى بطنه جرى نهر الدينونة الخفيف . تلك كانت مملكة الظلام ، فياه النهر عكرة داكنة تنبعث منها أبخرة خانقة لا يستنشقها إنسان وبعيش ، وعلى طول مجراه مناظر مروعة يرتعش أمامها أشجع الشجعان . ولم يكن بدء من أن تقطع الأرواح هذا الطريق قبل ولوجها فردوس النعيم .

كان الوادى مقسما إلى اثنتى عشرة منطقة ، يشير كل منها إلى ساعة من ساعات الليل البهيم ، ومدخله محصن بأسوار مرتفعة وبوابات ضخمة يقوم على حراستها وحش دميم . وعلى شاطئ النهر وفى ثنايا الصخور كننت الأفاعى ذوات الأعين النارية والفحيح الذى يخلع القلوب ، وأطلت الثعابين القاتلة من ججورها متربصة كلها بالحجاج ، الذين لم تهيأ لهم أسلحة النصر فى هذه الرحلة المريرة . ولم يكن فى استطاعة الروح أن تجتاز الوادى المظلم بمفردها ، لهذا كانت تتجمع الأرواح حول المدخل الرئيسى ، حتى إذا اقترب « رع » عند مغيب الشمس ازدحم الأموات الأرواح محاولين التسلق والدخول فى الزورق الإلهى ، وينجح عدد منهم فى الحصول على أمكنة فى القارب ، أما الذين تنقصهم أسلحة البر ودرع الفضيلة ، فتجرفهم الزحافات أو تبتلعهم المياه الخالكة ، أو تلتهمهم أفواه التماسيح . ثم يدخل الزورق ، ويبدأ الأموات رحلتهم فى ظل روح الإله « رع » . على أن ذلك لم يعفهم من مواجهة الأعداء المنبئين على جانبي النهر ، والأرواح الخبيثة التى تحاول أن تقلب الزورق وتحطمه بمن فيه . لكنهم استناداً على ذراع « رع » يتمكنون من صدّ الوحوش الهائمة فى المناطق الخمس الأولى . أما عند

المنطقة السادسة حينما ينتصف الليل فلا حول ولا حيلة للإله . بل أن « رع » يتخلى عنهم متنحياً مكاناً قصياً، ويقفل وراءه الباب كي تواجه الروح مصيرها وحدها ... إنها محكمة أوزيريس العظيم رئيس القضاة وديان الموتى ...

ردهة كبرى ينتظم على جانبيها اثنتان وأربعون إلهاً ممثلين عدد الإمارات في المملكة المصرية، يجلس كل منهم على عرش عاجي مذهب، يتوسطهم أوزيريس المهيّب فوق منصة تعلو تسم درجات ، متربعا على عرش من ذهب خالص ، في يده الصولجان وعلى رأسه تاج مصر المزدوج . وأمامه يأتي الإله « اتوبيس » وازن القلوب بميزان الحق الدقيق، ويضع في إحدى كفتيه ريشة العدل الإلهي، وبجانبه ينحني « تحوت » حارس القانون ومسجل الأحكام ، ومن وراءه هوة سحيقة احترقها زبانية الجحيم ، ومنها يبرز تنين لعين ، وقد كشف عن أنيابه منتظراً فرائسه بابتسامة ساخرة .

إنه لمشهد ترتد له فرائص الروح حينما تدخل بهو المحكمة، فتغيم أمامها الصور ، وتتراقص أشباح الآلهة ، لكن القاضي الأعظم يعطى فرصة، فيصبر حتى يستفيق الميت من الذهول . ثم تبدأ المحاكمة على الفور فتنهال الأسئلة على النحو التالي :

— هل ارتكبت جريمة أو نطق لسانك بالكذب ؟

— هل غدرت ببارك شاهداً بالزور، أو قتلت أخاك عن عمد وإصرار ؟

— هل أعطيت مجداً للآلهة، وهل أحببت قريبك كنفسك ؟

وينتظر الرئيس قليلاً حتى يستعيد الميت هدوءه من هول الموقف ، ويبدأ أعضاء المحكمة استجوابه فيما قد يكون ارتكبه من ذنوب وآثام ، فيسألونه عن جرائم الكذب والسرقة والقتل والخيانة وشهادة الزور وإيذاء القريب وعصيان الآلهة . ويحيب الميت « الروح » على هذه كلها إجابات مرضية مستعينة

في صياغتها بما تعلمه من كتبه المقدسة ، وما تلقاه في حياته من أفواه الكهان .
ثم تحين اللحظة الأخيرة الحاسمة فور انتهاء الاستجواب ، لحظة قاسية
لا يستخفي أثناءها سرٌّ ، بل كل شيء مكشوف وعريان . فيتقدم « حورس »
قومندان الحرس قابضاً على الميت ، ويخطو به نحو منصة الرئيس الذي يصدر
الأمر بخلع قلبه الروحاني ، فيتسلمه « أوتويس » ، ويضعه في إحدى الكفتين
مقابل ريشة الحق في الكفة الأخرى ، ويراقب « تحوت » حركة الميزان
بدقته المعهودة ، كما يراقبها صاحب القلب الموزون في رهبة وفرع ، وهو يرى
بعينه شراهة الوحش النهم الرابض في الحفرة من وراء . فإذا رجحت كفة
القلب أو تساوت في الثقل مع ريشة الحق في الكفة الثانية ، رضى عنه أوزيريس
وسجله « تحوت » في قائمة الفائزين .

ويا ويل من حذف اسمه من كشف المقبولين !

ويا ويل من غش الآلهة فيفضح غشه الميزان !

ويا عذاب من يوجد قلبه في الكفة إلى فوق !

فلا الدموع ولا الفحيب ولا التوسل ولا التوبة تشفع فيه الآن ، وسرعان
ما يتقدم الحراس الأشداء فيقودونه ويسوقونه إلى حيث يتلقفه الوحش الخبيث
بين فكيه ، ويمرق به داخل الهوة التي لا قرار لها ، هائماً بالروح أعواماً وأدهاراً
في بحيرة من نار .

أما المكتوبون في سفر الحياة فيخرجون من بهو المحكمة إلى الباب الخلفي ،
حيث ينتظرهم « رع » ، ويحماهم معه في قاربه إلى المنطقة السابعة في وادي ظل
الموت . ومن هنا تبدو أمامهم الرحلة أكثر سهولة وأخف عبثاً ، لأنهم نالوا
قوة بعد اجتيازهم أقسى امتحان . فيعبرون منطقة بعد أخرى ساحقين أعداءهم
دون كبير عناء ، حتى يقتربوا من آخر الأقسام .

لكن أظلم ساعة في الليل تسبق الفجر ، وكان على الأرواح أن تجتاز

الخطر الأخير الجاثم أمام زورق الزمان . فقد ربضت في مصب نهر الديفونة أفعى هائلة الضخامة ، بحيث لم تترك كتلتها مكانا للزورق ينفذ منه ، لا من حولها ولا من فوقها ، ولم يكن بدُّ من أن يشق الزورق طريقه في جوفها .

وعلى شدة ما انتاب المناطق السابقة من سواد حالك وعممة عتاء ، فإنها لا تُقاس بهذه الظلمة الكثيفة في بطن الحية الرقطاء — هذه الكثافة المظلمة يُحتمل أن تنهيه فيها الروح وهي على عتبة عالم النور ، لو لم تكن قوة « رع » حارسة ومسيّجة من حولها .

وفي نهاية المطاف يظهر قبس من النور ضئيل ، وبسرعة تزداد الخيوط توهجاً وإشراقاً . ثم تنفتح البوابة الأخيرة على مصراعيها ويبرز منها الزورق الذي يطوى ملايين السنين سابحاً في نور الشمس الوضاء ، فنستقبله الآلهة بأناشيد النصر وأغاريد الفرح .

وعندما ينشر « الإله » أشعته الذهبية حول الأرض يشترك الأضياف الذين حملتهم سفينة الزمان مع أجواق الأرواح الأبرار السابقين في أغنية حلوة شجية ، ترحيباً بدخول الفوج الجديد إلى حقل السلام في فردوس النعيم .

أخناتون والوحدانية

كنا نبحث حتى الآن المعتقدات الخاصة بتعدد الآلهة ، ولكن تاريخ الدين في مصر يقدم لنا في فترة معينة محاولة رفيعة الشأن ، ثاقبة الفكر ، بإدخال الوحدانية الإلهية لإصلاح الأوضاع الدينية القائمة يومئذ .

وكان منشأ هذا الإصلاح عقيدة اضطهرمت في نفس فرعون شاب ، مال إلى الإيمان بوحدانية الله . وقد التفّ حوله نفر من المتحمسين لهذه العبادة ، أزروه ووقفوا إلى جانبه ، فغيّر اسم الإله القومي من « آمون » إلى « أتون » ، كما غيّر اسمه هو من « آمينوحتب » إلى « أخناتون » . وأذاع في قومه أن يُعبد

« أتون » الإله الواحد الأحد ، خالق كل الأشياء ، والضابط كل المخلوقات
وفي تلك الفترة من تاريخ مصر ، كنت تسمع الكهنة يرددون الأناشيد الرائعة
في الهيكل والمعابد ، مثل قولهم :

« ما أعظم أعمالك أيها الإله .

« إنها خافية عن جميع البشر .

« أيها الإله الواحد ، الذى لا إله سواه .

« أنت خلقت الأرض حسب مسرتك .

« قد خلقت الجلد البعيد ، لتشرق منه بوجهك .

« لكى ترى عينك كل ما صنعت يداك .

« الأرض كلها بين يديك .

« لذلك أنت الذى صنعتها .

« فعندما تشرق تحيا الخلائق .

« وعندما تغيب تموت .

« لأنك أنت مصدر الحياة .

« وجميع الناس بك يحيون » .

وقد أمر ذلك الملك الشاب أن تمحى من الهيكل والسجلات العامة أسماء
وأشكال آمون وغيره من الآلهة . وحتى أوزيريس نفسه أهمل شأنه ليبيت
نسياً منسياً . ولكى يخلق جواً جديداً لبلاط ملكه ، يعينه على تحقيق
رغباته ، شيد أخناتون عاصمة جديدة للملكه جنوب طيبة . وأطلق عليها اسم
« اخيتاتون » (أى أفق أتون) . وكذلك أنشأ مدناً جديدة لتكون مراكز
لهذه العبادة الجديدة فى بلاد النوبة وسورية (وكانت يومئذ ضمن
الأمبراطورية المصرية) .

على أن هذا الإصلاح الرائع الذى أدخله أخناتون ، لم يكن مقدراً له أن يبقى بعد موته ، وذلك لأن فرعون الذى خلفه ، وهو زوج ابنته — استسلم صاغراً لكهنة الإله آمون القديم ، وغيّر اسمه من « توت عنخ أتون » إلى « توت عنخ آمون » ، وهو الاسم الذى عُرف به فيما بعد فى التاريخ . وعلى مقتضى هذه الردة عادت أوضاع العبادة القديمة ، وحذف اسم « أتون » من كافة الأماكن العامة .

وعاد إلى اعتلاء مكانة الكرامة والتوقير والعبادة « آمون رع » و « أوزيريس » و « ايزيس » و « حورس » ، وبقيت هذه الآلهة العديدة فى مركز القوة إلى أن تصدى لها عدو هائل ، وأنزلها من فوق عروشها ، وأزالها من الوجود إلى غير عودة — وكانت المسيحية ذلك العدو ، بل قلّ الصديق ، الذى أشرق على مصر بنور الوحدانية ، وبدد ظلمات جهالتها ، وأنار لها طريق الحق والحياة والخللاص .

٢ - بابل

ظهرت المدن، والحكومات، والكتابات، والهيكل، والكهنة، في بابل قبل ظهورها في مصر. ولكن الروح المنبثة فيها كانت أشد صرامة، وأكثر واقعية، وأقصى مظهراً، وكانت من هذا العالم وليست من العالم الآخر. وليس من العسير تأويل هذا الفارق، فمصر كانت، كما قلنا، مصنونة بصحراوات شاسعة من الشرق والغرب، وشلالات من الجنوب، وبحر من الشمال. أما « بين النهرين » (بابل)، فقد كانت سهلاً خصيباً بين نهريْن، وكانت مفتوحة للغزو من جميع النواحي. لذلك لم يسعفهم الواقع بالتفكير في الأخريات، واقتصروا على الاهتمام بالحياة الحاضرة؛ وكانت الحياة أمامهم عرضة للزوال، لذلك اقتنصوا كل ملامحها وملاذها على عجل، وفي نهم.

آلهة (بابل)

يقال انه كان في بابل القديمة ٤٠٠٠ إله، على أن كثيرين منها كانوا خدماً ورسلاً ومحاربين لآلهة أكبر. وقد مثل هؤلاء كل جزء في الطبيعة — السماء والهواء والأرض والمياه والشمس والقمر — وكان يتمّ بينها التزاوج والتناسل. وقد انقسمت هذه الآلهة إلى مجاميع إختصت كل مجموعة منها بشيء معين أو مدينة معينة.

وعلى مرّ الزمن غدت واحدة بين هذه الآلهة الكثيرة واسمها « عشتار » معبودة رئيسية في البلاد كلها، وهي الإلهة الام ولكنها عذراء في الوقت عينه. وباتصالها بالإله « تموز » - وهو إله الشمس ويقظة الربيع - جعلت من نفسها محبوباً بما لها من حق وسلطة. وكانت هي في الوقت عينه إلهة الخصب، تمنح الأمهات أطفالهن، والزروع والنباتات خضرتها وأوراقها. وكانت أيضاً كوكب الزهرة « ملكة السموات والنجوم ». وكان مقدراً لها أن تنتشر عبادتها إلى الغرب،

إلى فلسطين ومصر . وحتى أتباع زرادشت (دين فارس) لم يقبوا على مقاومة نفوذها، وبعد تغيير إسمها إلى «أناهيتا» (أى الطاهرة) ، جعلوا لها نفوذاً لا يقل عن نفوذ «أورمازد» نفسه ، كما سيجىء فى الحديث عن دين فارس فى فصل «أديان الشرق الأوسط» .

ماردوخ

أما المنافس الاقوى والأعظم للإلهة «عشتار» ، فقد كان «ماردوخ» . وقد آتته سلطته عن طريق حظوظ سياسية ، وذلك لان الملك السادس فى الاسرة الاولى لحكام بابل ، واسمه حمورابى (٢٠٦٧ — ٢٠٢٥ ق م ٠) (وهو المشرع العظيم وواضع القانون المعروف باسمه) ، كان قد جعل مدينته عاصمة مملكة قوية تمتد من الخليج إلى الولايات الوسطى ، التى يحتضنها نهرى الدجلة والفرات . وقد كان عمله هذا إنجازاً بارعاً ، إذ غدت بابل من ذلك التاريخ ، إلى عشرين قرناً لاحقاً ، من كبريات مدن العالم . وبازدهار قوتها ، قفز إلهها «ماردوخ» إلى مرتبة العظمة أيضاً تبعاً لها . وامتص جميع الآلهة المحيطة به ، وسلبها حكمتها وقوتها ، حتى صار رب السموات والارض .

الأساطير البابلية والشعر القصصى

كان للسومريين - وهم سكان بابل الاقدمون - خيال خصيب . وقد طاب لهم أن يرووا القصص عن آلهتهم وأبطالهم - ولسنا نقدر فى هذا المجال أن نسرد كل أساطيرهم وأقاصيصهم الشعرية ، على أننا سنكتفى ببعضها ، مما له علاقة بأسفار العهد القديم فى كتابنا المقدس .

١ - الخليقة :

تقول أسطورة سومرية قديمة ان نظام العالم الحاضر نشأ فى الأصل عن نزاع بين آلهة الشر والفوضى ، وآلهة النور والنظام . ولكن الكهنة البابليين

أعادوا كتابة المواد التي ورثوها، وجعلوا «ماردوخ» بطل النزاع ضد آلهة الفوضى، وخالق العالم والإنسان. وبعد أن رووا قصة مطولة عن هذا النزاع، ذكروا فيها أسماء الآلهة المتنازعين، انتهوا إلى أن «مردوخ» أمسك بزعيمة الآلهة «تيامات»، وشقها نصفين، وخلق بأحد النصفين القبة التي تمسك بالمياه فوق السموات، وخلق بالنصف الآخر الغطاء المعلق فوق المياه تحت الأرض. ثم أنشأ محطات للآلهة في السموات، وخلق الإنسان من دم أحد الآلهة الذين صرعوهم. من ثم صار «ماردوخ» ربّ الارباب، وسيد الآلهة.

٢ — الطوفان:

قصة الطوفان الأصلية كانت سومرية، وكان مبعثها الاختبارات المريعة التي تدوقها القوم من الفيضانات الكاسحة لهري دجلة والفرات. وقد رويت القصة في قصص شعري مؤداها أن الآلهة استشاطت غضباً وحنقاً، وقررت أن تعاقب الانسان على شره وفساده بإغراقه بالطوفان. على أنها قد كشفت هذا السرّ إلى رجل واحد، فابتنى لنفسه فلكاً، ويقول الرجل في قصته:

«أدخلت إلى الفلك أسرتي وأهل بيتي، ومواشي الحقل، والوحوش، وعدداً من الصناعات الماهرة. ولما أنزل ربّ الظلمة مطراً غزيراً أغلقت باب الفلك، وراحت تزأر الرعود، وتبرق البروق، وأظلم الأفق بغمامات سوداء، واستمر تهطال المطر حتى غطى وجه الأرض، فخافت الآلهة وتسلمت الجبال، وصرخت «عشتار» كامرأة تعاني أوجاع المخاض...

«ولما اقترب اليوم السابع هدأت العاصفة، وكفّ المطر، وأمسى كل الناس طيناً، ففتحت النافذة، وأبصرت النور، ثم جثوت وبكيت وسالت الدموع على وجنتي. ونظرت إلى الأرض كلها فاذا هي بحر طام. وبعد اثني عشر يوماً ظهرت اليابسة، واستقر الفلك على الجبل، فأرسلت حمامة طارت

هنا وهناك ، ولما لم تجد مستقراً عادت إلى الفلك . وبعددها أرسلت سنونوة ، فعادت أيضاً لأنها لم تجد مستقراً . وبعد ذلك أرسلت غراباً فلم يعد وسارعت إلى تقديم ذبيحة شكر على قمة الجبل» .

٣ - هبوط عشتار الى ارض الأموات :

هبطت عشتار إلى الهاوية لتنقذ حبيبها « تموز » الذي كان قد مات ، وهو إله الشمس والربيع الذي يخفت نشاطه عادة في فصل الخريف . وإذا تقف عند الباب تأمر إله الموتى أن يُفتح لها . ولكن إذ تجوز الأبواب السبعة ، يأخذ منها البواب عند كل باب قطعة من ثيابها لتدخل الدائرة الداخلية للعالم السفلى عارية تماماً . وهناك تبقى فترة من الزمن تتجرع فيها غصص الألم ، لأن إله الوباء يصيبها بستين مرضاً على التوالي ، وفي الوقت عينه يُصاب الناس والحيوان في العالم العلوى بجذب وعقم ، ويهجر الحب والخصب الأرض ، فتغضب الآلهة الأخرى ، وتبعث برسول إلى الهاوية . وتأمر إله الموت ، وهي مكرهة ، أحد أعوانها أن يرش ماء الحياة على عشتار ، فتعود إلى الصحو والازدهار ، وتبدأ رحلتها إلى العالم الأعلى ، وفي طريق عودتها تسترجع عند كل باب قطعة الثياب التي أخذت منها .

هكذا كان الاقدمون يعللون اختفاء إلهة الخصب والحب عند حلول فصل الشتاء ، وعودتها في فصل الربيع .

الذبايح والسحر والتنجيم

لكي يضمنوا نعم هذه الحياة ، لجأ البابليون إلى كهنتهم لتقديم الذبائح ، وطلب التعاويذ والرقى ، والأدعية الطقسية ، وقراءة النجوم . وكانت الادعية والصلوات مطولة ، ولكنها لينة عذبة تطرب لها الآلهة . وإذا لم تستجب الآلهة في رقة وعطف ، كانت هناك التعاويذ والرقى ، قوية أمرة ، تخضع لها الارواح

الشريرة . وقد أغدق العابدون المال على كهنة عشتاروث لكسب رضاهم ، ولم يكن في وسعهم إلا الدعاء والتضرع لإخراج الروح الشريرة من جسم الطالب .

أما الكهنة أنفسهم فقد كان لهم نظام محكم للقيام بخدمات كثيرة يقدمونها لعملائهم . وقد تلقنوا مدى الاجيال (منذ سنة ٣٢٠٠ ق م . ٠) أن يؤدوا واجباتهم في جمعيات (نقابات) هيكلية ، وقد كانت تلك وحدات قانونية تمتلك الاملاك والاموال ، وتدار على الاصول التجارية في الايرادات والمصروفات ، التي كانت تكتب أرقامها على لوحات من الفخار . وكانت تلك الجمعيات تدير أبنية الهيكل الهائلة التي كانت تبنى من الطوب الجفف في الشمس ، وتشمل مساحات واسعة ، في وسطها يقف جبل صناعي قام فوق قمته معبد صغير .

في تلك الأبنية قام الكهنة بطقوسهم ، وفيها أنشأوا مدارس لتعليم الناس القراءة والكتابة والحساب ، وفيها أيضاً مارسوا العرافة لقراءة علامات الأزمنة والإنباء بالمستقبل .

وكانت العرافة من أهم وظائف الكهنة . وقد تخصص فريق منهم في تأويل الاحلام والحوادث الطبيعية ، على أن أبرز أساليبهم في العرافة كان التنجيم ، وهذه ترجع أصولها إلى السومريين ، وكان لهم في هذا المضمار القدر المعلى .

وفي سبيل إحكام مانسميه بالأسلوب العلمي في قراءة إرادات الآلهة في أوضاع الاجرام السماوية ، احتفظ العرافون بسجلات دقيقة مفصلة عن حركات الأجرام السماوية ، فمهدوا بذلك الطريق لعلم الفلك الحديث ، وابتكروا آلات فلكية لقياس أبعاد الفضاء وأزمنة الكواكب في منتهى الدقة والضبط .

٣ - اليونان

رسم هوميروس الشاعر الأغريقى فى قصيده الرائع « الالياذة والاولديسا » صوراً براقية متلمعة لآلهة اليونان . وفى تصويره لم تسكن الآلهة تعيش فى أماكن منفصلة متباعدة، بل كان مقرها الرسمى فى « الأكربول » فوق جبل « الاوليمب » . وهناك نجد « زيوس » ملك الجو وصانع الأمطار ، (وهو بعينه جوبيتر عند الرومان) ، أكبر الآلهة وأجلها شأنًا ، وقد وفد من خارج بلاد اليونان وسلب سلطة آلهة محلية كثيرة ، وأخضعها لسلطانه ونفوذ .

وهناك أيضاً « هيرا » زوجته ذات الذراع الأبيض ، وابنته المحبوبة ذات العيون الرمادية « أثينا » ربة الحكمة ، وإبنة المدلل « ابولو » الذى يبرىء ويؤذى ، وأرطاميس الإبنة الخجول التى كثيراً ما تختفى فى شعاب الجبل ومعاقله ، و « أريس » محطم التروس المحارب الصنديد ، وهو أيضاً من أبناء زيوس ، و « افروديت » إلهة الحب ، ابنة زيوس من زوجته « ديون » ، والتى تزوجت من أخيها لأبيها وهو إله النار والحديد الأعرج ، وهو ابن زيوس من زوجته « هيرا » التى خانتها وعشقت « أريس » .

وهناك أيضاً « ديونسيوس » ابن زيوس من زوجته « سميل » . وأهم الجميع فوق جبل الأوليمب نجد « هرميس » ، المرشد السماوى ، الذى كان ثمرة الحب بين زيوس و « مايه » . وهو قبل كل شىء رسول الآلهة ، ولكنه ما كره حاد الذكاء ، ولا يتورع عن التواطؤ مع اللصوص حينما يخلو إلى نفسه ، كما يفعل عادة عند مغادرة « الأوليمب » لارشاد الأنفس من الهاوية واليهما - ولا يفوتنا أن نذكر « بوسيدون » إله البحر ، و « هيدس » إله العالم السفلى ، وكلاهما أخ لزيوس .

هذه هى أسرة آلهة الإغريق ، كما وصفها هوميروس شاعرهم القديم . وقد كانت آلهة القوى الطبيعية ، فى مستهل عصورها ، ولكنها فقدت هذا السلطان

تدريجاً . وارتقت وظائفها ولم تعد آلهة بدائية كتملك التي تمثلت في الحيوانات والنباتات والأحجار ، ولم تعد شخصياتها قوة غامضة ، نذير شؤم ونحس ، بل قد خرجت إلى ضوء النهار ، وعُرفت أوصافها وأهدافها ، وتميزت بعضها عن بعض ، وكانت تلك الآلهة في الواقع رجالاً ونساءً من الأرض ، تشبعت نفوسهم بأفكار ورغبات وأمزجة وشهوات بشرية . ولئن حُسبوا من الخالدين ، فما كانوا مجهولين مرهوبين الجانب . ومن ناحية الفن والجمال كانت آلهة الإغريق جميلة في أشكالها ، جذابة في مظهرها ، فاتنة في سحرها ، متحضرة راقية ، متناسبة الأوضاع والأحجام ، أجمل وأروع من كل الخلائق البشرية . والحق كانت الصورة التي رسمها هوميروس للآلهة آثمة قدمها للفنانين الأغريق في الأجيال اللاحقة ، فصاغوا الآلهة في تماثيل من الرخام والبرونز ، متناسقة في أشكالها ، بريئة من كل عيب جسائي ، تستلب الألباب ، وتبهر الأنظار ، وهي تطلّ من الأكربول بعيونها الناعسة الساحرة ، جاثمة في نوافذ وفوق أعمدة الهيكل ، كأنها سادة الأرض من عالم غير هذا العالم .

على أنه كان لهذه الآلهة سلطة عظيمة على حياة الإنسان ، للخير والشر على السواء . فبإرادتها كانت تسقط المدن ، ويموت الناس ، وتهزم الجيوش . وقد أدرك الناس أنه يقتضى القيام بطقوس الذبائح التقليدية في كل مناسبة ، والا صبّت الآلهة جام غضبها على الأهلين . ومع كل هذا فإن قوة الآلهة كانت محدودة إلى حد كبير ، وكان هناك مَنْ هو أقوى من زيوس ، أى قوة القضاء والقدر التي لا ترحم . وهذه لا تقف وحدها ، بل تعمل معها قوى خفية غامضة : الحماقة العمياء ، والرعب ، والنزاع ، والفوضى ، والإشاعات ، والموت . فالآلهة — وإن تكن قوية — محتواة في نطاق الطبيعة والتاريخ ، وليست قواها بلا حدود ، وإن تكن في ذاتها خلائق فائقة للطبيعة .

دين اليونان وشعراء التراجيدى (المأساة)

تدور روايات (التراجيديا) التي وضعها فطاحل شعراء اليونان — أشيلس

وسوفوكليس ويوريديس - حول موضوع خطير ، هو أن مصائب الناس والنائبات التي تحمل بهم ، إنما هي القضاء الرهيب الذي تنزله الآلهة . هذا ما فصلته الأساطير القديمة منذ القديم ، على أنه لم يكن واضحاً ، هل كانت تلك الآلهة مسوقة بهدف عادل وإرادة حرة ، أم كانت خاضعة لأحكام القضاء والقدر المتصلبة التي لا تلين ، والتي يخضع لها حتى الآلهة أنفسهم ، وهم خدامها ومنفذو أغراضها طوعاً أو كرهاً . وقد تصدى أولئك الروائيون الفطاحل لمعالجة المشاكل الإنسانية التي أثارها هذا الاضطراب الفكرى ، وفي قصصهم الروائى الشعري أبدعوا صوراً فكرية لا مثيل لها فى الأدب القديم .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد رفع أشيلس وسوفوكليس مرتبة الإله زيوس ، وأحلّوه مكانة عليا ، كمنفذ للعدالة العالمية . أما الآلهة الأخرى فبقيت إلى جانبه ، خاضعة لإرادته ، يسيطر عليها باسم العدالة التي يفرضها بقوته وسلطانه . ولم يعد القضاء والقدر قوة عمياء .

وأشيلس بالذات يضع زيوس فى مكانة عليا ، بحيث إما يأمر قوة القضاء والقدر ، أو تستجيب هى لخدمته وتنفيذ مقاصده . والواقع أن زيوس نفسه هو الذى كان يبعث بالقوى المنتقمة لعقاب خطايا الناس وذنوبهم ، التي تكسدت جيلاً بعد جيل من فعال الخاطئين المذنبين .

أما سوفوكليس الحكيم ، ذو القلب الرقيق الحنون ، فقد خلع على أخلاق زيوس بعضاً من صفاته الإنسانية الخاصة ، وراح يرطب أحكام زيوس الإله العظيم بعناصر الرحمة والحنان ، وكان أشيلوس قد رسمه قاسياً رهيباً فى غيرته الأخلاقية . وبعد قرن من تاريخ هذين الشاعرن ، يجىء يوريديس ، وقد أشبع عقله وفكره بالشكوك التي ولدتها سفسطة السفسطائيين ، وأجرأة العقلاء المفكرين ، وراح يرفع صوته مشككاً الناس فى طاعة الآلهة ، يل ذهب إلى أبعد من هذا المدى فى التساؤل حول عدالة الآلهة ونزاهتها وأمانتها . ولئن لم يكن

زيوس واحداً منها ، فقد تهجم فعلاً على ابولو وافروديت وغيرهما من الآلهة الصغار . وكثيراً ما أشفق في قصائده على الإنسان المنكوب البائس ، الذي قذفت به الآلهة الظالمة القاسية إلى هذه الأرض .

على أن يوربيدس لم يمجّد الآلهة كلية ، ويبدو أنه كان يبحث عن فكرة عن الله ، بريئة من أخطاء الاساطير والتقاليد .

الفلاسفة والآلهة

اتضح منذ البداية أن فلاسفة الاغريق ذهبوا إلى أبعد مما وصل إليه هوميروس . وقد بدأت الفلسفة اليونانية بنظرية وحدة الكون ، أى أن كل شيء في الكون — في وضع ما أو آخر — من عنصر واحد . وقد قال بعضهم ان هذا العنصر هو الماء ، وقال آخرون انه الهواء ، وقال غيرهم انه النار . ومهما يكن ، فقد اتفق الجميع على أن هذا العنصر يتضمن قوة الإبداع الإلهية . أما الفيلسوف «زيتوفانس» فقد قال ان القوة الخلاقية هي «إله واحد اعظم من جميع الآلهة والناس ، لا يحاكي الإنسان الفاني ، لا في شكله ولا في عقله ، يرى كل شيء ، ويعرف كل شيء ، ويسمع كل شيء . ولكن الناس أرادوا أن يروه على شاكلتهم ، فصنعوا له اجساماً بشرية» .

أما الفيلسوف افلاطون فقد انتقد في «جمهوريته» الفكرة البشرية في تصوير الآلهة ، وخشى النتائج السيئة في تلقين الشباب هذه الاساطير الهوميرية في أوضاع غير نقية . كذلك انتقد الاديان السرية ، وذلك لأنها لاتمارس العدل حباً في العدل ذاته ، بل لكي تظهر بالمنافع والفوائد التي «تزخسها السماء من عليها على المتقين» .

ولم ينكر افلاطون وجود الآلهة ، ولكنه قال انها ليست ضاللة عنيدة كما صورها هوميروس ، ولا منساقاة وراء العدالة المتحيزة كما صورتها الاديان السرية . إنما هي مسئولة أمام قوة عليا ، ومعتمدة عليها في اداء وظائفها ، وأن

فوقها ، ووراء كل المخلوقات والأشياء ، خالقاً أو صانعاً ، اتصف بكل القيم
والكمالات السامية ، هو الخير ذاته الذى عرف منذ البدء المثل العليا — التى
لم يخلقها هو — تلك المثل التى ألهمته ليخلق عالماً بما فيه من جبال ، وسهول ،
وبحار ، وآلهة ، وبشر ، وحيوانات . وهو الذى جسّم الخير والجمال والحق فى
درجات متفاوتة . أما الإنسان فهو نفس فى جسد ، وتفقر نفسه إلى النمو
والتطور نحو « الخير الاسمى » ، بحيث لا يضطر إلى معاناة الولادات المستمرة
من خليقة إلى أخرى ، بل تنطلق نفسه توالاً إلى تلك الحالة التى تقدر فيها —
مثل الله — أن تشاهد المثل العليا ، وتستمتع بها فى كامل حقها وجمالها وخيرها .
أما الآلهة فهى راغبة — من جانبها — عن تلك العبادات الخرافية والطقوس
السحرية التى وضعها الناس مغالاة فى تكريمها ، ولكنها راغبة فى أن يرى
كل إنسان نفسه رعاية صالحة ، ويسعى جاهداً نحو الخير الاسمى الذى نصبه
الله الإله الأعلى أمام عينيه .

وقد رسخت هذه العقائد فى ذهنه وقلبه ، حتى لقد أصرّ فى شيخوخته على
أن الإلحاد ، أو الزعم بأن الله لا يكثر بالإنسان ، أو أنه يمكن استرضاؤه
بالهدايا أو التقدمة ، كلها مشحونة بالخطر الداهم على المجتمع .

ويمكن الإسهاب طويلاً فى الحديث عن آراء أفلاطون وأتباعه من
الفلاسفة ، ولكن حسبنا أن نشير فى كلمة ختامية إلى أن أرسطو الفيلسوف
لم يجد فى مطارحاته الفلسفية ضرورة لآلهة اليونان التقليدية ، ولكنه فى تفكيره
عن الكائن الأسمى ، جعل الله « المحرك الاول » ، أى محرك كل الاجسام فى
السماء وعلى الارض ، يجذبها إلى نفسه ، وهو ثابت لا يتحرك .

وقد تحرر أرسطو ، والرواقيون ، والافلاطونيون الحديثون — شأنهم شأن
أفلاطون — من القيود التى قيّد بها أنفسهم مواطنوهم الاقل شأناً ، وهم يجاهدون
سعيّاً وراء حياة أكثر ملئاً ، وأوفر حرية ، وحكمة أعظم شأناً وأجلّ قدراً .

٤ - الرومان

إن ما قلناه عن دين اليونان ، يصدق أيضا على دين الرومان . وذلك لأن الكتابات الكلاسيكية المتأخرة لا ترسم لنا البدايات الأولى التي بدأ بها القوم عبادتهم . ولا بدّ للباحث أن يعود إلى وراء ، إلى الآراء المستوردة من مصر والشرق الأدنى ، وإلى الآلهة المقتبسة من الدين اليوناني ، والثقافة اليونانية .

بدأ دين روما القديمة ، مثل المدينة ذاتها ، بداية وضيعة . فقد كانت الأماكن المقدسة خارج تحومها ، فالإلهة ديانا عُبِدت في كهف فوق جبل بعيد عنها ، وكان هيكَل جوبيتر في مقاطعة أخرى لا تمتُّ لها بصلة . وقد خلع الرومان على آلهتهم الأولى صفات وخواص غامضة مبهمه ، فلا شخصية تميّزها ، بل لم يميزوا بين الذكر والأنثى من هذه الآلهة . ولم يعرف الدين الروماني القديم أساطير عن الآلهة ، ولا من أين جاءت ولا كيف جاءت . ولم يكن بين تلك الآلهة تزاوج ولم تلد أنسالا ، ولم يكن في الدين أبطال نسجت حولهم القصص والأساطير ، كما فعل هوميروس مع اليونان .

ولم يرسم الرومان صوراً لآلهتهم ، ولم يصنعوا تماثيل ، ولم يخلعوا عليها شخصيات معينة إلاّ مؤخراً ، بعد أن تلقنوا ذلك من اليونان . وكانت في بادئ الأمر مجرد أرواح وقوى عاشت في الحقول والمزارع . وذلك لأن الرومان شغلوا في أول عهدهم بالزراعة وإنجاب الأطفال والحرب .

دين الدولة الرومانية في بكور عهدها

تطورت العبادات والعقائد الريفية الزراعية ، ونسقت في نظام محكم . وكان لكبار الآلهة كهنة لكل منها ، ولكن الحفلات الدينية القومية لم تكن دائماً موكولة إلى أولئك الكهنة ، ففي عهد الملكية كان الملك هورثيس الكهنة يتولى كل الحفلات الهامة .

وكانت تلك الحفلات - أو الأعياد القومية - عديدة ، قيل إنها كانت ١٠٤ عيداً في العام ، وفيها كانت تجرى مراسم معينة وتقدم الذبائح والتقدمات . وهذا قد نسأل : ما هي الآلهة التي كانت تقام لتكريمها تلك الحفلات ، وهنا نرانا أمام سلسلة عجيبة من أسماء الآلهة القومية ، يبلغ عددها ٣٦ إلهاً نذكر منها على سبيل المثال : يانوس Janus - جوبيتر Jupiter - مارس Mars - نبتون Neptune - فينوس Venus - أبولو Apollo - مينرفا Menerva - ميركوري Mercury .

جوبيتر :

وهو زيوس عند اليونان - لا يعرف له أصل تاريخي . ويقال إنه وفد إلى إيطاليا من فوق الجبال كما فعل في بلاد اليونان . ثم امتص خواص ووظائف الآلهة المحلية الصغرى ، وصار إله الرعد والبرق والمطر ، ولأنه كان إله النور أيضاً ، كانت أيام اكتمال البدر مقدسة له . وهو الذي سبق وقدّر مصائر الناس . وقدّم لهم إيماءات من نور للدلالة على أحداث المستقبل بعلامات في السماء وطيران الطير . وكان البرق في يده سلاح تأديب وانتقام للشرو والأشرار ، وذلك لأنه كان قيماً على شرائع الدولة وأحكام العدالة . وقد بنى له الرومان هيكلًا فوق الكابيتول . وفي العصر المتأخر جعلوه حارساً لرومية ، فكان له نصيب في الإجماع الإمبراطورية التي اعتزت بها المدينة ، وُخلعت عليه ألقاب تدل على العظمة والنصر ، والقوة والقهر . وكان يتعبد له الولاة وحكام الأقاليم قبل مباشرة وظائفهم . وكانت مواكب الانتصار التي يتقدمها قادة الحرب بعد عودتهم من معارك النصر ، من أروع وأبهى المشاهد في عاصمة الإمبراطورية ، تزدهم فيها الطرقات بجماهير الشعب هادرة بأصوات كالرعد ، حاملة الفنائم والأسرى إلى هيكل جوبيتر .

الاله مارس :

هو إله الحرب وقد كان في الأصل حامى الحقول والقطعان من القوى المعادية -

من حيوان أو إنسان أو قوة فوق الإنسان ، ولكنه اقترن بالحرب ، وتغيّرت طبيعته ، بعد امتداد الإمبراطورية الرومانية . وقد خلّف لنا أحد الكتّاب وصفاً لطبيعة مارس الهادئة الناعمة قبل أن يصير إله الحرب والنزال ، يرسم فيه الكتّاب موكب فلاح وأسرتة يدور حول تخوم مزرعته ثلاث مرات ومعه خنزير وخروف وثور ، وهى الضحايا التى كان يقدمها للإله ، مقترنة بسكّاب من الخمر ، وأدعية فى ذلة واتضاع .

أما وقد صار إله الحرب بعد ذلك ، فإن الرومان شيدوا له مذبحاً فى وسط مدينة رومية . وكانت رموزه المقدسة الرمح والترس ، وكان الذئب حيوانه المقدس ، وبعض صفار الآلهة خدمه وعبيده .

الاله يانوس Janus

كان حارس الباب ، يُطلب فى الواقع عند البدء فى أى عمل أو مشروع . كان إله البدايات ، الساعة الأولى فى اليوم ، اليوم الأول فى الشهر ، الشهر الأول فى السنة . ولذلك سمّى الشهر الأول من السنة على اسمه « يناير January » أما شعاره الأصلى فى رومية فكان « بابا » لاغير ، قام عند الزاوية الشمالية الشرقية ، فى الساحة الكبرى بالمدينة .

الأترسكيون Etruscans

يقول المؤرخون ان « الأترسكيين » بسطوا نفوذهم وسلطانهم على رومية فى القرن السادس قبل الميلاد . وأولئك وفدوا إلى رومية على سفن من شرق البحر الأبيض المتوسط ، وسرعان ما استولوا على كل السلطة وأخضعوا الرومان الأصليين - وكانوا على جانب عظيم من النشاط والجد فى العمل ، ومن عشاق التجارة وحسن التنظيم والتدبير ، فاقاموا سوراً حول رومية لحمايتها من الغزاة ، وأدخلوا آراء جديدة على دين الرومان ، وحلوا معهم آلهة جديدة ،

دون أن يعتدوا على العقائد والطقوس القائمة ، وابتنوا هيكلًا للالهة « ديانا » في أشهر مواقع رومية ، وهيكلًا رائعًا من صنعهم للآلهة جوبيتر ، ويونو ، ومينرفا ، وأقاموا تماثيل للآلهة ، وكانوا هم الذين ابتدعوا هذه الفكرة .

وفي وضع جوبيتر ، ويونو ، في هيكل واحد ، نرى بداية لفكرة الزواج بين الآلهة ، فقد أُعتبر الاثنان زوجًا وزوجة ، وكانت هذه الفكرة غريبة على الرومان لم يألفوها من قبل . وغدت الإلهة « يونو Juno » ربّة النساء والبنات وكان يُطلب عونها ساعة الولادة .

أما الإلهة « مينرفا » التي جاء بها « الاترسكيون » ، فكانت تشبه في أخلاقها « أثينا » إلهة اليونان . وكانت ربة الحكمة ورعاية الفنون والآداب . وعلى مرّ الزمن كان الرومان يلتمسون عونها في زمن الحرب ، لذلك كانوا يمثّلونها مرتدية خوذة ودرعًا ، وفي يدها رمح وترس ، كما كانت تفعل شبيهتها اليونانية .

الرومان يقترضون من اليونان

وبينما كان سلطان رومية السياسي يزحف نحو الجنوب في ايطاليا ، كانت الثقافة اليونانية تزحف من الجنوب إلى الشمال . وقد تأثر الرومان أيما تأثر بالطقوس اليونانية ، وكانت مشبعة بالحماس والخيال والروعة التي افتقر إليها دين الرومان . وقد أبدى الرومان رغبة حارة لاقتباس الآراء اليونانية الدخيلة ، دون المساس بآرائهم وعقائدهم القديمة ، وانضمت إلى آلهتهم ، أرباب أخرى مثل هرقل ، وديونيسوس ، وابولو ، وهرمس ، وأفروديت .

وكان من جرّاء هذا كله أن أضيفت أبعاد جديدة إلى دين الرومان . ويقول أحد المؤرخين انه في سنة ٣٩٩ ق.م . تفشى في رومية وباء شديد الوطأة ، فأقام الرومان وليمة فاخرة استضافوا فيها أبولو ، وهرقل ، وديانا ، وميركوري ، ونبتون ، لاسترضائهم جملة واحدة ، وإلتماس تدخلهم لرفع الوباء . وتدرّجًا راح الرومان يخضعون على آلهتهم صفات وخواص انسانية .

وإلى جانب هذه الآلهة المستوردة ، شغف الرومان بالأساطير والقصص اليونانية ، فاستعادوا بعضاً منها إلى المشاهد الإيطالية وأدججوها في تاريخهم ، وأعادوا نشرها في نماذج جديدة لتكون جزءاً من التراث الرومانى .

استيراد من الشرق

لم تكن تلك الملحقات التى أضيفت إلى العقائد الرومانية منحرفة كثيراً عن الاتجاهات الثقافية العامة التى ظهرت فى الحياة الرومانية . على أننا سنجد الآن إلى متجهات فكرية غامضة خفية . وذلك لأن رومية ، فى تطورها لتغدو قوة دولية مناضلة فى سبيل السيادة على حوض البحر الأبيض المتوسط ، تقف وجهاً لوجه أمام ثقافات وعبادات تختلف كلية عما ألفته وعهده فى موطنها . ووقف أهلها ، الذين كانوا قد بعدوا عن الحياة الريفية الزراعية فى أوائل عهدهم ، واعتنقوا فكرة حضرية إمبريالية — أمام أفكار غريبة خفيت عليهم معانيها ومراميها ...

وكانت الممارسات الرومانية القديمة قد بدأت تخيَّب آمالهم ، ولا تنسجم مع عقليتهم الجديدة . وأخذوا يحشون بشىء من الجذب والإحمال فى نفوسهم الداخلية ، وتاقوا إلى إشباع من نوع آخر يُخصب أفكارهم وخيالاتهم ، ويجعل للحياة معنى وقيمة . قد راودتهم الشكوك ، فنشطوا للبحث عن أديان وعقائد جديدة . من ثمَّ عكف الرومان على إستيراد الثقافات والأديان السرية لعلهم يجدون فيها إشباعاً عاطفياً لنفوسهم الجائعة . ومن تلك الأديان السرية التى استوردوها دين « باكوس » ، السرِّى ، وهو (ديونيسوس) بما حوى من طقوس وممارسات سرية . وقد أقبل الرومان على هذه العبادة ، لافى رومية فقط بل فى كل أنحاء إيطاليا . على أن الطبقات المثقفة عافت السرية فى كل أوضاعها وارتابت منها أشد ارتياب ، ولم تقبل إلاَّ أبشع ما فيها ، وهو حفلات السكر

والخلاعة والعريضة . لذلك سنّ مجلس الشيوخ الرومانى قراراً فى سنة ١٨٦ ق.م بالغاء هذه العبادة ، على أنها عادت إلى الحياة مرة أخرى ، وسُمح لها بالبقاء تحت رقابة شديدة من الدولة .

وفى السنوات التالية حطّت فى رومية آلهة وعبادات شرقية أخرى ، وبلغت شأواً رفيعاً فى نفوذها وقوة تأثيرها ، نذكر منها « ما » من كبدوكية ، وأدونيس من سوريا ، وايزيس وأزوريس من مصر ، ومثرا من بلاد فارس - كل هذه الآلهة دخلت إلى رومية ، وقد قدّم كل منها ، على مقتضى عبادته ، إختباراً دينياً وعقيدة فى الخلود كانت تنقص دين الدولة الرومانى ، وكان ذلك الدين قد انحدر إلى الحضيض بعد أن تولاه الساسة اللادريون ، والكهنة الذين فقدوا إيمانهم واهتزت عقائدهم .

المرحلة الأخيرة

إن تاريخ دين الرومان فى خلال القرن الأخير من عهد الجمهورية (١٥٠-٤٩ - ق . م) يصوّر لنا قوى متنافذة تتحرك الى اتجاه مضاد تماماً للاتجاهات فى العصور الأولى - لم يكن الإتجاه جذباً الى مركز الدائرة بل ابتعاداً عنها وخروجاً على المألوف المتواضع عليه من عقائد وممارسات . وكان دين الدولة قد أصيب بنكسة ، وراح يهوى الى الدنى ، وأمسى مجرد أوضاع شكلية جافة فارغة لاهية فيها . وصارت رومية إلهاً تعبد ذاتها (Dea Roma) ، فما حاجتها بعد إلى هذه الآلهة القديمة التى لم ترو لها ظمأ . أما الطبقات المثقفة ، التى أثارتها - أو خدعتها - الفلسفة اليونانية ، فقد راحت تسعى فى طريق الإلحاد الذى ولجه الإبيقوريون ، أو مذهب الحلول الذى نادى بها الرواقيون ، وإلاّ فالى مهواة الخيبة وعدم الاكتراث وإغفال كل دين - ولنا فى موقف الفيلسوف شيشرون مثال نموذجى : فهو قد مال إلى الفلسفة الرواقية ، ولكنه لم يحدد موقفه ، وراح يعرج بين آراء وعقائد كثيرة ، لأن شكوكه سدّت عليه كل

المنافذ . وكان الدين في نظره متعة للنقاش على موائد الطعام ، أوفى مسامرات الأصدقاء إبان الفراغ . وفيما عدا العنصر السياسى السكامن في الدين الذى كان بمثابة رابط سياسى ، فانه (أى الدين) لم يكن ذا شأن ولا قيمة للمفكر الحصيف . وبعد إنقضاء جيل من الحروب الأهلية التى هدّت الأعصاب ، حاول أوغسطس قيصر أن يعيد العالم إلى حالته الطبيعية بإحياء الممارسات الرومانية القديمة ، وترميم هياكل رومية المهدمة ، وحثّ الناس على الانخراط فى سلك الكهنوت ، وبناء هياكل جديدة . على أنه هذا كله لم يكن كافياً . لأن أثره لم يعمد رومية ، وحتى هنا لم يلقَ إلا استجابة خافتة . وقد عرف أغسطس قيصر النفع السياسى الذى قد يعود عليه إذا ما حسبته الناس إلهاً خارج رومية ، وذلك لأن العالم افتقر إلى قوة ، إلى عبادة تربط أجزائه معاً ، وظن فى نفسه أن «عبقريّة» البيت الأمبراطورى قد تكون أفضل السبل لتحقيق هذا الهدف . ولتشجيع هذا الإحساس شيّد أوغسطس هيكلًا فى ساحة رومية ، وزوده بكهنة اصطفاهم خصيصاً ، وكرسه ليوليوس قيصر أبيه الذى كان قد تبناه ، وكان مجلس الشيوخ الرومانى قد خلع على يوليوس قيصر لقب « إله » فى سنة ٤٢ ق . م . أما عن نفسه فقد اكتفى أوغسطس بإقامة معابد صغرى تُعبد فيها فيها «عبقريته» (لأشخصيته) . هنا كانت بداية عبادة الإمبراطور . وقد كان من إمارات الولاء للإمبراطورية فى الأقاليم الخاضعة لرومية أن يقدّم الناس الإكرام والتوقير « لعبقريّة » الإمبراطور ، وأحياناً للأمبراطور نفسه . ولئن يكن أغسطس قد أبى فى حياته أن يتلقى التكريم لشخصه ، فإن إسمه قد خلد بعد موته بين الآلهة ، وأقيم هيكل تكريماً له ، وكهنة للعبادة فيه . ولم يلقَ هذا التكريم كل الأباطرة الذين خلفوه ، على أنه على مرّ الزمن ، صار تكريس الإمبراطور كإله جزءاً من مراسم جنازته الإمبراطورية . وأخيراً وضعت حالة الألوهية على كل إمبراطور قبل موته ، ومن بينهم كاليغولا ودوميتيان ،

وهما اللذان ولغا من دماء المسيحيين ابان الإضطهادات المريرة التي اشتعلت نيرانها بسبب رفض المسيحيين السجود أمام تمثال الإمبراطور وتقديم العبادة له. أما نيرون الطاغية فقد طاب له أنه يجعل نفسه معادلاً للاله أبولو .

أحسّت الإمبراطورية ، وهي تجاهد في سبيل الاتحاد والتضامن ، انها جدّ مفترقة إلى أكثر من مجرد الشرائع الشكلية والحكومة العادلة ، ولم يكن بد من وجود ولاء مشترك ، وتوقير موحد ، لمن هو أسنى الكل . وحين رأى القوم أن كثرة الأديان وتعدد الآلهة تبعثر الأفكار ، حاولوا تجميعها وتوحيدها في شخص الإمبراطور . على أن هذه الفكرة لم تلق التوفيق لأنها لم تكن جامعة شاملة ، ولم تقدر أن تربط الإنسان والمجتمع والكون في رابطة واحدة وهدف واحد ، وفشلت في أن ترتفع فوق مستوى العقائد الدينية الكثيرة التي اكتظت بها منطقة البحر الأبيض المتوسط آنئذ ، ولم يكن بها من القوة ما يكفل تغيير القلوب والعقول .

ولا غرو أن الصفات الجوهرية والحوافز الأخلاقية الدافعة لا تخلفها العقائد البسيطة الساذجة . وقد اثبتت الحوادث - في رومية ، كما في مصر وبين النهرين واليونان - أن الدين القومي المنبثق عن مزج الآلهة بعضها ببعض من هنا وهناك لم يكن إلا محاولة وقتية ، ولم يلبث طويلاً حتى استسلم خاضعاً إلى دين آخر ، أعمق معنى ، وأقوى أثراً ، وأوسع مجالاً . .

وكانت المسيحية هي ذلك الدين الذي ترقبته الأجيال المتعبة اللاهثة ، وهو الدين الذي يربط الإنسان والمجتمع معاً ، بل يربط الإنسان وأخاه في الإنسانية والكون كله تحت سلطان إله واحد . .

وسنرى في غير هذ المكان كيف انتصر هذا الدين في العالم المتحضر يومئذ .

الأديان السرية

كان في العالم القديم قول شائع « من الشرق يجيء الخلاص ». ولم يقصد الأقدمون بكلمة « الشرق » الهند والصين واليابان ، بل شرقهم هم ، الذي شَعَت منه أنوار الحضارة أصلاً ، وهو الطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، الذي نسمّيه اليوم « الشرق الأدنى » . وإلى هذا « الشرق » الذي ضمَّ مصر وفلسطين وسورية والعراق وبلاد فارس ، تطلع العالم القديم في القرن الأول قبل العصر المسيحي وبعده ترقباً للأديان الجديدة . وإذ لم يكتفِ الناس بطقوس الدولة الباردة ، ولم تقنعهم الأساطير الريفية الساذجة ، وقعوا تحت سحر عبادات الشرق القديمة وطقوسها الخلابية . ومع أن مجلس الشيوخ الرومانى حظر في أول الأمر إدخال الأديان الشرقية إلى رومية ، فإنه اضطر في آخر الأمر إلى الخضوع تحت ضغط المطالب العامة الملحة . وكإنسان عليل يلجأ إلى كل علاج جديد أملاً في الشفاء ، تهافت العالم القديم على كل دين جديد يتخيل فيه بعض العون وإشباع رغباته .

وكانت تسمّى تلك الأديان الشرقية أدياناً « سرية » ، لأنها كانت في الواقع جمعيات دينية سرية ، وكان التعليم الدينى فيها سراً لا يُلقن إلا للأعضاء . ويمكن تشبيهها الى حد ما بأنظمة المحافل الماسونية التى تشمل طقوساً وقصصاً لا يعرفها الا الالتمتون اليها . وكان على العضو أن « ينضم » الى الدين فيطلع على أسرارهِ . وكان كل الأعضاء يؤلفون أخوية مرتبطة بروابط الشعور الدينى . وكان لسلك الأديان السرية مظاهر مشتركة خاصة ، تركزت حول حياة وآلام بطل ما ، بلغ طور الألوهية والخلود بعد أن عانى آلاماً ظالمة . ويمكن لأعضاء الدين السرى أن يشاطروا بطلهم هذا الفوز على متاعب الحياة ومشقاتها والظفر بالخلود النهائى ، إذا هم اعتصموا بإلههم البطل ، ومارسوا طقوساً ورسوماً

معينة . وقد حاول الدين السرى أيضاً أن ينظم حياة أعضائه ، فكان « طريقاً للحياة » ، لا وضعاً فقط من أوضاع العبادة . وفي بعض الأحيان - كما في الأديان السرية اليونانية القديمة - تضمنت « طريق الحياة » هذه ، الفضائل السامية وحياة فاضلة . ومن الأسباب التي جعلت هذه الأديان السرية مقبولة لدى العالم القديم أنها قدمت للناس ارشاداً للحياة العملية ، وهو أمر يظن أنه للجميع .

وكانوا يجتمعون عادة في هيكل وأما كن للعبادة تحت الأرض في أغلب الأحيان ، ولم يكن يُسمح للدخول فيه لغير أعضاء الدين . وفي المكان للمعين كانت تجتمع الجماعة للاحتفاء بنصر إلههم البطل ، وللممارسة طقوس تضمن لهم مشاطرته هذا النصر . وكانوا في أحيان كثيرة يرتدون ثياباً خاصة ويقومون بمراسم للتطهير المقدس . وفي أحيان أخرى يستسمنون إلى هوس ديني فيرقصون في الشوارع وينشدون أغانيهم المقدسة . وكل هذا لكي يكفوا الانطلاق من متاعب الحياة وهمومها ، ويضمنوا السعادة والغبطة في الحياة الأخرى ، وهو ما تصبو إليه نفوس البشر .

وأشهر هذه الأديان السرية وأكثرها شيوعاً كان مصرياً في أصله . وكانت بطله هذا الدين إيزيس ، إحدى إلهات وادي النيل قديماً . وتروى القصة أن زوج إيزيس - وهو أوزوريس - قتله خيانة أخوه ست ، فراحت إيزيس تبحث عن جسده الميت حتى وجدته بمعونة ولدها حورس ، وأخيراً صار أوزوريس خالداً وقبلاً في زمرة الآلهة . وتدرجاً تعالت إيزيس على أوزوريس وخسفته وصارت هي وولدها حورس مركز الدين السرى . وكان يعبدانها النساء خاصة . وأكبر دليل على شيوع هذه العبادة في العالم القديم أنه وجدت تماثيل لإيزيس بعيدة عن موطنها مصر - في أحواض أنهار السين والدانوب والرين ، وبنى لها هيكل كبير في العاصمة رومية ، وانضم إلى عبادتها كثيرون من أفاضل المواطنين في رومية يومئذ ، وأحصى بينهم كثيرون من المثقفين ، وذلك لأنه قد عثر على رسالة بعث بها الشاعر اللاتيني تبولوس إلى

خطيبته ، وكان قد أصيب بمرض في أثناء حملة حربية ، يقول فيها : « ماذا تفعل بي ايزيس الآن يا دليا . . العون ايها الإلهة » .

وإلى جانب ايزيس كانت آلهة مصرية أخرى كثيرة ، بينها سيرايس الذى دفنت عجوله المقدسة في مدافن سقارة ، وانويس وهو إله له رأس كلب . وجاء أحد تلك الأديان السرية من بلاد فارس . وقد أقيمت أصوله على المتاعب التي عاناها ، والنصر الذي ظفر به ، بطل شاب يدعى مئراس . وكانت عبادته شائعة في الجيش الروماني ، فعبدته كتائب كاملة من الجيش . ومن أهم الظواهر في ذلك الدين ، الطقس الذي كانوا يسمونه الغسل بدم الثور . فكان يوضع كل راغب في الانضمام لهذا الدين تحت (طبلية) من خشب وقف عليها ثور حي . وبعد تلاوة الكلمات المقدسة والقيام بالطقوس المقدسة ، كان يذبح الثور ويتساقط دمه على الشخص الجالس تحته ، وبهذا الطقس كانوا يزعمون أنه قد صار للعابد بطريقة سرية ، نصيب في حياة مثرا الإلهية ، وحق في الخلود . وقد عثر على قبر لعضو من أعضاء هذا الدين نقش عليه « ولد ثانية يغسل دم الثور للأبدية » .

وكانت هناك أديان سرية أخرى كثيرة نشأ معظمها في رقاع الأرض التي نسميها الآن تركيا وسورية ومصر . وكان شائعاً للإنسان أن ينتمى لاثنتين أو ثلاثة من تلك الأديان للتأكد من الضمان . وكان فيها بعض المثل العليا ، ولكنها حفلت بالسحر والشعوذة والخرافات ، واستندت إلى قوة الألفاظ والطقوس المقدسة . والأشخاص الذين حيكت حولهم مراسم العبادة كانوا أشخاصاً خرافيين خياليين لا وجود لهم البتة في التاريخ . ولم تشبع تلك الأديان الرغبات والأشواق الدينية في العالم القديم ، بل كانت أشبه بأدوية الدجالين وأدعياء الطب التي يُستساغ مذاقها ، ويرجى منها الخير الكثير ، ولكنها لا تعالج أصول الداء .

أديان الهند

تمهيد

إن شعوب الهند - بحكم طبائعها وأمزجتها - لا تجد إشباعاً فيما تقدمه حياة الدنيا . فالحياة الجسدية في نظر تلك الشعوب ثانوية ، تفضلها حقائق العقل والروح . كذلك لم يروا في عالم الطبيعة والمادة الإمكانيات الكافية التي تروى ظمناً عقولهم وأرواحهم ، وحسبوا هذه المظاهر كلها خداعاً باطلاً ، وتاقت نفوسهم إلى الخلاص من العالم المادى ، ومن مظاهره الخادعة واختبارات المضللة . أما الحقائق الثابتة التي تضمن لهم إشباعاً باقياً خالداً ، فقد جاهدوا العلمهم يعثرون عليها في العالم العقلى الروحى . ومن هنا نشأت معتقداتهم فى ناموس « الكرما » وتناسخ الأرواح ، كما سنرى فيما بعد .

والهند بلاد قديمة ، تقطنها شعوب عريقة ، فقبل سنة ٢٠٠٠ ق.م. كان يقطنها - وخاصة فى الجنوب - قبائل بدائية ، من ذوات الشعر المجمد ، والثقافة الفطرية ، وما تزال بقاياهم مبعثرة فى الغابات والحراج فى جنوب الهند ووسطها . أما فى الشمال والشرق فقد تنازعت ملكيتها قبائل ذات أصل منغولى ، وفى مناطق نهر « الأندوس » سكنت قبل سنة ٢٥٠٠ ق.م. شعوب

مختلطة في أصولها وسلالاتها ذات حضارة برونزية — أى من العصر البرونزى .

وحوالى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد هبط إلى بلاد الهند من معابر جبالها الشمالية قبائل من سلالة مختلفة ، هى التى كان مقدراً لها أن تقهر الهند ، وتصنع تاريخها ، وتصيغ أديانها وثقافتها . وكان أولئك من ذوى القامات الفارعة ، والألوان الفاتحة ، وقد أطلقوا على أنفسهم لقب « الآريين » وهم من السلالات عينها التى رحلت من أواسط آسيا إلى شال أوروبا وغربها وشمالها ، وبامتزاج دماؤها ولغاتها كونت شعوب اليونان ، واللاتين ، والألمان ، والكلت ، والصقالبة .

وقد دخل إيران فرع آخر من هذه السلالة عينها ، وكانوا كلهم من الآريين الرحل ، وفى هبوطهم من هضاب آسيا افترقت جماعات عن الأخرى ، فنزل بعضها جنوباً إلى إيران ، ورحل غيرهم إلى الهند جنوباً وشرقاً ، وقد تولدت على مرّ الزمن فوارق بين الإيرانيين ، وبين الهنود الآريين فى اللغات والعادات والأديان ، كما نشهد ذلك جلياً فى التفاوت بين دين الفرس (زرادشت) ، وبين الهندوسية ، على أنه يمكن تتبع المشابهات الأصلية بين الفريقين بدون عناء فى اللغة والدين .

وكان لكل قبيلة من القبائل التى نزحت إلى بلاد الهند ملك أو رئيس يسمونه «الراجا» . وكانت وظيفته وراثية . وعلى مسار التاريخ اتسعت سلطة هذا الملك بانضمام الأقاليم المتاخمة إلى دائرة ملكه ، وامتناع عن سائر المواطنين بملكية قصر ضخم ، وحاشية كبيرة ، ومظاهر براقة ، وجيش مقاتل لحمايته وشعبه ، ولقيف من الكهنة لضمان الخيرات الإلهية على رعاياه ، وتركيز الآلهة لأعماله وتصرفاته . وإلى جانب الحاربيين والكهنة جباهير خفية من الفلاحين والرعاة الذين كانوا يزرعون الأرض ويربون الماشية .

الهندوسية

(وهي دين الغالبية في بلاد الهند)

من ألد البحوث وأمتعها في عالم الدرس ، البحث في أديان الهند . والهندي بطبيعته إنسان متدين يشغف بالروحانيات كما قلنا . ونحن إذا راقبنا عن كثب مفكرها وزهادها ، وكيف يصارعون مشا كل الحياة والموت ، ويسعون دائبين إلى معرفة الله ، لا يسعنا إلا الإعجاب بزهد الألوف والربوات من شعوبها وتقواهم وورعهم .

وفي بلاد الهند أديان كثيرة . ولكن الهندوسية (Hinduism) هي دين الغالبية . وليس لها مؤسس يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها . ولكنها دين التطور ، وبين ثناياها وثنية ساذجة ، وآراء فلسفية سامية ، وزهد صادق - كل هذه ممتزجة معاً بحيث يصعب الإلمام بالدين كله جملة واحدة .

الكتب المقدسة : Vedas

قلنا انه في تاريخ بعيد يرجع إلى سنة ١٥٠٠ ق. م. أخذ قسم من الجنس الآري يستوطن الأقاليم الغربية في بلاد الهند . وذهب قسم آخر إلى بلاد فارس ، فكأنهم من السلالة عينها التي أنتجت أجناس الكلت والتيتوتون والصقالبة . أما دين أولئك المستوطنين الأولين فنجدته في أناشيدهم المقدسة Vedas . وآلهتهم هي الطبيعة والسماء واله المطر واله النار وما شاكلها . والهندوسية دين فرح متهلل ، ويخيّل لنا أن أتباعه يعيشون دائماً في ربيع العالم ، وآلهتهم متلمعة براق ، ويلتمس الأتباع منها أن يعيشوا مائة من السنين ، ومن ثم يترقبون الانطلاق للقاء أحبائهم في السماء .

وتقرب بعض أناشيدهم إلى الوحداية . ونرى في شكل اله السماء Varuna

آثاراً لبداية الاعتقاد بفكرة إله أدبي ، التي كان يحتمل أن تتطور الى فكرة روحية رفيعة الشأن .

ويتجه الميل عندهم الى التفاضل بين آلهتهم المختلفة ، والتفكير في كل منها بدوره كأنه أسمى من غيره . وما تزال فكرة تعدد الآلهة هي الغالبة حتى اليوم في الهندوسية . ومع أن دين الكتب المقدسة Vedas قد اندثر تماماً في بلاد الهند ، فإن الكتب ذاتها ما برحت موفورة الكرامة تُتلى بعض آياتها في العبادة والحفلات .

والكلمة Veda تشير إلى الكتب القديمة التي يرجع تاريخها إلى ٨٠٠ - ٥٠٠ ق. م. وعنها تطور ونشأ العنصر الكهنوتي ، وارتقت الناحية الفلسفية في الدين . ولم يلبث الدين الآري الساذج حتى استبحال إلى دين قوامه الذبائح والطقوس . ومما يقال ان الكتب البرهمية شملت من مصطلحات « الذبائح » أكثر مما جاء في كتب اليهود ، أو أية مؤلفات أخرى . وأما الطقوس فوراها رغبة التلمص من الخطيئة والتصالح مع القوة السامية في الكون أينما كانت . ومع تطور فكرة الذبائح تطورت الفكرة عن الله ، فهو الآن في نظرهم جوهر الكون والحقيقة بأكملها ، السائدة كل الأشياء والمتداخلة في كل الأشياء ، والاسم الذي يطلق عادة على هذا الجوهر غير الشخصي هو « براهما Brahma » ويسمى أيضاً « Paramatma أو الذات السامية » . وليس لهذا الجوهر صفات ولا يوصف إلا بأوصاف السلبية — أي لا يقال عنه انه صالح أو عامل ، لأن هذه الأفكار جامدة ومعينة وثابتة ، والروح اللانهائي يسمى محدوداً متى أطلقنا عليه هذه الأوصاف . والكلمة التي تطلق عادة على النفس البشرية Atma تدل على أن تلك النفس مقترنة ومتحدة بالذات السامية Paramatma - و « براهما » هذا ليس خالقاً ، فهو فكرة ذهنية أكثر منه إرادة عاملة ، وإنما يُظن أنه خلق العالم على النحو الآتي :

أخذ براهما يتأمل ويفكر ، وعن تفكيره هذا نشأت بذرة مخصبة ، تطورت إلى بيضة ذهبية ، ومن تلك البيضة ولد براهما (مذكر) خالق كل الأشياء . وهذه الفكرة صعبة معقدة أمام عقل الفارئ ، ولكن حسبنا أن نقول هنا إن جوهر الكون - الله - عندهم هو إله غير شخصي « impersonal » ومع هذا البراهما « غير الشخصى » تقترن النفس البشرية وتتحد فيه .

وهذه الأفكار الدينية الفقهية مضمرة غير محدودة في كتبهم المقدسة القديمة ، ولكن المفكرين المتأخرين هم الذين صاغوها أفكاراً في نظام متلاصق . وما تزال هذه الكتب المقدسة المصدر القديم الذى يلجأ إليه المفكرون ورجال الدين .

نظام الطبقات :

ولا بد من كلمة هنا عن كيفية نشوء البراهمة وظهور الطبقات . فالبراهمة كما يؤخذ من مدلول اسمهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي . فهم كهنة الأمة لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم . وهم شعب مختار يقضون حياتهم تحت شروط صارمة وفي مظاهر عابسة . والحق أن تطور البراهمة قد استغرق أجيالاً طويلاً ، ونشأ عنه مساوئ شنيعة ، ولكن لباب الفكرة هي إنشاء كهنوت ملكي لا يتدنس بلمس الخلائق الوضيعة ، كهنوت مفروض عليه الحياة المقدسة الطاهرة .

والبراهمة هم أسمى الطبقات . أما الطبقات الأخرى فكانت في الأصل (المحاربين) و (التجار) و (الخدم) . وقد كان المحاربون أولاً أسمى الطبقات وأرقاها ، فخلّ البراهمة محلهم . ويرجع هذا التمايز بين الطبقات إلى العصور السحيقة . ولعلّه راجع إلى رغبة الغزاة الآريين القدماء في حفظ سلالتهم نقية ، فلا يندسها الامتزاج بالسكان الوطنيين في بلاد الهند ، وهم جنس يختلف عن جنسهم ، أسمى منهم في اللون وأحط في درجة الرقي . والطبقات الثلاث العليا تمثل الأقسام الثلاثة الأصلية للهيئة الاجتماعية في عصورها الأولى ، وأما الطبقة

الدنيا فهم الخدم والأجراى فى الهيئة . وبعد هذه الطبقة الدنيا يجىء المنبوذون فى نظام الطبقات (outcastes) — وهم فى الأصل فريق من سكان البلاد الأصليين حالت وضاعتهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء . وقد قضت الهندوسية فى عصورها المتأخرة أن يוכל إلى البراهمة دون سواهم الوظائف الكهنوتية التى تفرضها الكتب المقدسة . وليس معنى هذا أن كل البراهمة منخرطون فى سلك وظائف الكهنة ، ولكن هذه الوظائف لا تعطى لغير رجالهم . ونظام الطبقات هذا ، بما انطوى عليه من الخطر الدينى فى امتزاج الناس بعضهم ببعض ، والإحساس الحاد القوى بالميزة الاجتماعية واللونية ، هو الرابطة التى تقوى الوشائج بين الهندوس فى الهند ، وهو فى الوقت نفسه الحائل القوى دون تقدم الهند وريقها . فالإنسان قد يولد فرداً فى طبقة ، أو قد يولد منبوذاً من كل طبقة . وفى أحياء كثيرة يعتبر مجرد لمس المنبوذ دنساً ورجساً فى نظر آخر من أبناء الطبقات . وفى أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص إذا مرّ به المنبوذ على بعد بضعة أمتار . وفى كل مكان ترى قواعد صارمة تمنع الموائكة بين أبناء الطبقات المختلفة ، أو تناول طعام لمسته أيدي أحدهم . والخطر كل الخطر فى مخالفة هذه القواعد . أما التزاوج بين الطبقات فقد حرم من زمن بعيد ، وما يزال هذا الحرمان قائماً فى أشد أوضاعه .

والحق ان لنظام الطبقات فى بلاد الهند على ما هو عليه من صرامة وجهود أبعد الأثر فى حياة الشعب الهندى . فهو يقضى بإقصاء خمسين مليوناً من المنبوذين عن الحياة العامة اقضاء تاماً . وهو ظل قائم يتبع المرء من يوم مولده إلى يوم حتفه . فهو قد يفكر ما شاء له التفكير ، ولكنه يوم يعتدى على قواعد نظام الطبقات ، فقد أمسى لساعته طريداً محقراً Pariah لا يُقام لوجوده وزن بين أسرته وأصدقائه والذين عاش فيما بينهم ، أمسى كلياً منبوذاً شاردأ outcaste .

تعاليم ثلاثة خطيرة : تجوال الروح ، الأعمال ، الانطلاق .
وعلاوة على الكتب الهندية المقدسة وما احتوته من الأحكام والأناشيد ،

فهناك فكر ثلاث تؤثر أعمق الأثر في العقلية الهندية - أولها فكرة تجوال الروح . فهم يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة في أطوار شتى من الوجود . تنتقل من جسد إلى آخر ، سواء أكان في الإنسان أم الحيوان ، في طريقها إلى هذها الأخير . وهذه الفكرة التي تُعرف عادة بتناسخ الأرواح ، والتي لها نظائر في كثير من بلدان أخرى ، متأصلة تأصلاً عميقاً في قلب الهند .

أما الفكرة الثانية فهي فكرة الأعمال (Karma) ، وهي متممة لفكرة تجوال الروح . وهي لا تعمل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التي تنتقل فيها الروح ، بل تبين أيضاً شرائط هذا الميلاد ، وما يستتبعها من عدم المساواة الصارخة في المصير البشري . وتقوم النظرية على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً ، وأن كل شيء يختبره الإنسان في كل طور من أطوار الوجود المتكررة ، تقرر الأعمال التي يأتيها في الوجود السابق ، وهي بمثابة كفارة . والكرما معناها العمل . وفي هذه الحالة العمل الذي لا بد منه في الحياة . فهناك ناموس جامد للعلّة والمعلول ، للعمل والجزاء . وقد عرف الهنود الآريون - كما عرف العبرانيون فيما بعد - أن الجزاء في هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع العمل ولا يتكافأ معه . لذلك ابتكر الهنود نظرية تناسخ الأرواح لحلّ هذا الاشكال ، ففسد الإنسان وأخلاقه ومولده وثروته واختباره وسعادته وآلامه - هذه كلها جماع الجزاء الذي نستحقه أعماله التي أتاها في وجود سابق ، صالحة كانت أو شريرة .

والأعمال التي يأتيها المرء في وجوده الحاضر ، صالحة كانت أو شريرة ، تهيم طوراً جديداً للتكفير والاستغفار . وكأن كل إنسان مربوط إلى عجلة تدور دورات متتاليات لتقرير مصيره المحتوم في نهاية الأمر . وهو لا يقدر أن يوقف أو يبدل عملية هذا التطور والدوران المستمر ، ولا يمكن لأي إنسان آخر أن يعينه في ذلك . ولناموس « تجوال الروح » الآن - أو على الأقل كان

له من قبل - قيمة أدبية خاصة إذ ينطوى على مسئولية أدبية ، ولكنه يسلب الحياة معناها ويحرمها من كل أمانيتها الإجتماعية . فكل فضيلة ، وكل تضحية للذات ، يجب أن تتجه إلى خدمة النفس وخيرها دون سواها . ثم أن فكرته في النظام الأدبي لا تعدو حد العقوبة أو المثوبة ، أما فكرة افتداء النفس أو غفران آثامها فبعيدة عن هذا الناموس كل البعد . وكأن الله قد ربط كلاً منا إلى عجلة دائرة تتناوبها الأفراح والأحزان ، ويبقى هو بعيداً عنها لا دخل له فيها .

ومن نقائص « الكرما » أيضاً أن الذاكرة لاتتخطى الثغرة القائمة بين وجود وآخر . وقد قيل ان هذا التعليم يعنى « أن مايزرع الإنسان إياه يحصد » ، ولكن من المتعذر علينا حقاً أن نرى القيمة الأدبية في عقاب محل بحياة عن أعمال في حياة سابقة لها ، إن لم يكن هناك شعور بقرن الحياتين معاً . أما الفكرة الثالثة ، أو التعليم الثالث ، فهى فكرة الانطلاق ، وهى تمثل محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها . فالحياة الشخصية في عرف القوم شر وأسر وخداع . أما الحياة الحققة فهى استجلاء طلعة « براهما » التى لاتكتسب إلا بالاندماج فيه ، كما تندمج قطرة الماء في المحيط الخضم . وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج فى الكائن الأسمى . وهذا الانطلاق لن يكتسب بالأعمال ، لأن الأعمال الصالحة تنفج ثمارها عن طريق الميلاد المتكرر ، كما تفعل الأعمال الشريرة تماماً . إنما يحىء الانطلاق عن طريق الاستنارة الإلهية . وقد أفسد هذا ما فى « تجوال الروح » من القيمة الأدبية . لأن الأهمية معلّقة على فضائل التصوف والزهد ، وليست على الأعمال الصالحة التى لا ينشأ عنها إلا ميلاد أفضل ووجود أرق من الوجود السابق الذى كان عليه الإنسان ، وليس للأعمال الصالحة شأن فى الإنطلاق المروم . إنما عن طريق التأمل والزهد تقف دورات الحياة ، ويبطل تطور الوجود ، ويتحد الإنسان بالله .

مؤثرات البوذية

ثم ننتقل إلى نواح أخرى : فمن سنة ٥٠٠ إلى سنة ٢٠٠ ق . م . قامت البوذية في بلاد الهند وترعرعت . ولعلَّ نهوضها في تلك الفترة من الزمن يرجع إلى تمرد القوم على إجراءات رجال الكهنوت وسوء استعمال سلطتهم ، ولو أن هذا ليس من الأمور المؤكدة على وجه التحقيق . ولم يُعَنَّ بوذا بالله ، إنما عني قبل كل شيء بطريق الحياة السوي . والواقع أن ماتضمنته الهندوسية من فضائل ، كدعة النفس ، وبساطة الحياة والتواضع ، ترجع في أكثر إلى مؤثرات بوذا . وإليه أيضاً يرجع الفضل في احترام حياة الحيوان ، فإن فكرة الامتناع عن ذبح الأبقار وأكل لحما التي يعتنقها كل هندوسي يرجع تاريخها على الأرجح إلى ذلك العصر البعيد من الزمن .

ظهور فكرة التجسد

وقد كان للاحتكاك بين البوذية والهندوسية أثر آخر على الأخيرة . فإن ما انطوت عليه البوذية من الإلحاد والآداب الباردة لا يرضى الإنسان العادي ولا يشبع شيئاً من حاجات نفسه الدينية . وكان هذا ، مع المؤثرات الأخرى ، حافزاً للهندوسية لأن تخرج فكرة « المظاهر المتجسدة للآلهة » (incarnations) وهي فكرة لم تظهر في الوجود إلا حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . أي بعد غزو البوذية لبلاد الهند . وقامت هذه الفكرة على أن Vishnu الإله الحافظ و Siva الإله المدمر — كونا بالاشتراك مع « براهما » ثالثاً بدت مظاهره المتجسدة في أوضاع شتى . وكان من نتيجة ذلك أن عبد Siva إله الدمار تحت اسمه وأسماء أخرى بالاشتراك مع زوجته Kali . وأكثرت عبادة هذا الإله قائمة على البطر والفسق . ومع ذلك فقد نشأت في جنوب بلاد الهند جماعة عمدت إلى كتابة مؤلفات خشوعية دينية حول اسم Siva هي أنبل ما أخرجته بلاد الهند من الكتب الدينية . أما الإله Vishnu فله مظاهر

متجسدة كثيرة : أهمها في : Rama و Krishna — وقد جاءت قصة Rama وزوجته في إحدى أقاصيص الهند الشعرية العريقة في القدم . وأما المظهر المتجسد الآخر Krishna فقد جاءت روايته في قصة شعرية أخرى يعجب بها الهندوس أيما إعجاب ، ويعدونها « جنة رائعة قد نضجت ثمارها اللذيذة ، وأينعت أزهارها الفياحة ، ترويتها ينابيع دائمة على مدار السنة » .

وفي أواخر تلك الفترة من الزمن ظهرت مؤلفات اصطيف فيها « كرشنا » بألوان مختلفة . وهو في تلك المؤلفات المظهر المتجسد للشهوة . وكان لأقاصيص غرامه أعمق الأثر في إفساد حياة الملايين في بلاد الهند . وهذا مثل على فساد فكرة التجسد عند القوم . فقد كانت سلاحاً خطراً ، وحول أبطالها ومظاهرها صنف الناس أقاصيص شتى صالحة وشريرة على السواء . أما الحق التاريخي فقلماً أعاره القوم شيئاً من عنايتهم . وكان من جراء ذلك أن اندمج في سجل الآلهة عدد لا يحصر له من صغار الآلهة تتفاوت أقدارهم الأدبية . فأخذت الهندوسية في التدهور والانحطاط .

ثالث الآلهة

وهنا لابد لنا من وقفة لنستزيد من موقفنا عن هذه الآلهة الثلاثة :

براهما

هو الخالق بين الآلهة الثلاثة ، ولكن لا يعبد إلا الأقولون . ولست تجد في طول البلاد وعرضها أكثر من اثني عشر معبداً أقيمت لتكريمه . ويقال انه بعد أن خلق العالم ، تنحى عنه ، ويرسمونه في الفن الهندي شخصية ملكية ذات أربع رؤوس ، وهو يقرأ في أسفار « الفيدا » ، ويظهر راكباً أوزة بيضاء برية رمزاً لوحده ووحشته .

سيفا

هو أحد الآلهة الذائعة الصيت في قارة آسيا ويسمونه « الإله الكبير » .

أما صفاته وخصاله فهي مزيج غريب، بعضها فتان لامع، وبعضها أسود داكن . فهو الإله « اللدمر ، المهدر ، المكدر ، القاتل ، الذى يصيب الناس بالحن والبلايا » ، هو جالب الأمراض والموت ، وهو الذى يقف عند حرق جثث الموتى ، وهناك يكون موضع التكريم والتوقير .

وكان فى الأصل إلهاً جبلياً ، مهمته التدمير والقيام بالفارات المخربة على السهول والأودية ، ولكن الذين أمكنهم التوغل إلى معاقله الجبلية ، استكشفوا أنه يُمنى هناك أعشاباً دوائية فيها شفاء للناس . من ثم لم تكن وظيفته التدمير فقط ، وكان مجيئه أحياناً « بركة متخفية » ، حتى لقد اعتقد القوم أنه كان يدمر لى يخلق الشئ جديداً . أليس موت النباتات وجفافها مقدمة لأنواع جديدة من الحياة والاختراع . ألا يؤمن القوم أن الموت إن هو إلاّ انطلاق إلى حياة جديدة . إذا لم يكن الإله سيفاً كله شراً ، بل قرنوه بكل أوضاع الإنتاج الجديد ، فى حياة النبات والحيوان والإنسان .

ولهذا السبب رسموه بعين ثالثة ، عمودية فى جبهته ، وصوروه بجسد أزرق وحلق قاتم ، تحيط به الثعابين . ويظهر فى بعض صورهِ وله خمسة أو ستة وجوه للدلالة على وظائفه الكثيرة ، وصفاته المتنوعة المتناقضة .

وغريب حقاً أن نحمد هذا الإله راعياً وشفيعاً للزاهدين والمتصوفين والقدسين . وكثيراً ما يصورونه هو نفسه فى موقف التأمل المفكر العميق ، وقد تلتطخ جسده بالرماد والهباب ، وعقص شعره على طريقة الزاهدين .

أما الفكرة الفلسفية وراء هذا كله ، فهي أن الزاهد المتصوف « يدمر ذاته الدنيا لى يفسح المجال ويمهد الطريق لذاته الروحية العليا » . فالجسد يُبذل ويهان لى تتحرر النفس من كل العواطف والميول والشهوات الدنيوية . ومرة كتب أحد فلاسفتهم يقول .

« إن عبادة الإله سيفاً فكرة فلسفية حافلة بالحق والقوة ... القوة التى تدير

الكون ، التي تخلق وتدمر . وما الخلق والتدمير إلا مظهران لتغيير مضطرد .. الخالق هو المدمر ، لا في غضب وعنف ، بل بحكم طبيعة نشاطه ... فالبيضة تُدمر متى فقس الكتكوت ، وجراثومة الجنين تعدم متى وُلد الطفل . ومتى كبر الرجل ، زالت عنه ضعفات الطفولة .

فشنو .

أما الإله الثالث فهو «فشنو» الحافظ ، وهو دائماً محسن ، جواد ، القيم على النُسل العليا ، والعامل على تحقيقها . وعلى نقيض «سيفا» المركب تركيباً غريباً ، هو النموذج الكامل للمحبة الإلهية ، يرقب من علياء السموات ، وحين يرى شيئاً يهدد القيم العليا أو يعرض الخير للخطر ، يستخدم كل قواه ونفوذه لإسنادها . ولذلك تعبد الجاهيل وتؤثره على «سيفا» ، ويستمتعون بالقصص المذبة عن نشاطه وخدمته التي روتها أساطير الكتب المقدسة «الفيدا» ، ويرسمه الهنود عادة بأربع أذرع ، يمسك باليدين صولجاناً وقرصاً من حديد ، رمز قوته الملكية ، وباليدين الآخرين يمسك صدفه بحرية وورقة اللوتس رمزاً لقوته السحرية ونقاوته الطاهرة ، وفوق رأسه تاج وإكليل .

تجسّدات فشنو :

تقول التقاليد ان «فشنو» تجسّد في أوضاع كثيرة ، فهو قد تجسّد مثلاً في «سمكة» أنقذت الإنسان الأول من طوفان أهلك البشر أجمعين ، وتجسّد في «سلحفاة» أعانت الآلهة على تخفيض شراب الخلود وغيره من المنتجات القيّمة . وتجسّد في «دب» رفع بانيابه الأرض التي كانت قد غاصت في قلب البحار . وتجسّد مرة أخرى في «أسد» مرق شيطاناً كان قد أراد قتل ولده ، لأنه قدم الدعاء للإله فشنو . وتجسّد مرة في «بوذا» وهو مؤسس البوذية . ولعل تجسّده في بوذا ، كان مناورة بارعة للتوفيق بين الهندوسية والبوذية .

على أن أهم تجسّداته ، كانت في «راما» و «كريشنا» . وراما هو الرجل

المثالي السكامل في القصص الهندوسى ، وزوجته هى المرأة المثالية . وتقول الأسطورة ان زواجه السعيد من « سىتا » الأميرة الفاتمة قد أعقبه مقاب جمة، ذلك أن الملك الشيطان Ravana فى سيلان، قد اختطفها بالخديعة والغواية وحملها إلى وطنه. وفى ضيق شديد خانت لجأ «راما» إلى معونة الإله القرد Hanuman (وهو أول جاسوس بوليس سرى فى تاريخ الكتابات العالمية، وقد صار إلهاً يعبد الهندوس). ومضى هذا الإله يبحث من فوق رؤوس الأشجار عن سىتا حتى عثر عليها. ثم أثار «راما» حرباً شعواء على الإله الشيطان حتى قتله، وبعد أن جازت «سىتا» فى تجربة من النار محرقة لإثبات طهارتها انضمت إلى زوجها. ولهذا السبب يعبد الهندود «راما» بكل توقير كبطل، وإله متجسد يمثل فشنو، بل هو فى نظرهم أكبر الآلهة جميعاً.

وحول عبادته قام حوار لاهوتى شيق، فقالوا ان «راما» إله مخلص بحكم طبيعته واختباره، ولكن هل يخلص على أساس طبيعة القرد، أم طبيعة القط! أى يتعاون الإنسان معه واستمسكه به، كما يتعلق القرد بأمه حين يقفز من شجرة إلى شجرة، أم باستسلامه إليه كما تستسلم القطيطة لأُمها، وهى تمسكه بها بين فكئها؟! لقد انقسم العابدون فريقين، فريق يتبع سياسة القرد، وفريق آخر يتبع سياسة القط!.

وعلى الرغم من عظمة «راما»، فإن كريشنا أحب منه إلى الناس، كإله متجسد. وهو فى الواقع يمتاز بشخصية مركبة، تبدو بمظهرين مختلفين، ليس من العسير التوفيق بينهما. فبعض الأقاصيص الشعبية تصوره بطلاً حربياً قاسياً صارماً، يحاول توجيه أنظار الناس إلى «فشنو» الإله الأكبر، الذى هو تجسده. وبعض الأقاصيص الأخرى تصوره شاباً مرحاً طروباً، وفى هذا الوضع تعبد يومياً ألوف من نساء الهند. وفى أقاصيص أخرى يصورونه راعياً للبقر ذا فتنة وجاذبية يمسك بمزمار بين شفثيه، وينشد أعذب الأناشيد التى يهواها الفتيات اللواتى يحلبن الأبقار.

عبادة الرجل العادى

إن الرجل العادى فى بلاد الهند يدين بتعدد الآلهة ، وهو يختار من بينها إلهاً أو إلهة ، شفيحاً له يضع صورته أو رمزه فى بيته ، ويردد اسمه فى الشفق والغسق ، فى إكبار وتقدير ، وفى الوقت نفسه يكرم كل الآلهة التى يحسبها فوق الطبيعة ، والتى يبلغ عددها ٣٣٠ مليوناً !! وأمام هذا العدد الهائل من الآلهة ، ينتقل القروى من مزار إلى مزار حسب حاجته . فإذا أراد قضاء حاجة أو إزالة صعوبة ، راح يعبد الإله الفيل ابن سيفاً . وإذا رام قوة بدنية لعمل ثقيل ، مضى يعبد الإله القرد . وفى حالة موت أبيه ، يمضى لعبادة الإله راما . وإذا رغب فى صيانة نفسه من الأمراض الوبائية ، أو السلامة فى رحلة ، أو التمتع بحظ سعيد ، مضى إلى آلهة أخرى . ولا تقتصر عبادته على المزارات المتفرقة لمقار الآلهة ، أو أمام تماثيلها فى داره ، بل قد يعبد فى أى مكان ، وقد يرى الحجارة المستديرة المنتشرة من قاع النهر المقدس ، والموضوعة على جوانب الطرق رموزاً للإله سيفاً ، وفى الأشجار المزدانة بالأصباغ القرمزية رمز الخصب والثناء ، وفى الكهوف المظلمة رمزاً للإله الموت ، وهكذا .

ولا يكتفى الهند العادى بهذا كله ، بل تتوق نفسه إلى الحج لزيارة الأماكن المقدسة ، حيث يلتبس البركة والخير . والحق أن ملايين من الهندوس يلقون فى الحج رضاء دينياً تغتبط له نفوسهم وتقرُّ به عيونهم . وقد تكون هذه الأماكن المقدسة بقاعاً معينة فوق الجبال أو فى السهول ، حيث توجد صخور نسجت حولها الأساطير عجائب الأرواح وخرافات الأقدمين . كذلك يعتبر الهندوس بعض أنهارهم مقدسة ، حيث توجد مواقع معينة وهياكل على طول مجارى تلك الأنهار يقف الهندوس أمامها خاشعاً متعبداً ، متأثراً بقصص الأقدمين وأساطير التاريخ . ومن عاداتهم أن يلقوا الأزهار فى تلك الأنهار ، ويستحموا بمائها المطهر ، ويحملوا بعضاً من هذه المياه فى أوعية ليتناول منها الموتى عند انطلاقتهم ، أو استعمالها للشفاء من بعض الأمراض .

وأقدس أنهارهم، نهر «الكنج». وترجع قدسيته إلى اسطورة تقول انه ينبع من أقدام الإله، «فشنا» في السماء ويسقط على رأس «سيفا»، ثم يخرج من شعر رأسه! على أن مدينة «بنارس» هي أم مكان يدلف إليه الحجاج لغسل خطاياهم وذنوبهم. وحين يرون قباب الهيكل من بعيد ينبطحون على الأرض، ويهيلون تراب الأرض على رؤوسهم علامة الإستسلام الروحي. ثم يتقدمون فرحين للاستحمام في النهر. ويعودون إلى ديارهم واثقين أن كل ذنوبهم قد غُسلت. وإذا قدّر لأحدهم أن يموت في تلك البقعة بعد التطهير، فإن هذا فضل عظيم تغدقه عليه الآلهة، إذ ينطلق توأ إلى حياة الغبطة والهناء في فردوس الإله «سيفا».

البقر في بلاد الهند

من المشا كل التي تعانيتها الهند الآن تقديس البقرة والامتناع عن إيذاؤها أو ذبحها. وأن المرء ليعجب حين يرى ملايين الملايين من الأبقار الهائمة (يقال ان في الهند ٣٠٠ مليون من هذه الابقار) — حتى في شوارع المدن الهامة — بين شعب يشعر بوطأة المجاعة، ويعانى من الفقر والضييق مايعانيه. ولكن وراء هذه العقيدة تجثم فكرة فلسفية على عادة أهل الهند في تأويل معتقداتهم. وقد قال المهاتما غاندى نفسه تعليقاً على تقديس البقرة:

«ان حماية البقرة في نظرى من أعجب المظاهر في التطور الإنسانى، وذلك لأنها تحمل الإنسان إلى ما هو أبعد من نوعه. والبقرة تمثل في نظرى عالم مادون الإنسان كله. وعن طريق البقرة، يجعل الإنسان نفسه واحداً مع كل حيوانات الأرض... فهى أم ملايين من الجنس البشرى الهندى — هى عنوان الإشفاق والرفق، وحمايتها تعنى حماية الخلائق البكاء كلها».

وهنا نستشف رقة في الشعور بلا ريب، ونذكر بعض المعانى لهذا الرمز. ويقول الهندوس ان تقديس البقرة أكثر إنسانية من تقديس القرد أو الأسد

أو النسر . على أن المثقف الهندوسى العام لا يرتفع إلى المستوى الفلسفى الذى شرحه غاندى هنا . فالهندوس قديماً عبدوا البقرة . وقيل فى أساطيرهم انها أقدس جميع الحيوانات ، كل جزء فيها يسكنه إله من الآلهة ، وكل ما يخرج من جسمها من فضلات مقدس ، وبولها من أقدس أنواع السوائل ، يطهر كل شيء يلمسه . بل يستخدمون روئها بعد مزجه بالماء كعقاقير طبية ، وغسل مساكنهم لتطهيرها !

وذبح البقرة حتى اليوم من الجرائم الشنيعة . وكثيراً ما ثار النزاع بين الهندوس والمسلمين بسبب ذلك ، وأدى إلى مجازر بشرية . وفى بعض رقاع بلاد الهند تنال البقرة ، فى بعض المواسم ، التكريم الذى يُمنح على الآلهة ، فتعلق ضفائر الزهور حول أعناقها ، وتسكب الزيوت فوق جبهاتها ، والمياه عند أقدامها ، وتمتلئ عيون المشاهدين بدموع الحنان والعطف والامتنان .

وإذا ما واثت المنية إنساناً ، فى بعض المناطق الريفية ، يُمسك بذيل بقرة مربوطة إلى سريره ، لكي يضمن لنفسه عبوراً سهلاً من هذه الحياة إلى الأخرى . وإذا لم تسع غرفة نومه بقرة ، يمسك بحبل مربوط إلى ذيل بقرة خارج غرفته !

الهندوسية الحديثة

فى الهندوسية الحديثة نهضتان بارزتان . أولهما تعاليم Vedanta . فإنه فى الخمس مائة سنة ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ب . م . لم يُعرف إلا القليل عن تاريخ الهندوسية . ولكن ظهر فى القرن التاسع زعيم دينى يدعى « سنكاراشا » ، فنادى بما ظنه المبادئ الطاهرة النقية المنطوية تحت الأناشيد الدينية التى تضمنتها كتبهم المقدسة Veda ، وأطلق على نظامه اسم Vedanta وهى الفلسفة التى يشغف بها الهندى المثقف فى هذا العصر . وبراهما فى نظر هذا الزعيم هو الحق ، والأنفس المفردة واحدة فيه . فإذا ما فرغت سلسلة التوالد ، وأبطلت الروح

تجوالها من وجود إلى آخر ، اندمجت في براهما وصارت واحداً فيه . ويضيف الزعيم إلى ذلك أن الكون ليس حقيقة غامضة مبهمة وحسب ! بل هو وهم وخداع وطيف زائل ، وأنفس الأفراد مندمجة في الحقيقة مع براهما . وهذا الطيف الزائل ، أى العالم ، هو الحجاب الوحيد الذى يحول دون تحقيق هذا الاندماج وتوحيد الذاتية . والخلاص يحىء عن طريق هدم هذا الحجاب ، وتبديد هذا الخداع المضلل والطيف الزائل . وقد تملك هذه الفلسفة من عقل الهندوسى واحتلت هذه الفكرة — فكرة وهمية الكون وزواله — مكانة سامية في تفكير الهنود ، بحيث أضحت تسير جنباً إلى جنب مع التعاليم الثلاثة الأخرى وهى : تجوال الروح — وتأثير الأعمال — وانطلاق النفس أخيراً .

وأما النهضة الثانية فهى فلسفة الخشوع والتعبد Bhakti التى ظهرت في الفترة ما بين ١٤٠٠ و ١٨٠٠ م . وتقترن بأسماء ثلاثة من كبار الزعماء الذين أسسوا مذاهب السكيتين وغيرهم . وهم قد أدخلوا إلى الفلسفة الهندوسية التى تدين بكائن أسمى غير شخصى ، لآذات مستقلة له — فكرة الإله الشخصى الذى يليق له التعبد والخشوع . ولعلمهم تأثروا في ذلك بالآراء الإسلامية التى كانت قد ظهرت في الهند في ذلك العصر . ونبع بين دعاة هذه الفلسفة قديسون أظهروهم « تولسى داس » الذى عاش في القرن السادس عشر ، والذي نقل الأقاصيص الدينية المقدسة إلى لغة عامة الشعب ، فتناولتها العامة وراحت تنشدها في قرى الهند ، وتتلوها في كل مكان ، وتمثلها في الأعياد والمواسم .

وكان أولئك القديسون ، بما أدخلوا على الديانة الهندوسية من فكرة الإله الشخصى الذى يليق له التعبد والخشوع ، أسمى من مثلوا فكرة الإيمان بالله في بلاد الهند ، وهم ينتمون إلى طبقات مختلفة ، وكثيرون منهم من عامة الشعب ، فبينهم النساجون وصانعو الفخار الذين خلوا من المواهب سوى الإلهام الدينى . وكان بعضهم من المصلحين حقاً الذين نبذوا الأوثان ، وفوارق

الطبقات ، ومجرد الطقوس الظاهرية ، وأحسوا بوجود الله إحساساً غريباً . وهم قد آمنوا بالله سام ، ولو أنهم في بعض الأحيان قد أخرجوا أفكاراً غشيمة فجّة ، وعزّوا بعض الأفكار الروحية المتعلقة بالله إلى أشباح ورموز غير لائقة .

ولقد أصرّ أولئك القديسون المتعبدون Bhakti على النعمة التي قد تكون تمهيداً لتعليم أعمق وأرقى . على أنه ينبغي أن نعلم أن الخلاص أو «الاطلاق» الذي تكلم عنه القديسون والحكماء — حتى في دين جماعة ال Bhakti — انصرف فقط إلى الخلاص من سحر العالم وغوايته ، ومن تعذيب دورات الولادة المتكررة ، ومن التجوال الذي لا نهاية له من وجود إلى وجود بعده .

دين المنبوذين

ومن المؤلم حقاً أنه في كل هذه الأدوار التي أخضبت الأفكار والممارسات الهندوسية لم يكن للمنبوذين Ontcastes ثمة نصيب . وقد يكون مشاراً للنزاع أن نعدّهم طائفة من طوائف الهندوسيين . فإنه لا تشابه بين دينهم وبين العقائد التي شرعناها ، فدينهم في مجموعه أشبه بعبادة الأرواح التي اعتصمت بها الأقوام الفطرية الساذجة . وأعظم الآلهة في قرية المنبوذين ليس « سيفا Siva » ، ولا « فشنو Vishnu » ، بل ربما كومة من الأجر ، تمثل أم القرية أو شيطانها الذي يمنح الخصب للعواقر ، ويحمي المحصول من الآفات ، ويرعى القرية برعايته وعنايته . وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمّة عن كائن سام عظيم ، ولكنه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة . وحالته الاجتماعية الدينية في أحط الدرجات ، والهندوسية المحافظة لا تعنى به شيئاً .

جهود المصلحين

وفي السنوات الأخيرة بُذلت الجهود المتوالية لرفع شأن أولئك المنبوذين وتحسين حالتهم السيئة . ونهضت جماعات في بلاد الهند المصالح ارتضت

قبول المنبوذين في عضويتها، رغبة في تطهير الهندوسية من هذه اللوثة اللاصقة بها والقضاء على فكرة التمييز بين الطبقات .

وفعلا صدر قانون يبطل هذا التمييز ، ولكن صدور القانون شيء وتنفيذه عملياً شيء آخر، كما شهدنا مؤخرًا في قانون الحقوق المدنية للزواج، الذي وافقت عليه الولايات المتحدة ، ولم يوضع حتى الآن موضع التنفيذ .

على أنه مما يدعو إلى التفاؤل في مستقبل الهند أنها أخذت الآن تتطلع إلى نظم في الحياة جديدة ، وإلى نهضة شاملة كل أوضاع الحياة . . . ومما لا شك فيه أن تطورها الاجتماعي والاقتصادي سيقضي يوماً ما على نظام الطبقات كلية ، وسوف يكون للديمقراطية الصحيحة أثر بعيد المدى في رفع مكانة الفرد مهما تكن طبقته ، والمساواة بين المواطنين جميعاً .

وبين تلك الجماعات Brahma Samaj وهي طائفة تؤمن بالله . ووجهة نظرها في الله وفي يسوع المسيح أشبه بوجهة نظر من نسميهم « موحدين Unitarians » . وهي تكاد تكون منفصلة عن الهندوسية الأصلية ، قليلة العدد ، يعوزها العزم والقوة ، ولكنها أدت بعض الخدمات النافعة إلى طوائف المنبوذين ، وأمثال هذه جماعات أخرى نهضت لمكافحة هذه السيئة الاجتماعية . وهي حين تصدر عن الهندوسيين المحافظين يكون الباعث إليها الحسد والغيرة من المرسليات المسيحية التي تعمل ناشطة لرفع شأن أولئك المنبوذين واكتسابهم إلى أحضان المسيحية ، التي تقدر الشخصية البشرية مهما كانت وضعيتها . ومع أن الضمير الهندوسي المثقف قد أدرك ما في نظام الطبقات من سوء وشناعة ، فإنه لم يفعل حتى الآن شيئاً جدياً للخروج عن تلك التقاليد الجامدة التي أحكم المحافظون الرجعيون حياكتها حول أولئك المنبوذين الناعسين .

الخلاصة

ونستخلص من هذا البحث أن الديانة الهندوسية تشمل طرائق دينية

كثيرة منفصلة بعضها عن بعض ، وهى ذات معان متعددة مختلفة . ويمكن تلخيصها فيما يلى :

يُحسب الهندوسى هندوسياً متى ولد فى طبقة من الطبقات المعروفة ، وحافظ على تقاليدها وقواعدها ، ولو أن كثيرين من المثقفين يعتقدون على هذه القواعد الوضعية ويتملصون منها . ويؤمن الهندوسى بنظام الطبقات ، ويحترم أسفاره المقدسة Vedas ويوقر البراهمة . ثم يحسب البقرة مقدسة ، وتسلط على عقله معتقدات تناسخ الأرواح ، وانطلاق النفس أخيراً من قيود هذا التجوال ، وآثار أعماله صالحة كانت أو شريرة ، ثم يميل به رأى إلى مذهب الحلول الإلهى فى الطبيعة . وهو إن كان مثقفاً مهذباً ، فهو يفكر تعدد الآلهة ولا يؤمن بها . وإن كان وطنياً متحمساً ومن رجال أحزاب الإصلاح فهو يرتاب كثيراً فى صحة نظام الطبقات . وإن كان برهمنياً ، فهو يؤمن بالأوضاع الأولى للديانة الهندوسية ويحفظ الطقوس والمراسم القديمة ، ويعبد الإله « سيفا » أو الإله « فشنو » ، ويدرس الأسفار المقدسة أو بعض المذاهب الفلسفية الهندوسية . وأما إن كان قروياً عادياً ، فيحفظ الطقوس ويعبد « راما » ، أو « كرشنا » ، أو « سيفا » ، أو الإله القرد ، أو زوجة الإله سيفا . وإن كان منبوذاً فإنه شيطان القرية .

وللهندوسية أوضاع شتى تتفاوت بين فلسفة الحلول الإلهى فى الطبيعة ، ثم تأخذ فى الانحدار حتى تصل إلى عبادة الأرواح الشريرة . ومن الصعب جداً التمييز بين هذه الأوضاع المتفاوتة . ولعلنا نقرب إلى الصواب إذا قلنا إن أقوى العوامل تأثيراً فى الهندوسيين من أعلى الطبقات إلى أدناها هى :

- (١) نظام الطبقات .
- (٢) الفكرة بأن الله هو الحق الوحيد .
- (٣) الفكرة بأن العالم وهم وخداع وتضليل .
- (٤) ثم الفكرة المثلثة عن الأعمال (الكارما) ، وتناسخ الأرواح ، وانطلاق النفس واندماجها فى الكائن الأسمى .

وقد دارت مكاتبات بين عالم هندي وزعيم مسيحي عن الدين . وإلى القارئ ترجمة رسالة بعث بها العالم الهندي يصف فيها الهندوسية فيقول :

« تسألني أن أقدم لك وصفاً للهندوسية وأخشى أني سأخيّب أملك في . فالهندوسية ليست ديناً واحداً ، ولا عقيدة واحدة ، ولا إيماناً واحداً . إنها خليط من كل الأديان ، وكل العقائد ، التي اكتسحت البلاد مدى أجيال التاريخ . فضلاً عن هذا فإن الهندوسية تشمل كل الأطوار التي مرّت بها الغرائز الدينية والأفكار الفلسفية ، وتطورت وتقدمت . وليس هذا كل ما في الأمر ، فالهندوسية ليست مقتصرة على الدين بالمعنى الضيق الذي نفهمه من الدين ، وذلك لأنها آوت تحت جناحيها كل الممارسات والطقوس الدينية ، وشبه الدينية ، والاجتماعية ، التي عرفها الجنس أو الأجناس الهندية .

« ولا تحسبني أني مغرق فيما أقول ، أو أني أجنح إلى المبالغة والمغالاة . فتعدد الآلهة ، والوحدانية ، ومذهب حلول الله في الكون ، وإنكار وجود الله — هذه كلها قد أينعت وازدهرت تحت ظلال الهندوسية وباسمها ، وما تزال أوضاعها قائمة في الهندوسية . وعبادة الشياطين ، وعبادة الأبطال ، وعبادة الأسلاف ، وعبادة الأشياء الحية والجمادات ، وعبادة القوى الطبيعية ، وعبادة الله — هذه العبادات كلها نسجت في لحمة الهندوسية وسداها ، وهي تقدم غذاء لكل الأذواق والمشارب ، ولكل مراتب الحياة ، وكل أطوار الترقى . هنا دمامة الهندوسية وجمالها ، وضعفها وقوتها . إنها تشمل أرقى وأطهر أوضاع العبادات ، وأدنى وأحط العبادات . إنها تحتضن أرقى الآراء الفلسفية ، وأسخف وأحقر المذاهب العقلية الدينية .^(١)

« ولعلّ هذا هو الذي يجعل الهندوسية أكثر الأديان تسامحاً في العالم .

وطريق الخلاص فيها هو التجرد العقلي وإنكار كل عقيدة عن الذات الإنسانية، أو التمييز بين الاختبارات المختلفة التي يعرفها الفكر البشرى . والذات الحقة في الإنسان لا تؤثر فيها الأعمال ، لأنها تنتمى إلى العالم المادى الخالى من كل حقيقة . وفى وسع الإنسان أن يؤدى أعماله ، ويراعى شرائع الطبقة التى ينتمى إليها ، فى روح متجردة لا تبالى ولا تسكرت بشيء ، بل تحتقر كل شيء . أما ما نسميه « أخلاقيات » ، فهو فى الهندوسية مجرد مراعاة مطالب الطبقة التى ينتمى إليها الفرد ، أو الممارسات الدينية للطائفة التى هو عضو فيها .

آية فكرة عن الله تشبع قلب الهندوسى ؟

وبعد ، ما الرسالة المسيحية لأمثال هؤلاء القوم ؟

إنها قبل كل شيء تحمل إليهم رسالة الله . لأنه وحده دون سواه ، مستطيع أن يشبع قلب الهندوسى التائق . وقد عرفنا من بحثنا فى طرائق التفكير الهندوسية عن الله أن للقوم اتجاهين : الأول للتفكير فى الله إلهاً مجرداً عن الشخصية . هو روح العالم ، وهو الحق الوحيد الجاثم وراء خداع وبطلان هذا الوجود العالمى . والاتجاه الثانى تصوّر الله فى أشباح متجسدة ، مثل رام وكرشنا وما أشبه . فالاتجاه الأول يحتفظ بسمو الله وصفاته الجامعة ، ولكنه لا يعطى القوم إلهاً يرفعون إليه الصلاة . والاتجاه الثانى يشبع رغبات الإنسان من حيث تعيين صفات الله وتحديداتها ، ولكنه يفقد معالم صفات الله الجامعة المطلقة . ولهذين الاتجاهين آثار ظاهرة فى حياة الهندود كما نشاهدها فى هذا العصر . والذى يرومه الهندوسى وتتوق إليه نفسه الجامعة لن يجده إلا فى الله المعلن فى المسيح ، إذ تحمل إليه الرسالة المسيحية إلهاً جامعاً سامياً ، هو صانع الكون والحال فيه . وهو فوق ذلك معلن فى التاريخ البشرى ، وفى وجه بشرى — إلهاً هو المحبة .

الغفران :

ويجىء الإيمان الصحيح في الله بشيء آخر تفتقر اليه بلاد الهند ، وهو الشعور بالخطية والحاجة إلى الغفران . ولا يعوز بلاد الهند الحنين إلى الافتداء ، ولكنه عندهم افتداء من ضيقات هذا العالم الحاضر وويلاته ، افتداء من خداع الحياة وأباطيلها التي تحجب عن الأنظار وجه الكائن الأسمى . فهي لا تروم الغداء من بطش الخطية وسطوتها ، ولن يمكنها أن تفعل ذلك . وهي تترخ بين إله مجرد عن الشخصية ، وآلهة محدودة القوى ناقصة في الكمالات الأدبية . والذي تفتقر اليه الهند رؤيا الله القدوس ، الذي تملو قداسه فوق كل المعايير البشرية ، وقد تأصلت في نفسها بفضل عقيدة « الكارما » الفكرة بأن كل عمل يأتيه الفرد ينتج أثره ، وأن الخطية تنال عقابها بموجب ناموس جامد لا هوادة فيه . ولم تنهض قط إلى إدراك فكرة الغفران ، لا الغفران الذي يتجاوز عن الشر في تراخ وإحساس بليد ، بل الغفران الذي يحمل الخطايا إلى قلب « الله » ذاته .

مبدأ الأخاء :

ومن الهبات التي يمكن أن تفوز بها الهند من المسيحية روح الأخاء . وهين أن نقول إن الغرب لا يبدى للملأ شيئاً من آثار المسيحية من هذه الناحية ، وعلى الرغم من هذا ، فإننا لا ننسى أن المسيحية قد ألقت الرق . وحينما تذهب المسيحية ويكون الإيمان بالمسيح حقاً ، وفعلاً ، لا يسع أتباعها إلا أن يشعروا أن للمسيح قد جعل الكل واحداً ، ولن يقول مكابر إن في المسيحية شيئاً من هذا التمييز بين الطبقات . فهؤلاء الذين يميزون بين الناس تبعاً لألوانهم أو أجناسهم أو ثقافتهم ليسوا مسيحيين البتة ، وهم عار المسيحية حقاً . ان الأخاء في المسيحية رابطة جامعة شاملة جميع البشر ، الذين خلقهم الله على صورته ، والذين افتداهم المسيح

وجعلهم أبناء الله الواحد، بينما الأخاء في الأديان الأخرى — إن وجد — يكون مقتصرًا على أبناء الطائفة الواحدة، أو الدين الواحد .

والمصلحون من الهندوسيين يعترفون بهذا الفضل للمسيحية ، فقد قال « رام موهن روى » الشهير ، وهو صاحب الفضل في إبطال عادة إحراق الأرملة مع בעلها المتوفى : « لقد تبين لي من البحوث الطويلة الدقيقة في الأديان أن تعاليم المسيح أكثر انطباقًا على المبادئ الأدبية ، وأكثر ملائمة للخلائق العاقلة من أى تعاليم أخرى » .

الدين العمل :

وأخيراً نشير الى عنصر له شأنه في رسالة المسيحية بالنسبة للهند ، ذلك أن الإيمان بالمسيح ينتقل الهند من ربة التشاؤم من العالم الحاضر ، ويعينها على أن تظفر بقداسة وخلص عمليين بكل معنى الكلمة . ولسنا ننكر أن الهند تدرك حقيقة العالم الروحي ، ولكنها استقامت الى خلاص هو الانطلاق من عالم مضمّن مُنْهَك، وليس ملكوت الله في نظرهم نتيجة جهود الإنسان وأعماله، فلا شأن للهندي بالمبادئ الدينية ذات الصبغة العملية ، أما الحياة في نظر المسيحي فهي الميدان الذي تكمل فيه ارادة الله ، وممالك الأرض ستكون يوماً ملك الله ومسيحه . وفي التلمذة المسيحية جهد فائز ، وقوة نابضة ، وانتظار عملي . وسيأتي يوم يجد فيه التائبون الى الانطلاق، خلاص نفوسهم الحقيقي في المسيح ، وفي خدمته في عالم البشر .

البوذية

يقال ان للبوذية اتباعاً أكثر من أى دين آخر . ويزعم بعضهم انها ملجأ حصين لمئتين مائة مليون من الأنفس البشرية . ولكن الأرقام تخدع كثيراً . وهذا الزعم يستند في الغالب إلى أن بلاد الصين بوذية كلها ، بينما يتقاسمها في الواقع أديان ثلاثة هي البوذية والكنفوشية والتاوزمية ، كما يتقاسم اليابان اديان ثلاثة أيضاً هي البوذية والكنفوشية والشنتوية .

مذاهب البوذية المختلفة

والبوذية تشمل أشياء كثيرة . فهناك المذهبان الكبيران الشمالى والجنوبى ، وينقسم كل منهما إلى عدة من الطوائف . والمذهب الشمالى بكتبه المقدسة في اللغة السنسكريتية منتشر في الصين واليابان والتيمت ونيبال واندونيسيا . أما المذهب الجنوبى ، وكتبه المقدسة باللغة البالية ، فمنتشر في الهند وبورما وسيلان وتايلاند وفييتنام . ولو أن أتباع هذا الأخير أقل عدداً من الأول ، فإنه أقرب كثيراً إلى الأصل ، ولم يداخله إلا القليل من العناصر الغربية في تطوره التاريخي الطويل . ولذا سنقتصر في بحثنا الآن على هذا الأخير لأنه يمثل الدين الأصلي الذى عّلم به بوذا .

المؤسس :

من الحقائق المقررة أن شخصاً هو الذى أسس البوذية . ولقد حاول بعض العلماء إحاطته بأسطورة شمسية ، شأن كثير من شخصيات التاريخ الغارقة في القدم ، ولكن الدليل على وجود هذا الشخص جلى لاغموض فيه . ولئن تعذر علينا التمييز بين ما هو حق وما هو أسطوري في تاريخ حياته ، فإن الوقائع الأصلية ثابتة مؤكدة . والمعروف أن مؤسس هذا الدين قد ولد في أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس قبل المسيح في مدينة صغيرة تقع بين مدينة

بنارس وجبال الحملايا شمال نهر الكنج المقدس . وكان أبوه (راجا) زعيم قبيلته، وأطلق على أسرته لقب « غوتاما » . واسمه الشخصي « سدهارثا » (اما كلمة « بوذا » ومعناها « المستنير » فليست اسمه الشخصي ، بل هي اللقب الذي خُلع عليه . ولعل « غوتاما » أكثر الألقاب ذيو عاً ، وهو اللقب الذي نطلقه عليه في بحثنا) .

كان ابن ملك ، تحدر من سلالة عريقة المحترمة ، وأمتاز بقوى في العقل والبدن . ثم تزوج في سن مبكرة من ابنة أحد الأمراء . ونظر وإذا بالمستقبل الباهر يمتد تحت قدميه . على أن نفسه لم تهدأ على حال من القلق ، ففي غمرة النعيم الذي كان يرفل فيه ، حامت حول خيَلته أسئلة لم ير لها حلاً . وطفق العقل الحائر ينقب حول معنى الحياة ، حتى امست الحياة عبثاً تنوء به الظهور . وأعتقد مشكلة طغت على نفسه ، وهو يتمرغ في نماء الحياة واطايبها ، هي مشكلة الآلام البشرية . فإن النماء التي كان فيها مقيماً ، جعلت هذه المشكلة شوكة مسننة في نفسه . وعنه تروى الأقاصيص عن التقائه برجل شيخ قد أفنى المرض بدنه ، أو رؤيته جثة قد أمعن فيها الفساد بلاءً ، فترعبه تلك المناظر وتأخذ عليه السبل . ولم يطل به الأمر حتى لجأ إلى حياة الزهد والتقشف مؤملاً أن تزاح الغشاوة عن عينيه ، ويفور إلى أسرار معنى الحياة بعد أن يتحرر من ربط الأسرة وهموم العالم ، وينصرف إلى التأمل وإماتة الجسد .

بعثه عن النور :

وبعد اذ غادر أسرته ، ارتقى في أحضان بعض المعلمين من النساك ، فتلقى عنهم تعاليم البراهمة . وقد صاغ النظام الذي وضعه فيما بعد على أساس مطارحاته مع ذلكم النفر من الزاهدين . على أن أساليب تقشفهم ودمدمتهم بالالفاظ المألوفة ، مع اغراق عقولهم وتفكيرهم في براهما — كل هذه لم تجده شيئاً . وكانت الخطوة الثانية أن لجأ هو وخمسة من اترايه الى غابة هادئة

للاختلاء ، والتأمل ، وترويض النفس . وهناك قساً على جسده وعقله ، وأذلّهما أيما اذلال ، فكان غذاؤه اليومي حبة من الارز . وجاهد جهاداً عنيفاً لادماج نفسه في الروح الالهى ، كما فعل قليل من زهاد الهنود ، حتى حسب أعظم القديسين شأناً في قومه . ولجأه أحسن عقم هذه الجهود الضائعة ، وفي شجاعة نادرة صارح زملاءه بأن تجربته قد فشلت ، وعاد يقناول طعامه العادى . فما كان من أصدقائه الخمسة الذين زاملوه في خلوته ، إلا أن مضوا الى حال سبيلهم أسفين . وكانوا قد أملوا فيه كثيراً حين رأوا غيرته المتقدمة ، والآن يرونه ينجب آمالهم خيبة مريرة .

أما الخطوة الثالثة فكانت سنة كاملة قضاها في تأمل عميق ، وفي عزلة كاملة . وكانت الشكوك والخاوف قد تنازعت نفس غوتاما ، فهو قد اقتنع أن إمانته نفسه وإذلالها لم يجدياه نفعاً ، وهو ما يزال حائراً مضطرباً يتخبط على غير هدى . فساورته الأفكار أن يعود إلى موطنه ويعدل عن سعيه . وفي ذات يوم جلس يتناول طعام الإفطار تحت ظل شجرة صارت فيما بعد مقدسة في نظر البوذيين ، حتى نظروا إليها نظرة المسيحيين إلى الصليب . وهناك قضى اليوم كله ، والليل كله ، في نزاع داخلي ، حتى إذا بزغ نور الفجر ، أشرق عليه نور الحق ، ينبئه أن شقاء الحياة وعناءها وضجرتها تنبعث من رغبات النفس ، وأن الإنسان مستطيع أن يكون سيد رغباته لاعبداً لها ، وأن في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين . فهجر غوتاما مشهد التريث والانتظار ، وطلق يحمل رسالته إلى العالم ، رسالة قد نُقشت على قلبه بأحرف من نار . ولقد حدثته نفسه أن يحتفظ بهذه الرسالة لنفسه ، ويستمتع بالنور دون أن يشرك فيه أحداً ، لأنه خشى أن يقصر الناس عن فهم رسالته قبل أن يتخبروا طور التدريب والمران الذي اختبره هو . وقيل إن الباعث الذي دفعه إلى أن يكون مرسلاً ومبشراً هو محبته للبشرية ورغبته

في أن يشاطره الناس هذا الحق الجديد المذهب للنفس . والبوذيون الاتقياء
يشكرون الله في غير انقطاع لأجل هذا الصنيع الذي أتاه بوذا وأنكر فيه ذاته .
حياته وتعليمه :

ذهب أولاً إلى الرفاق الخمسة الذين هجروه . وحين سمعوا قصته ، قبلوا
رسالته وتبعوه . وكان بين أنصاره الأولين فئة من الشبان ذوى الكرامة
والمكانة . وفي قليل من الزمن جمع إليه ستين من صحابته ، وجعل منهم نواة
الهيئة التي بعثها لنشر دعايته والتبشير برسالته . أما هو فعاد إلى مسقط رأسه
ليرى أبويه وزوجته . وعبثاً حاولوا اقناعه للعدول عن دعوته — وقد قال
لأبيه الذي عاب عليه استجداءه في الطرقات وذكره بسلالته الملوكية : « قد
تدعى أنت وأسرتك التحدر من سلالة الملوك ، وأما أنا فأنتمسب إلى نسل
بوذا منذ القدم ، وهم قد عاشوا يستجدون طيلة حياتهم كلها » . وظل أربعين
سنة يجاهد في نشر دعوته وتثبيت النظام الذي وضعه متنقلاً من مكان إلى
آخر ، يتناول الطعام الذي يوجد به عليه الخيرون من الاغنياء والفقراء ، ويعلم
كل من أقبل إليه للاسترشاد به . وفي الثمانين من عمره قضى نحبه . وله من
الكلمات التي تفوه بها على سرير الموت ما خلده التاريخ . فهو القائل :
« كونوا لأنفسكم نوراً ، وملجأً حصيناً ، ولا تلوذوا بغير أنفسكم » — « قد
تفكرون في أنفسكم قائلين : الآن انتهت الكامة بعد إذ قضى معلمنا ، ولكن
إياكم وهذا التفكير . واعملوا بعد موتى لتثبيت الفاموس الذي علّمكم إياو النظام
الذي أرشدكم إليه . وكونوا لأنفسكم خير المعلمين » . وأما كلماته الأخيرة فهي :
« أيها الشحاذون المستجدون : الآن أوصيكم بأن عناصر الإنسان وقواه ينبغي
أن تذوب وتفتى ، فتمموا خلاصكم بجد ومثابرة » .

مؤثراته الشخصية

كان لأخلاق غوتاما الشخصية ، أكبر الأثر في الدين الذي أسسه ، ولو أن

الكلمات التي اقتبسناها الآن تدلنا على أنه لم يوميء إلى نفسه ، بل إلى الحق الذي أعطاه . وقد كانت رقة نفسه وهدوؤها ، ومحبة للإنسانية ، ورغبته في انكار ذاته لتخفيف الآلام والوجاع — كانت هذه كلها أفضل العناصر في أخلاقه التي يرجع إليها أكبر الفضل في نشر تعاليمه . ونشاهد حتى اليوم ، حيث تتحرر البوذية من الملابس المتأخرة ، ويبدو شكل بوذا مجرداً عن عوامل الاصطناع ، شيئاً من هذه الصفات الأدبية في نفوس أتباعه والمؤمنين به .

وفي الكتب البوذية قصة تصلح مثلاً على كرم أخلاقه : يروى أن فلاحاً برهياً كان يحرق حقلاً ، وإذا ببوذا يحىء إليه وفي يده وعاء يستعطى فيه . فقال له الفلاح : « أيها الناسك : على أن أحرث وأزرع ، لأكسب عيشي . فعليك أنت أيضاً أن تكافح وتعمل ثم تأكل » . فأجابه بوذا : « أيها البرهمي : أنا أحرث وأزرع ، وبغير هذا لا آكل » . فيقول له الفلاح : « لا أرى نيلاً ، ولا محراثاً ، ولا منخساً ، ولا ثيراناً » . ويحييه بوذا بعبارة شعرية قائلا : « أنا فلاح بحق ، أيها السيد ، والآراء الصائبة هي البذار المثمر الذي أ بذره . وتدريب النفس هو المطر الذي أسقى به . أما الحكمة فهي نيري ومحراثي ، والوداعة ميسمعي ، والاهتمام بالغير محور عجلي ، واليقظة منخسي ... » وبتهذيب الفكر والقول والفعل أنقى الأرض من أعشابها الضارة ، وبطريق الخلاص أنادي . .

« أما ثوري فهو السعي المتواصل الذي يحملني في غير ملل إلى حيث لا يصيبني حزن حتى أقرب إلى نرفانا ، وهو الهدف الذي إليه أسعى » .

عندئذ يصبُّ الفلاح البرهمي الأرز المزوج باللبن في وعاء من الذهب ويقدمه إلى غوتاما قائلا :

« في الحق أنت فلاح بكل معنى الكلمة ، وحصاد الحق هو طعامك الشهى . اشرب هذا ياسيد هنيئاً . وبعد اليوم أنا أطوع لك من بنائك » .

بوذا والمرأة :

كانت رسالة بوذا في ظاهرها موجهة لجميع الناس ، وليس بها تمييز بين الطبقات . من ثمَّ أبى أن يعترف بسلطان الكهنوت البرهمي — وكان يومئذ في بداية عهده — ولم ينهج نهج غيره من النساك الزاهدين في يومه . ولكن الواقع أن رسالته لم تلقَ قبولا لدى العامة من الشعب — ولم يكن هدفها إزالة بؤس البائسين من الفقراء والمعوزين والمظلومين بالدعوة إلى إصلاح أحوالهم في المجتمع . ذلك لأن دعوته كانت في أرقى أوضاعها عقلية بحيث لم يستسغها غير المثقفين . وتقول النصوص البوذية في عصره في رنة من الرضى والإكتفاء إن غالبية الذين اهتمدوا إلى دعوته كانوا من الأثرياء ، ومن المحتد الأصل النبيل . فضلا عن ذلك فقد أبدى تمنعاً وحيوفاً عن قبول النساء في نظامه ، وكان في الحق كثير الريبة نحو جنس المرأة . ويوماً ما سأله « أناندا » أقرب خلصائه وأتباعه : « كيف تتصرف نحو النساء ؟ » فأجابته : « لا تقع عينك عليهن » — « ولكن إذا وقعت أعيننا عليهن فماذا نفعل ؟ » « لا تكلمن » يا أناندا — « وماذا إذا كلمتنا يا سيد ، ماذا عسانا أن نفعل » ، — « اهرب منهن » . على أنه فيما بعد اضطر إلى الخضوع تحت ضغط الحوادث . ولكنه بعد إذ خضع ووضع قواعد وأصولاً لراهباته ، تنبأ قائلاً : لو أن هذا لم يحدث ، لظلَّ هذا الدين الطاهر قائماً ألف سنة ، أما الآن وقد دخلته النساء ، فلن يبقى أكثر من نصف هذه المدة !!

وقد ارتدى رهبانه ثياباً صفراء ، شعار الزهد والتقشف ، وحلقوا رؤوسهم وعاشوا حياة الفقر والإستجداء والعفة ، وقد خلوا من ظل الربط الأرضية ، ولم يميزوا بين طبقات الناس . ومع أن معلمهم كان يجول من مكان إلى مكان فإن الاخوة قد استقروا في أماكنهم ، وكانوا يسرون اثنين اثنين . وكان خارج النظام علانيون اتقياء لم يشاطروا الرهبان أمانهم وأشواقهم في بلوغ

« النرفانا » ، ولكنهم تاقوا إلى تحسين مصيرهم في ولادة ثانية في المستقبل بإطاعة أحكام أدبية أخلاقية معينة ، وأعمال الإحسان والخير ، وخاصة نفع نظام الرهينة بالمنح والعطايا .

وقد لقيت دعوة بوذا نجاحاً وتوفيقاً ، وكان مرد هذا بالأكثر إلى جمال أخلاقه ، وجاذبية شخصيته ، وقوة صبره ، ودماثة نفسه ، ورقه جانبه ، كما أسلفنا . وحين نقرأ اليوم الشكلية الجامدة في تعاليمه ، كما صاغها اللاحقون ، نحس أن عبق عذوبة مؤسس الدين قد تبخرت في عملية صياغته في ألفاظ فنية لا يفهمها إلا الأقلون .

أخريات أيامه :

وقد بقيت رسالة بوذا - وخاصة في الأقاليم التي كانت مدينة بنارس مركزها حيث ولد وترعرع - مدة خمسين عاما حتى بلغ الثمانين من العمر . وفي أحد المؤلفات البوذية^(١) نقرأ وصفا مؤثراً لأخريات أيامه وموته . وإذ يحس بوذا بشدة وطأة المرض عليه ، يحاول بقوة ضبط نفسه إخفاء مرضه ، ويناجي نفسه قائلا : « سأضبط على هذا المرض ، واستمسك بالحياة » ، وذلك لكي يستأذن من اتباعه ومريديه قبل الإنطلاق . وقد رفض طلبا تقدم به «اناندا» أخلص خلصائه ، حين سأله أن يترك بعض تعليماته لاتباعه عن مصيرهم في المستقبل . وقال له إنه لم يلجأ قط إلى الأسرار في عقيدته ، فلقد شرحها شرحا وافيا ، ولم يميز أبداً بين الحق الظاهر والحق الخفي ، ولم يقبض يده على شيء لم يعلنه للناس ، فليس لديه شيء يتركه وراءه لاتباعه غير الحق . وختم قوله لصديقه :

« إذأ ، يا اناندا ، كونوا أنواراً لأنفسكم . كونوا لأنفسكم ملجأ حصيناً ، ولا تهرعوا إلى ملجأ خارج عنكم : والآن ، يا اناندا ، كل من يصير نوراً

(١) "Suttee of the Great Decease"

لنفسه ، وملجأ لنفسه ، ولا يلوذ بغير نفسه ، ويستمسك بالحق مصباحاً لسبيله ،
هذا هو الذى يبلغ أخيراً أعلى الذرى » .

على انه لم يرفض طعاماً من لحم الخنزير البرى قدّمه له احد اتباعه
« شوندا » صانع المعادن ، ولو انه كان يعلم انه ضار بالصحة ولا يقوى على
هضمه . وقد أصابته من جراء ذلك دوسنتاريا حادة قضت عليه - ولكنه
أظهر قبل موته تجلداً غريباً مؤثراً حتى لا يشتط صديقه فى لوم نفسه ووخز
ضميره . وقبل موته بقليل سأل رهبانه : أليهم شيء من الشك فى صدق
عقيدته ، فلاذوا بالصمت جميعاً . وختم حديثه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة :
« إذا أتوسل إليكم الآن أيها الأخوة أن تعملوا أن الفناء هو طبيعة كل الأشياء .
فكملوا خلاصكم بجد وغيرة » .

تلك كانت آخر كلمة انفرجت عنها شفقاته ، وبعدها أسلم الروح ، وحمل
اتباعه جسده فى وقار ، وأحرقوه ، ووزعوا رماده بين ذوى قرباه والنبلاء .
أما الحفنة التى أخذها أقرباؤه فقد أودعوها وعاء تمّ العثور عليه سنة ١٨٩٨ م
وقد نقش عليه : « بقايا بوذا المكرم الرفيع » .

الحقائق الأربع :

وغوتاما نفسه ينسكّر أنه جاء لينادى مبدئياً بنظام فى الآداب والأخلاق .
ولكنه رغب فى أن يقتبس البشر الحقائق الأربع التى تلقاها تحت الشجرة
المقدسة ، والتى هى أساس النظام الذى وضعه . أما هذه الحقائق فهى :

١ - **الآلم أو الحزن** : الولادة ، والنمو ، والمرض ، والموت ، وفراق الأحباء ،
وكل ما يتصل بوجود الفرد - هذه كلها تيجى علينا بالأحزان .

٢ - **علة الحزن** : إن احتياج العاطفة بعد ثورتها ، واللذة فى تملك الأشياء
أو الرغبة فى احتيازها ، والشهوة ، ومحبة العالم الحاضر ، والشوق إلى عالم
مستقبل - وقصارى القول الشهوات والرغبات ، هى أصل آلامنا وأوجاعنا .

٣ - **ابطال الحزن** : يبطل الحزن متى بطلت شهوة الحياة ، وانتفى الظمأ إلى هذه الأشياء .

٤ - **طريق ابطال الحزن** : ولتحقيق هذا طريق واحد ، هو الحياة الفضلى المفكرة ذات الثمانى شعب .
أما هذه الشعب الثمان فهى :

الآراء السليمة ، والشعور الصائب ، والقول الحق ، والسلوك الحسن ،
والحياة الفضلى ، والسمى المشكور ، والذكرى الصالحة ، والتأمل الصحيح .
الاطوار الاربعة :

ولهذه الطريقة أربعة أطوار (والبوذية حافلة بعدد لا يحصى من الأحكام والحقائق ، والرذائل والفضائل ، يعرفها البوذيون بالإسم ، كما يعرف المسيحيون وصاياهم العشر) . وفى خلال هذه الأطوار الأربعة تنكسر القيود العشرة . فالطور الأول هو الإحياء والتجديد حين يدرك الإنسان معنى الحقائق الأربع المشهورة . وعند بلوغ هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الأولى - وهى الوهم الخادع فى وجود النفس ، والشك فى بوذا وتعاليمه ، والاعتقاد فى تأثير الطقوس والرسوم الدينية . أما فى الطور الثانى فيقوى المهتدى على التخفيف من حدة الشهوة والكرهية وغرور الأوهام . وفى الطور الثالث يحطم قيود الشهوة تحطياً . وأما الطور الرابع فيسمى صراط المقدسين ، وفى هذا الطور يتحرر القديس من القيود الباقية ، وهى الرغبة فى البقاء المادى وغير المادى ، والكبرياء ، والإعتداد بالبر الذاتى ، والجهل . وعند بلوغه هذا الطور يكون قد وصل الهدف الذى يسعى إليه ، وهو « نرفانا » .

ما هى الترفاتا :

قلنا ان « النرفانا » هى الطور الرابع الذى يبلغه البوذى فى مصارعاته وجهوده النفسية عن طريق الإذلال والتعب . فما هى النرفانا هذه ؟ الفكر

السائد أنها الاندماج في الله والفناء فيه . ولكن البوذية لا تعرف إليها قط ،
وفكرة هذا الفناء في الإلهية غريبة غير مألفة فيها . وكانت رغبة الفناء في الله
من الرغبات التي تأقت إليها نفس غوتاما مؤسس البوذية ، وهو يمارس أساليب
إذلال نفسه ، قبل أن تُستعلن له الرؤيا تحت ظلال الشجرة المقدسة . ولكن
مطامعه قد تبدلت فيما بعد ، أما النرفانا في عرف البوذي فهي الطور الرابع
الذي يبلغه الناسك الزاهد ، بعد أن يكون قد حطم كل قيود نفسه وأغلالها ،
ورغب عن شهوة البقاء ، وتملكه عقل هادئ مطمئن لا يتسرب إليه الخطأ ،
وتجرد عن كل الأماني والرغبات والجهالات وأسباب الخديعة والإغراء . بعد
هذا كله يبلغ البوذي طور « النرفانا » ، يبلغه في حياته على الأرض كما
فعل غوتاما .

والحقيقة الأساسية في تعاليم مؤسس البوذية هي « ناموس العلة والمعلول » .
فالكون في نظره وحدة متصلة متماسكة ، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها .
وهو مركب من مجموعة هائلة من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص ، بل يعاد
توزيعها باستمرار ، ويعاد ترتيبها ووضعها بحكم الناموس الخاضعة له . وكل
مجموعة جديدة إن هي إلا علة نشأت عن المجموعة التي تقدمتها . ولكن غوتاما
لم يقل شيئاً عن تلك « العلة الأولى » الذي يدير دفة هذا الكون ، ومحظوظ
على البوذي التقى أن يبحث في هذا .

وكانت الصلة بين هذه الفكرة عن العالم ، وبين طبيعة الإنسان في غاية
الخطورة . فلإنسان ، فضلاً عن كيانه الجسماني ، خواص عدة ، هي المشاعر
والاحاسيس والآراء والميول والقوى العقلية . وهذه الخواص ، مقترنة بالكيان
الجسماني ، تكون ما نسميه « النفس » أو « الذات » .

على أنه لم يكن في عرف « غوتاما » (خلفاً للبراهمة الذين صاغوا الفكر

الهندوسى) شىء يدعى « الذات » أو « النفس ». ومعنى هذا أن « غوتاما » لم يسلم بوجود « الذات » كشخصية موحدة . ولم يَرَ إلا تلك المجموعة من الخواص أو الصفات الخاضعة للناموس الذى قلنا عنه فيما سبق ناموس « العلة والمعلول » . وهذه الخواص والصفات توزع من جديد عند الموت . وانتفاء هذه الشخصية الموحدة يعنى إنعدام الخلود بعد الموت . وما كان يقال ان « الذات » أو « النفس » تنعدم عند الموت . ذلك لأنه لم يكن لها وجود فى الأصل . أما العناصر التى يتكون منها الإنسان ، فمصيورها عند الموت (فى رأى غوتاما) التفكك والتجمع ثانية فى وجود جديد فى مجموعة جديدة .

والمفروض أن العناصر المكونة للإنسان ينبغى أن تخضع للناموس العام فى الكون . ويتولد عن هذا الخضوع تناسق فى المجموعة كلها . غير أن الامانى وال رغبات فى الذات البشرية هى التى تولد التنافر . وذلك لأن خواص الإنسان ، من أحاسيس وميول وآراء ، متى اتصلت بالعالم الخارجى ، تخلق رغبة ملحة .

وهنا يحق لنا القول ان كثيراً من هذه الرغبات والامانى صالحة لاغبار عليها ، ولها ما يبررها . ولكن غوتاما لا يسلم مطلقاً أن الرغبات والامانى قد تكون صالحة . فالرغبات عنده تنشأ عن الأعمال صالحة كانت أو شريرة ، ولكنها تعمل على إقصاء النفس من الحياة المركزية فى الكون . وعند الموت تُنتج الرغبة ، التى يكون قد أشبعها الإنسان ، وكذلك تُنتج الأعمال التى نشأت عنها ، كائناتاً جديداً . فإن كان للإنسان شهوات حيوانية وحشية ، تتجمع هذه العناصر كلها ، وقد تخلق بعد موته حيواناً شرساً وحشياً كالنمر .

قلنا ان النرفانا هى الطور الذى يبلغه البوذى فى حياته بعد أن يتجرد من أمانيه وجهالاته . فإذا مات الجسد ، تزول الأمانى والرغبات ويسرى عليها

ناموس « الكرما » ، أى أن كل عمل يأتية الانسان له ثمرته حتماً، وأن كل شيء يختبره فى كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التى يأتيتها فى الوجود السابق . وهى بمثابة كفارة، فالنرفانا ليست فى حد ذاتها موتاً ، بل هى حالة فى السلام المقيم، والقداسة الكاملة ، والتجرد من الامانى ، والرغبات، ومن كل الأشياء التى تغرى الانسان على التشبث بهذا الكيان المستقل — هى جنة البوذيين التى ينعمون فيها بعد التطور الأدبى فى الطريق ذى الشعب الثمان بأطوارها الأربعة .

ولذلك اكتفى مؤسس البوذية بأن أعطى عامة الشعب مجموعة هائلة من التعاليم الأدبية والأحكام والوصايا التى أودعها كتيبه، وأسهب فيها بقصص ذات مغزى أدبى. وهو يعتقد أن قليلين جداً هم الذين يبلغون النرفانا فى جهادهم الأخلاقى .

طبيعة الانعمان :

وهنا نجمل ما أسلفنا من أفكار، لتبين حقيقة الفكرة البوذية عن الانسان ونقارنها بالفكرة المسيحية : أنكر بوذا صراحة وجود النفس البشرية . وعنده أن الشخصية الظاهرة تتكون من خمسة عناصر — هى الخواص المادية ، والحواس ، والآراء المجردة ، والميول السابقة ، والأفكار. وهذه كلها تنحل عند الموت وتنفكك . ولولا وجود الرغبات ، لما أمكن أن تتحد هذه العناصر مرة أخرى . ولكن هذه الرغبات (وهو لا يعنى بها مجرد الرغبات الدنيا الحيوانية ، بل يقصد الرغبات اطلاقاً، ومنها رغبة الوجود الفردى المستقل) تسوق إلى العمل ، والعمل يسوق — بدافع ناموس الكرما — إلى خلق شخصية جديدة ، وإيجاد نواة جديدة تتجمع حولها عناصر النفس . ونظرية الكرما الهندوسية — كما رأينا — أساسها أن للانسان شخصية مفردة مستمرة متداولة فى حياة متتابة . ويظهر أن الشخصية فى البوذية وهمة خيالية .

والدين المسيحي — كما لا يخفى — متصل باليهودية ، لاحق لها . ولذلك يحسن أن نبدأ بفكرة أنبياء إسرائيل عن الانسان وعن العالم ، وهي من الخلفات الثمينة التي بقيت تراثاً للجنس البشرى من أنبياء اليهودية . فالعالم والإنسان مدينان بوجودهما — حسب الفكرة اليهودية — لله وهو مصدر بقائهما ودوامهما . هو الخالق عزَّ وجلَّ . وبهذا المعنى لا يكون الفرد منبثقاً من الله ولا جزءاً منه . إنما الله متعال متسام فوقه . وكأن هناك خطاً فاصلاً يميّز الفرد عن أخيه في الانسانية ، كذلك هناك خط فاصل يميزه عن الله تعالى . وبين الشخصية الانسانية والشخصية الإلهية شبه . لأن في الانسان بعض ماهو إلهي ، بنسبة استجابته لنداء الله والاقتراب منه . ولكن ليس الانسان جزءاً من الله . ولا هو عنصر من عناصر وجوده تعالى . كذلك ليس العالم جزءاً من الله ، ولا مشاركاً له في الحدوث والقدم .

ولقد حسب انبياء إسرائيل العالم ، الذي وضعهم فيه الله ، ميداناً يتعلم فيه الإنسان بالاختبار ، وهم لم يقبلوا العالم قبولاً سليماً ، بل حسبوه مكاناً يكافح فيه الشر وينشط فيه الخير . ومواهب الإنسان هي « الصداق » ليفعل مايريد الله منه ، فيغلب بذلك ضعفه ، ويتحول قوة ، وتستقيم رغائبه وميوله ، وترقى إلى الأشياء السامية ، حيث يفلت من التجربة والغواية . وما أبعد الفرق بين هذه الفكرة وبين نظرية « الكرما » والعالم الخيالي الوهمي في البوذية . ولقد آمن الانبياء أن الخير والشر اللذين يحلان بهم ، هما بمثابة فرص سانحة للخدمة تؤدي بالطاعة والرضا استجابة لدعوة الله ، ولا وجه فيها للاستحقاق الذاتي . وما كانوا ليستسيغوا قط فكرة تقول ان ما يحلُّ بهم في الحياة إنما هو نتيجة أعمال وتصرفات وقعت في وجود سابق . ثم هم حسبوا هذا العالم أيضاً حقيقة خارج أنفسهم وذواتهم ، عينها الله العزيز الحكيم . أما النظرية التي تجعل العالم

وهما وخيالاً تخلقه رغبات الإنسان، فما كان لها عندهم أثر، ولو أنها خطرت على بال أحد في يومهم، لحسبوه اثماً وتجديفاً، بله بطلاً وسخفاً .

وهذه الفكرة قد افترضها العهد الجديد فرضاً . وحقيقة المسيح تجعلها ألغ نوراً وأكثر شمولاً في بساطتها العميقة . ولكن معانيها الجوهرية تتفق تماماً مع إعلان الانبياء . ويذهب العهد الجديد في تعليل أصل خطية الإنسان إلى أبعد مما ذهب إليه الفكر الاغريقي . فبينما ذهب الفكر الاغريقي الارستقراطي إلى أن العقل هو جوهر الإنسان ، عارضه في هذا الفكر المسيحي ، وذهب إلى أن الارادة الأدبية هي مركز الدائرة . وليست الخطية في الإنسان مجرد جهل ، ولا هي مجرد الانغماس في عالم مادي زائل . إنما هي معصية الانسان الذي خلق ليحب الله ، ويفعل مشيئته طواعية واختياراً . ثم ان الفساد الذي في قلب الانسان ، الذي خلق على صورة الله ، يُنظر إليه نظرة عميقة فاحصة . على أن المسيحية ليست ديناً استقراطياً ، ولذلك لا شيء في العالم عندها تعدل قيمته تلك النفس البشرية ، مهما أوغلت في الجهل ، ومهما وهنت من الضعف والهزال .

نظام العبادة في البوذية :

وللبوذية نظام معين من حيث رجالها وخدامها . ولقد عرفنا من قبل أن « غوتاما » ذهب إلى أن الطريق إلى الرفانا والحياة الروحية السامية لن يبلغها إلا أشخاص أفرزوا أنفسهم لهذا الغرض . ولذلك وضع رتبة للناسك المتزهدين .

وكان محتماً على من يريد الدخول إلى إحدى رتب النظام الديني أن يستشير أولاً والديه . ويمكن قبوله في الثامنة من عمره ، ولكنه لا يُرسم في وظيفته قبل العشرين . أما حفلة القبول فلا تخرج عن إجراء بعض الطقوس ، وترداد بعض الألفاظ . ويُفرض على الناسك التبتل ، ويُحظر عليه الرقص والغناء والمسارح أو أخذ الفضة أو الذهب . ولا يأكل في اليوم إلا وجبة واحدة في

الضحى . ويحمل في يده طبق الاحسان متنقلا من بيت إلى آخر ، لايقول كلمة لأحد ، ولا يؤثر الغنى على الفقير عند طلب الاحسان .

وقد عاش أولئك النساك في الأديرة التي شرع في تشييدها في زمن « غوتاما » ، نفسه ، وارتدوا الثوب الاصفر البسيط ، أما عملهم فكان ، علاوة على صيانة الأماكن المقدسة ، الدرس والتأمل .

وليس لدينا من تاريخ البوذية المتأخر إلا القليل من المعلومات — منها أن امبراطوراً شهيراً يدعى « أسوكا » بسط سلطانه على بلاد الهند كلها حوالي سنة ٢٥٠ ق . م . وشجع البوذية بكل قواه ، فكان لها كما كان الامبراطور قسطنطين للمسيحية .

وفي الشمال حادت البوذية عن أصولها ، ونسى القوم انسانية بوذا ، وأخذوا يبتكرون عدداً من الآلهة ذكوراً وأنثاء . واستحالت عقيدة بوذا القائمة على انكار وجود الله ، إلى عقيدة تعدد الآلهة الوثنية . وهكذا اضطربت العقائد في الجنوب ، فبعدت كثيراً عن الأوضاع التي أرادها بوذا نفسه .

وأنكر بوذا الصلاة . ولكن أتباعه أخرجوا ما لم يبتدعه أى دين آخر ، ألا وهو الصلاة الآلية القائمة على مجرد التكرار الممل . فكانوا ينقشون بعض الألفاظ السحرية على عجلات للصلاة ، يديرها الهواء أو قوة اندفاع الماء . وفي كل مرة تلف العجلة لفتها ، وترتفع الكلمات المنقوشة نحو السماء ، تُردد صلاة هي مجرد تكرار . ولو كان بوذا نفسه حياً ، لانتفض خجلاً من هذه الابتكارات الصبائية .

كيف يكتمل هذا النقص في البوذية :

وبعد هذا نرى كثيراً من الحق والخير في البوذية ، وكثيراً من السخف والحماسة . ونرى بوذا نفسه رجلاً قد أحسّ بحاجة العالم ، ففقد زماً طويلاً في

صمت وتفكير ، وعانى نزاعاً روحياً عقلياً ، وعاش حياة مجردة عن حب الذات ، نقياً ، طاهراً ، صبوراً ، رقيقاً .

ولكن ما أعظم الفارق بين صمته حيال بعض الأمور الخطيرة ، وبين النور الوهاج الذى خلعتة المسيحية عليها . فبوذا صمت ولم يذكر شيئاً عن الله ، ولكن المسيح اقتاد البشرية إلى الله الآب . وقد رأينا فى البوذية المتأخرة أن القوم نسوا انسانية بوذا فاتخذوه معبوداً . وكل دين يقوم على انكار الله بعرض نفسه للانهميار ، ذلك لأن البشر لا يرضون نظاماً تنفتى فيه كل فكرة عن أصل الحياة ومنشئها ومصيرها . فاذا آخت السموات من ربها ، بادر البشر على التوجه إلى ملها بألهة من مبتكرات خيالهم . فهذا الفراغ الذى أحدثه بوذا بانكاره الله ، تكملته المسيحية بالله الآب الذى أعلنه المسيح ، الذى يجمع بين البشرى والالهى ، فى رابطة من المحبة لا تنفصم وشائجها .

وأفكارنا الصائبة عن الله تتبعها حتماً أفكار صائبة عن الانسان . فمن ناحية واحدة نرى « غوتاما » يرفع الإنسان إلى درجة سامية ، لا يدانيه فيها أحد . ولكنه من ناحية أخرى يخفضه إلى مرتبة وطيئة بنظراته المشائمة فى الحياة ، وإقامته نظام التبتل والاستجداء ، وامتهان الجسد البشرى . وما أعظم الفارق بين التأمل فى الجسد « كجثة متعفنة سريعة العطب والفناء » ، وبين « اعتباره هيكلال للروح القدس » ! فالحياة فى نظر « غوتاما » شئ كرهه ينبغى التخلص منه ، والظفر من أوزاره . وأما « النرفانا » فهى لا شئ للانسان العادى ، لأنه لن يقدر أن يبلغها ، وهى فى جوهرها أشبه بالفناء . وإنه لأنبى وأجدى أن نفكر فى الشخصية البشرية ، وقد تطهرت وتهذبت شهواتها وميولها ، من أن نفكر فيها وقد عدت تلك الشهوات واندثرت . ومع احترامنا للناموس الأدبى الأخلاقى الذى وضعه بوذا ، وما ترتب عليه من نتائج الاحسان والاشفاق المتبادل بين أتباعه ، ينبغى ألا يغرب عن الأذهان

أنه يقيم نوعاً سلبياً من أنواع الحياة . وهو لهذا عدوُّ التقدم والرقى . ومن هنا كانت البلدان التي سادها الفكر البوذي ، أقل البلاد سعيًا في ميدان الحياة ، وأضعفها أثرًا في اكتساب العالم إلى ملكوت الله .

وإن قلنا إن البوذية تجدد في المسيحية ما ينقصها من اعلان مظهر الله الأب ، واعلان حقيقة الإنسان ، فإنها تجدد فيها أيضاً رسالة الخلاص من الخطية . ذلك لأن البوذية تفرض قواعد صارمة لبلوغ « الكرما » . ويطنى على البوذية من جراء ذلك فكرة الناموس ، واستحقاق الشخص الذاتى . وبينما تقوم « الكرما » وازعاً إلى الصلاح ومانعاً عن الخطأ ، فإنها تولد نوعاً من الفضائل يظنها المرء مكتسبة بجهوده الخاصة واذلال نفسه . وليس في البوذية أمل للنفس التي يشتدُّ بها الصراع وتخور في العراك ، ولن تمتلئ النفس بفكرة متعمقة عن قداسة الحياة ، وشعور الحاجة إلى قوة تسند وتعضد في الصراع ضد الخطية ، إلا متى تلاقت النفس وجهاً لوجه مع الله ، وانتفتت فكرة « الاستحقاق » الذاتى ، وعمر القلب بفكرة الانكال على صلاح الله وجوده . وهنا تشير المسيحية إلى ناموس المحبة . وربما يمجج البوذي أكثر من سواه كل تعليم عن كفارة المسيح ، مما لا يأتلف مع شعور العدالة . ولكن حقيقة محبة الله الغافرة التي لا تتجاوز عن الخطية ، بل تحملها في نفسها ، توقظ في قلب البوذي الشعور بالخطية ، والحاجة إلى إعادة الصلة المنقطعة مع الله .

ففي البوذية كثير مما يعبد الطريق ويمدُّها لقبول المسيح . ومتى أخلص البوذيون لبوذا ، يصيرون إلى المسيح أكثر اقتراباً . لأن النموذج الأخلاقي الذي وضعه بوذا لا يعلو عليه نموذج آخر في المبادئ التي وضعها أصحاب الأديان الأخرى — سوى المسيح . والفارق أن بوذا دعا إلى ثقافة انسانية ، أما المسيح فقد أدخل حقيقة الله إلى حياة بنى الإنسان .

أديان الشرق الأقصى

تمهيد

إن الموقف الديني العام في الشرق الأقصى يختلف تماماً عن الهند من نواح هامة . فالهند تنظر إلى الطبيعة كأنها وهم وخداع ، أو على الأقل تحنُّ إلى التغلب عليها، وقهرها بالفكر والتأمل، كأنها ذات قيمة من الدرجة الثانية أو حتى الثالثة . أما شعوب الصين واليابان فلا تهضم هذه الفكرة في يسر . وهم قد أولعوا بالطبيعة وحسبوا إلهاماً لكل فن جميل ، وبلغوا في هذا المضمار شأواً رفيعاً حتى يعشق كل منهم أن يطيل حياته على هذه الأرض بقدر ما أوتي من حيلة وجهد . ولم تكن الطبيعة في نظرهم الحقيقة الكلية ، ولكنها تسهم بدور فعال في حياة الإنسان، وهي مجموعة من الأوضاع والقوى الحقيقية ، ليست الخيالية الوهمية الزائلة . وفي سيرها وأعمالها ، تبدو الطبيعة نظاماً منسقاً وجمالاً رائعاً .

وقد تفوّق شعب اليابان على شعب الصين في هذا المضمار ، فهم قد أحبوا الأشجار والأزهار وأجادوا مناظرهم الطبيعية ، ورسموها في لوحاتهم تحفاً رائعة في أشكالها وأوضاعها ، وتغنّوا بها في أشعارهم قصائد ماثورة خالدة في آدابهم . وثمة مظهر آخر في الوعي الديني في الشرق الأقصى يجب ألا ننغله ، وهو أن الانسان والطبيعة متلازمان ، تؤلف بينهما وحدة عضوية لا خارجية عرضية .

فمن المعتقدات القديمة لدى أهل الصين ، ان السماء والأرض والناس تربطهم معاً صلة حساسة متبادلة ، بحيث أن ما يطرأ على الواحد يؤثر على الآخر أيضاً . فاذا أساء الناس السلوك ، أو حتى إذا حاد الأمبراطور وحده عن السبيل السوي ، يضطرب سير الطبيعة كلها ، وتسود القوضى جو السماء . وإذا أطاع البشر نواميس الطبيعة ، فان هذا يُرضى الأرض والسماء ، ويخلق تناسقاً عاماً في الكون كله : تَقَرَّ غلات الأرض ، ويعيش البشر في سلام وفلاح . ومعنى هذا كله أن أجزاء الكون المختلفة ليست مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً خارجياً كأي نظام آلي ، ولكنها مرتبطة باحساس مشترك متبادل ، يؤثر أحدها في الآخر تأثيراً مباشراً . ومثل هذا الاحساس نجده أيضاً عند أهل اليابان ، والذين يتمسكون بالتقاليد اليابانية القديمة يحسبون الإمبراطور ، وشعبه ، وجبال اليابان ، والسماء فوقها - تؤلف معاً مجموعة واحدة مترابطة ، تتأثر حساسية القوى الجوهرية في كل منها بما يجري في الأخرى .

فهل هذه الأفكار عقيدة مقنّعة بتعدد الآلهة ، أم هي فكرٌ روحية توجيهها فلسفات روحانية ؟!

بلاد الصين :

آمن الحكماء القدامى في بلاد الصين الذين عاصروا لاوتز وكنفوشيوس ، أنهم يستمتعون بثمار ثقافة قديمة ، يرجع تاريخها إلى أكثر من ألفي سنة . وقد أثبت الحكماء والفلاسفة هذه الحقيقة في تقاليدهم وأحاديثهم . وإننا لواجدون في أساطيرهم الكثيرة عن بدايات تاريخهم ، أقاصيص عن شخصيات ذكروها بالاسم مثل « يوتشاو » النشيط الذي علّم الأقدمين كيفية بناء أعشاشهم (بيوتهم) ، والحاذق « سوجان » الذي ابتكر النار بقده عصوين احدهما في الأخرى ، والامبراطور « فوسى » الصياد الكبير ، الذي علّم الأقدمين كيفية

ترويض الحيوانات ، واستخدام الحديد في صنع أدوات الصيد ، وشباك صيد الأسماك ، واللعب على الآلات الموسيقية التي ابتكرها ، والامبراطور «شنغ نان» الفلاح الإلهي الذي صنع العربات التي تجرّها الثيران ، ولقّن الناس فنون الزراعة والطب و... و....

ولم تكن تلك الشخصيات - هكذا تقول الأساطير - هي الأولى في التاريخ ، بل قد سبقها غيرهم وغيرهم ، ممن عاشوا في عشر حقبة من التاريخ امتدت إلى مليوني سنة ! !

وهذه الأقاصيص الخيالية ، إن دلّت على شيء ، فهي تدلّ على تفاخر شعب الصين بثقافته القديمة ذات التاريخ الجيد . والآن لنلق نظرة على الأفكار الدينية التي اعتنم بها عامة الشعب في بلاد الصين .

إن أديان بلاد الصين خليط من عناصر كثيرة ، بعضها وطني ، وبعضها أجنبي ، بعضها سفسطائي مضلل ، وبعضها فطري ساذج ، بعضها عقلي ، وبعضها خرافي . وأنه يصعب في هذا المجال الضيق أن نعرض صورة كاملة من العقائد القديمة التي طغت عليها المعتقدات الحديثة نسبياً ، وخاصة لأن الشيوعية التي تغلغلت في تلك البلاد منذ سنة ١٩٤٩ قد أحاطتها بستار من أشجار الغاب - كما يقولون - بحيث يصعب على الباحث تتبع آثار هذا التغيير الشامل ، الذي قلب أوضاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والعقائدية . على أن الثورة ، أيًا كانت قوتها وشمولها ، لن تقدر أن تجتث من أصولها العقائد الدينية التي تعمقت جذورها في قلوب الناس مدى أجيال من التاريخ .

والآن سنقفز قفزة عالية في بحثنا ، ونترك وراءنا أديان الصين القديمة قبل عصر كنفوشيوس ولاوتزو وبوذا ، ونقصر حديثنا على هذه الأديان التي كانت سائدة في البلاد قبل الثورة الشيوعية ، وذلك لأنها باقية حيّة تكافح في سبيل البقاء ، ولأن تعاليمها تحاول التغلغل في المبادئ الثورية في عناد وإصرار ، على الرغم مما تلاقيه من عنت وتضييق .

الكنفوشية

وغيرها من أديان بلاد الصين

قلنا إن شعب الصين يختلف اختلافاً بيناً عن شعب الهند . فالهندي يمتاز بالانغماس في الأشياء الروحية ، والإيقان في طبيعة العالم الزائلة المتقلبة ، والتفكير العميق في الله . أما الصيني فبحسب طبيعته لا يهتم إلا قليلاً بهذه الشئون . وفي بلاد الصين يقطن شعب بقى مدى الأجيال في عزلة عن العالم ، من فجر التاريخ إلى هذا العصر الحديث ، وكان لهذه العزلة أثرها في تكوين أخلاق قومية بارزة ، وشعب ذى طبع على قليل المبالاة ، فخور بتاريخه الاجتماعى والقومى ونظمه الخاصة . وقد كانت الصين فى فنون الحضارة فى مقدمة أمم العالم . والآن ، وقد شهدت مؤخراً أثار علوم الغرب وثقافته ، بعد أن تخطت حدودها القديمة ، فإنها تدأب بعزم متوثب وهمة فتيّة فى اقتباس تلك القوة والمؤثرات التى اعتزّ بها الغرب . والذين يعيشون من الأجانب فى ربوع تلك البلاد يعجبون أيتها أعجاب ، بما يرونه من مقدرة ومثانة أخلاق ذلك الشعب العظيم . ولا يقلّ أعجابهم هذا بسبب ما يشهدون من الفوضى والاضطراب اللذين أعاقا تقدم البلاد فى اكتمال حقها من الديمقراطية السياسية .

الدين فى بلاد الصين

مادين الصين ؟ ليست الإجابة على هذا السؤال هيّنة . ففي تلك البلاد أديان ثلاثة الكنفوشية والبوذية والتاوزمية . وليس مستطاعاً أن نقول ان بعض أهلها كنفوشيون ، والبعض الآخر بوذيون ، وغيرهم تاوزميون ، كما نقول مثلاً ان سكان الهند بعضهم هندوسيون وبعضهم مسلمون ، ذلك لأن الصينى قد يكون كنفوشياً وبوذاً وتاوزمياً فى وقت واحد ! يضاف الى هذا أن

الكنفوشية هي في الحقيقة اسم على نظام ديني قبل أن يظهر كنفوشيوس في الوجود بأجيال كثيرة . وليس للتأوذية علاقة بالفلسفة التي نادى بها مؤسسها، والطريقة الممكنة التي نختطها الآن ، هي أن نصف كلاً من هذه الأديان وصفاً موجزاً ، ثم نستجمع العناصر الأصلية في الآراء الدينية العملية التي يعتنقها الصيني العادي .

الفلسفة الثلاثة

إن العالم مكان كبير واسع الأرجاء ، ويضع التاريخ أمامنا أمماً وشعوباً كثيرة ، وفي داخل كل أمة ، أجناساً وأصنافاً من البشر ، لكل منها تقاليدها وعقائدها وممارساتها وعبادتها . على أن في الطبيعة البشرية في كل مكان ، عنصراً يستجيب إلى مثل عليا في السلوك الديني ، تقسamy فوق العادات التقليدية والضرورات النفسية . وإنا لنرى في بلاد الصين مثلاً ، حكيمها منسيوس ، الرجل الملهم الثاني بعد كنفوشيوس^(١) ، رجلاً متفائلاً يقف دائماً مؤيداً الخير الطبيعي في الطبيعة البشرية ، وإليه يُنسب القول :

« في أعماق المشاعر الإنسانية تترسب فكرة الخير . فالإحسان والبر واللياقة والتأديب والمعرفة - هذه كلها لا تُبَت فينا بمؤثرات خارجية ، ولكنها متوافرة في دواخلنا » .

من ثمَّ تجد الحكمة التقليدية الصينية في جوهر كل الأشياء مبدأ إلهياً ، أو شريعة يسمونها « الطريق Tao » ، وهي أقرب ما تكون إلى ما يسميه الرواقيون « الطبيعة » ، التي يجب أن تنسجم معها كل الأشياء ، في السماء وعلى الأرض ، والتي تقاربها وتماثلها الطبيعة البشرية . ولذلك تحسب معرفة « الطريق » Tao أسماً أنواع المعرفة ، والسير على مقتضاها أرفع أنواع الحكمة - وإذا عدنا

(١) توفي كنفوشيوس سن ٤٧٨ ق . م . وتوفي منسيوس سنة ٢٨٩ ق . م .

إلى الآداب الصينية القديمة ، نجد « القواعد » الدينية والاجتماعية في التقاليد الصينية بمثابة ارادة « السماء » . والسماء هي الإسم الذى يطلق على « القوة العليا الأسمى » ، التى تضبط شئون البشر ، وهى قادرة على كل شيء ، عالمة بكل شيء . وكأنما لهذه « القواعد » المتأصلة فى السماء ، أصداء على الأرض ، وهى تنطبق على الخلائق الروحية . وقد كان مبدأ Tao هو الفكرة المسيطرة على نظام « التاوزمية Taoism » وهو النظام التقليدى المنافس لنظام كنفوشوس ، وإن تكن التاوزمية قد انحدرت فيما بعد ، حتى باتت تصوقاً يؤمن بحلول الآلهة ، لايبالى ، ولايميّز بين الأشياء ، ويقف موقفاً سليماً تجاه المثل الأخلاقية . وكان شأنه فى هذا شأن الفلاسفة العقلية الهندوسية ، التى لم يكن لها أثر فى المثل الأخلاقية . ثم انحدرت انحداراً آخر على مرّ الزمن ، فأمست عقيدة مسرفة فى تعدد الآلهة ، وممارسة فنون السحر للوقاية من الشياطين ، وهى فى هذا المجال ، قد تشابكت أيديها مع أيدي الهندوسية ، وشاركتها مصيرها كما سنرى فيما بعد .

على أن هذا المبدأ ، أو هذه العقيدة ، لقي على يد كنفوشوس تطوراً مغايراً . وإننا لنجد أحياناً أقواله محوطة بالغموض والابهام ، ولكنها حافلة بالحكمة الناضجة العاقلة ، وهى تصور لنا فعلاً عقل رجل حكيم عظيم ، طيب القلب . وحسبنا أن نثبت هنا عبارة قالها عنه مؤرخ صينى فى القرن الثانى قبل الميلاد للدلالة على علو مكانة هذا الرجل ، قال :

« كثيرون هم الأمراء والأنبياء الذين شهدهم العالم على مسار التاريخ ، صعدوا إلى قمة المجد ، ثم صاروا نسياً منسياً ولكن كنفوشوس ، وهو عضو متواضع من الجماهير ، ذوى الملابس القطنية ، باق معنا وبيننا أجيالاً طوالاً . ويصح أن ننفته بأنه أفضل الرجال الالهيين . لقد أحب الفضائل الخالدة ، وعاش على مقتضاها : العدل ، والحق ، والصدق ، وضبط النفس ، والاشفاق ، والأمانة والشجاعة - ووضع فى مرتبة عليا من التوقير والإكرام واجبات الانسان نحو

والديه ونحو الملك . ان واجب الالباء للآباء هو النبع الذى تتدفق منه كل الفضائل الأخرى » .

على أن فكرته عن السلطة لم تكن سلطة مطلقة ، وألحَّ على أن يكون المبدأ الأدبى فى الحياة هو مبدأ التبادل . فواجب الطاعة يفترض حكومة عادلة . وقد عبّر عن مبدأ التبادل هذا بقوله : « مالا تريد أن يفعله الناس بك ، لاتفعله أنت بالآخرين » . وقد قال لاوتز : « جازوا الشر بالاشفاق » ، أما كنفوشيوس فقال : « جازوا الاشفاق بالإشفاق ، والأذى بالعدل ، هذا هو مبدأ التبادل » .

وكان كنفوشيوس محافظاً ، وقرن مثله العليا بالماضى على نسق أمجد التقاليد ، وجاهد جهاداً عنيفاً على قدر طاقته ، لاعادة المبادئ القديمة فى النظام والطاعة . وهو لم يعتنق فكرة سامية عن معاصريه ماعدا الحفنة القليلة ممن أسماهم « الأولاد الصغار » من أتباعه ومريديه . وفى أقواله لا يضع المبادئ السامية التى قد تصلح للعالم كله ، لأنه عُنِيَ فقط بشعبه وتقاليده .

وإذ وقد وجد نفسه فى عالم مضطرب تسوده الفوضى ، وتكثر فيه الأديان التى عجز عن أن يرى فيها عوناً وعضداً ، اتجه فى تفكيره إلى إحياء الآداب ، وتوطيد دعائم السلام على أسس التقاليد الصينية فى الواجبات والفروض .

وهو لم يتحدث قط عن الدين ، أى دين ، لكنه حاول أن يبتدع مبرراً إلهياً لكل آدابه ، التى تأصلت جذورها ، لا فى الضرورات الإنسانية ، بل فى النظم الإلهية .

أما تلميذه المتأخر - منسيوس - فقد تناول أفكار سلفه وراح يضيف عليها مسحة من الجدّة . وهو فى الحق واضع نظام فى الأخلاق والاقتصاد السياسى ،

ترنُّ أصداؤه رنيناً جديداً مستحدثاً ، ويبدو أكثر تعلقاً بالشئون الدنيوية من أستاذه ، ومع أنه أصرَّ على فكرة الخير الطبيعي في الإنسان ، إلا أنه يرى شبه صلة بين هذا الخير ، وبين مبدأ إلهي غامض كل الغموض .

وفضلاً عن المؤثرات والسلطان الذي أبدعه الفلاسفة الثلاثة الذين أشرنا اليهم فيما سبق ، فأننا واجدون في بلاد الصين مجموعة مبعثرة من العقائد التقليدية والممارسات ، لا يمكن وضعها تحت نظام معين . وتواجه بلاد الصين الآن مهام هائلة ضخمة للنهوض سياسياً وأخلاقياً وروحياً . أما الكنفوشية وهي مصدر نظامها التقليدي ، فهي مقترنة بنظام آخذ في الزوال بحيث لا يصلح أن يكون دعامة لبناء نظام جديد لهذه البلاد الشاسعة الأرجاء التي تتشاحن فيها التعاليم والنظريات .

من هو كنفوشيوس ؟

هو مفتاح الدين الصيني ، قد تمثلت في حياته وكتاباتاته وجهة النظر الصينية العادية في الحياة والدين . هو المثال الذي يحتذيه الرجل الصيني في أسى أوضاعه . وله في نفوس القوم مكانة التوقير والإحترام ، ويتخذونه نموذجهم الكامل .

ولد سنة ٥٥١ ق . م . وكان أبوه ضابطاً حربياً ممتازاً من سلالة عريقة ، توفي ولماً يبلغ ولده الثالثة من العمر ، وخلف أسرته في فقر . وقد انصرف الغلام كنفوشيوس منذ حداثة إلى الدرس والبحث ، وخصوصاً درس آداب القدماء . ولما بلغ أشده ، عيّن في وظيفة حكومية ، وأخذ يتقلب في المناصب بكفاية نادرة . وكان في خلال تلك السنوات يفكر تفكيراً عميقاً في أحوال بلاده ، ويكون فلسفته الاجتماعية والسياسة . وفي نهاية الأمر هجر وظيفته الحكومية وانقطع إلى وظيفة التعليم . فأقبل نفر من الشباب من كل رقاع وطنه وجلسوا عند

قدميه لينهلوا من معين حكمته . ولم يلبث طويلاً حتى ذاع صيته وعلا شأنه . وكان تلاميذه من العلماء المبرزين ، وقد نظروا إلى كنفوشيوس نظرة إكبار واحترام تكاد تفوق عبادة الأبطال الأفاضل . وفي هذا وحده دليل على علو كعبه في التعليم والحكمة . وبلغ صيته مسمع الملك والحاكم في « شو » ، فدعاه إلى مجلسه فلجى دعوته مغبوطاً لما كان للأسرة المالكة من الكرامة والحب في أعين الشعب . ويقال انه عند زيارته لعاصمة ملكه ، التقى بالفيلسوف « لاوتز » ، فنهزه هذا على اعتداده بنفسه ، ودعواه أن في طوقه إصلاح العالم بتعاليمه . وبعد أن قضى سنوات في تعليم تلاميذه ، والدرس والبحث ، وتأليف أسفار في الآداب القومية القديمة ، عينه أحد النبلاء ويدعى « لو » في وظيفة رئيس القضاة بالمدينة . ثم انتقل منها إلى رئيس الوزراء ، على أن يباح له تنفيذ آرائه في مقاطعة لو . ويقول تلاميذه انه أصاب في ذلك فوزاً ميبناً ، « فالجرائم اختفت . وكان الشيء إذا سقط في الطريق لا يلتقطه أحد . وصُنعت صناديق الموتى من نحانة عادية . وبطل تمييز القبور بإقامة المتاريس عليها . وحددت أسعار واحدة في الأسواق » . ولكن منافسيه أوقعوا بينه وبين الحاكم ، وراحوا يتزلقون إلى هذا الحاكم بتقديم الهدايا من نساء جميلات وعمائر ضخمة ، فحولوا عقله وفكره عن الأخذ بنصائح كنفوشيوس الحكيم ، فاضطر هذا إلى اعتزال وظيفته . ولم يوضع قط فيما بعد في موضع القوة والنفوذ . ومما يذكركه بالفخر أنه لم يسع إلى ذلك يوماً ، ولم يحد قيد أنملة عما اعتقده حقاً ليرضى الشعور العام ، فكسّر بقية حياته في تعليم تلاميذه ودراسته الآداب القديمة التي أكمل أسفارها قبيل أواخر حياته ، وخلفها تراثاً مذكوراً لبلاده . وتوفي سنة ٤٧٨ ق . م .

عبادة شنتاي

وقبل الخوض في نظم كنفوشيوس ، لاندحة لنا عن الرجوع أولاً إلى دين

بلاد الصين قبل عصره : كان دينهم قائماً على ثلاثة أوضاع : عبادة شنتاي الإله الأسى ، وعبادة الأسلاف ، وعبادة الأرواح . ففي عبادة « شنتاي » ترى مثلاً روحية سامية . وإلى القارىء بعض العبارات المقتبسة عن الصلوات التى كانوا يرفعونها إلى « شنتاي » ربهم فى فصل الصيف وفصل الشتاء ، حين كان يتقدم إليه الإمبراطور كرئيس كهنة نيابة عن الشعب :

« إليك أيها الصانع العظيم يتجه فكرى ... وأنا عبدك لست إلا قصبة مرضوضة ونبته هزيلة . قلبى قلب نملة حقيرة . ومع ذلك فقد نلت لديك شرفاً وحظوة إذ جعلتنى حاكماً لهذه الامبراطورية . وها أنا اعترف بجهلى وعى قلبى . وأخشى أن أكون غير أهل لهذه النعم الوافرة . فهبنى أن أراعى فى وقار الشرائع والأحكام ، باذلاً جهدى ، على الرغم من صغر شأنى ، لأن أقوم بواجبى بولاء وإخلاص . وعن بعد أتطلع إلى مقامك السماوى ، فتعال فى مركبتك الفاخرة إلى هذا المذبح . وها أنا خادمك أعفّر وجهى فى التراب متوقفاً جزيل نعمتك ... لترضى بأن تقبل تقدماتنا ، وترمقنا بعينيك حين نعبدك ، ياذا الصلاح غير المتناهى » .

وهذا الضرب من العبادة يرجع تاريخها إلى العصور الأولى فى التاريخ الصينى . فمنذ التاريخ كان وراء جميع الممارسات والإجراءات الدينية التى مارسها الصينيون ، تلك العقيدة العظمى عن إله سام عظيم ، عقيدة أحيطت فى بعض الأحيان بسجف من الغموض والإبهام ، ولم تظهر ثمارها فى الحياة القومية ولسكنها لم تبرح قط عن الأذهان . ويطلق على « شنتاي » هذا (أو الإله المتعالى) فى مصطلحات الآداب القديمة لقب « تيان » أو السماء . وهذا هو اللقب الذى شغف به كنفوشيوس نفسه ، وجرى على التحدث به كثيراً . وخليق بنا أن نغير التفاتاً إلى طريقة الخطاب التى جرى عليها

كنفوشيوس لإله تنقصه عناصر الشخصية . ولعل نفوذه هو صاحب الفضل في بقاء فكرة الإله العليّ المتسامى مجرداً عن الشخصية .

وكان للامبراطور وحده حق عبادة شنغتاى — نائباً عن شعبه — فأدّى هذا أيضاً بطبيعة الحال إلى إبعاد فكرة الإلهية السامية عن محيط العبادة العملية .

عبادة الأرواح

لم تغب عبادة الأرواح قط عن بلاد الصين ، ولم تفصل أبداً عن أسمى ما فيها من تعبد . وإلى جانب عبادة الامبراطور للاله شنغتاى ، ترى لوحات تمثل الامبراطرة السابقتين ، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح والرعود ، موضوعة إلى جانب لوحة الاله العظيم ، وفي مقام منخفض عنها . وأن في قبول آلهة أخرى على هذا النحو ، ولو كانت خاضعة للاله الأسمى وأقل منه شأنًا ، لانحداراً إلى الوثنية . والواقع أن الكنفوشية منذ أن توفى زعيمها مالت إلى ضروب شتى من الوثنية ، ولو أنها في الظاهر وبالإسم فقط تعيب الوثنية وتنفيها . وإلى جانب الأرواح التي ذكرنا ، ظهر عدد غفير من الآلهة ذكوراً وإناثاً ، ومجموعة أخرى من مبتكرات وأفانين عامة الشعب .

عبادة الأسلاف .

وأهم من عبادة الأرواح عبادة الأسلاف . يقول كثيرون ان هذا هو الدين الحقيقي لشعب الصين . ويرجع تاريخه إلى العصور الخوالى ، وما زال شائعاً مألوفاً حتى هذا العصر . وليس يحرص الصينى على شيء حرصه على هذه العبادة ، فأنت قد يُباح لك أن توجه الملام إلى أى شيء في الصين . أما أن تمسَّ عبادة الأسلاف بسوء ، فهذا ما لا يرضاه الصينى ويصدُّك عنه في جفاء . والأرجح أن هذه العبادة بدأت أولاً ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة ، ثم استحالت إلى عبادة

الأبطال الحكماء من رجال الشعب . وأخذت العادة تنتشر بين القبائل والأسر تغذوها روابط الأسرة في بلاد الصين ، وهى قوية بطبيعتها في تلك البلاد ، حتى أصبح كل الأسلاف موضع التوقير والعبادة من الجميع على السواء .

واللوحة المستعملة في عبادة الأسلاف هى عادة « لوحة صغيرة من الخشب يبلغ علوها ثمانى بوصات وعرضها بضع بوصات يُنقش على وجهها اسم الشخص الذى تمثله » . وتحفظ هذه اللوحة في دار الأسرة مدى حياة جيل أو اثنين من أجيال الأحياء عقب انتقال المتوفى ، ثم تنقل بعد ذلك إلى هيكل أسلاف القبيلة أو الأسرة . ومن حين إلى آخر تُقدم إلى هذه اللوحة التقدّمات ، وخصوصاً في عيد ميلاد المتوفى أو يوم ذكر موته من كل سنة . ويقول الجيل النابت في معرض الحديث عن المتوفين : « أبائنا وأمهاتنا » أو « أجدادنا وجداننا » . ولهذا النظام أثر بارز في تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد بحيث يعسر عليه جداً الخروج على التقاليد والعادات الرعمية . وإنه ليصعب على المرء أن يدرك المدى الذى يذهب اليه الصينى في عبادة أرواح أسلافه وما تنطوى عليه تلك العبادة من عطف وولاء . وفى أغلب الأحيان تتمزج هذه العبادة بكثير من العطف والحب الخالص للمتوفين ، وفى أحيان يخاطبها الخوف مما تفعله تلك الأرواح لو لم يعبدها اللاحقون ، وفى أحيان أخرى ليست إلا مجرد طقوس وممارسات وضعية جرى عليها العرف والعادة .

هذه هى الخيوط الثلاثة التى يتكون منها نسيج الدين في بلاد الصين : عبادة شغنتاي ، وعبادة الأسلاف ، وعبادة الأرواح .

العلاقات الخمس .

يقال أن كلمة واحدة — يشار إليها فى اللغة الصينية بحرف واحد — هى التى تلخص كل تعاليم كنفوشوس ، وهى لفظة « التبادل » ، إذ يقول ان

جوهر الحياة الصالحة ، للفرد وللأمة ، يقوم على حسن أداء الفرد لواجبه ورعايته للروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض . وعندهم علاقات رئيسية خمس : علاقة الأمير بالرعية ، وعلاقة الأب بالابن ، وعلاقة الأخ الأكبر بأخيه الأصغر ، وعلاقة الزوج بزوجه ، وعلاقة الصديق بصديقه . فإن روعيت كل هذه العلاقات حسنُ حال الدولة .

التقوى البنوية

على أنهم يعلّقون أهمية كبرى على الرابطة البنوية ، وهى فى بلاد الصين أشد التقوى الأدبية ، فإن الرجل قد يذبح ابنه ولا يعتبر فى فعلته إلا متطرفاً فى استخدام الحقوق الأبوية . أما إذا قتل الابن أباه ، فهذه جريمة فظيعة يعاقب عليها القانون بأقصى صنوف التعذيب . ويقال بالإجماع ان التشدد فى رعاية هذه الرابطة كان خير البلاد ، إنما هذه الفضيلة فى نظرنا ذات ناحية واحدة ، وليس ما يقابلها فى واجبات الآباء نحو أبنائهم . وقد يفرطون فى رعاية هذه الحقوق إفراطاً سخيماً ، مثال ذلك ما روى عن أحدهم من أنه « كان يخشى أن يدرك أبواه حقيقة تقدمه فى الأيام وبلوغه سن السبعين ، فيرهباً شيخوخته . لذلك كان يرتدى ثياب الأطفال ، ويطفر أمام والديه كصبي صغير » .

الدولة

وقد دارت تعاليم كنفوشيوس الأدبية فى أساسها حول الدولة وعلاقة أبنائها بها ، والصفات التى ينبغى أن تتوافر فى مليكها وحاكمها . فإذا صلح حال الإمبراطور صلح حال الدولة والشعب . ولقد استمد مبادئه الأدبية ومُوحياته من تاريخ السلف . وأراد أن يوطد حياة الأمة على تلك المبادئ التى أثبت التاريخ الماضى صلاحيتها . أما عن ضمير الفرد وعلاقته بالله ، فلم يقل إلا القليل .

وكان اهتمام كنفوشيوس متجهاً في أصوله إلى علاقة الإنسان بالإنسان .
أما عن العلاقة بين الله والإنسان فالظاهر أنه لم يعبأ بها كثيراً . وسلم بعبادة
الإله « شفتاي » القديمة ، وكذا عبادة الأسلاف ، وأباح شيئاً من عبادة
الأرواح لغرض الثقافة الرسمية العامة . ولكن عقله الكبير المفكر أمتهن هذه
العبادة جملة واحدة ، وخيّل إليه أن عبادة القوى غير المنظورة من الأمور غير
الضرورية إذا قيست بمهام الإنسان الأخرى . ومن أقواله : « لم نقدر حتى
الآن أن نؤدى واجباتنا نحو الإنسان ، فكيف نؤديها نحو الأرواح ؟ » أما
عن الحياة بعد الموت فأبى أن يصرح بشيء . والحق أننا مسوقون إلى الإعجاب
بإخلاص ذلك الرجل ونزاهة عقله ، لأنه يأبى الخوض في أمور لا يديرها .
وبينا نأسف لأن آدابه « لم تتأثر بالعاطفة » ، فأننا نقرّ أن موقفه « اللأدرى »
كان بمثابة احتجاج ضد عبادة الأرواح الفاسدة ، ولعب دوراً نافعاً في تاريخ
أتمته الدينى .

تعاليمه الادبية

ألحنا من قبل إلى بعض تعاليمه جملة . ولقد بلغ كنفوشيوس في تعاليمه مستوى
أخلاقياً رفيعاً كان له أبلغ الأثر في حياة بلاد الصين وإلى القارىء بعض أقواله :
« أليس رجلاً فاضلاً ذاك الذى لا يشعر بانزعاج ، حين يفضّ الناس
الطرف عنه ؟ » .

« اجملوا الأمانة والاخلاص من المبادئ الأولى » .

« إن الرجل الفاضل في كل شيء يحسب البرّ من الضرورات » .

وقد وضع القاعدة الذهبية في صيغة السلب :

« لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يُفعل بك » .

وحين سمع أن « لاوتز » قال : « جازوا الشر بالخير » — حار في أمره

وقال : « جازوا الشر بالخير ! إذا بماذا نجازى الخير ؟ جازوا الأذى بالعدل ،
والخير بالخير » . وربما كان هذا نقصاً أدبياً في نظامه . فإن فضائله هي فضائل
الإنسان الطبيعي في أحسن أوضاعه . أما أن نجازى الشر بالخير ، وهو شأن
الله معنا ، فظنّه مقياساً أدبياً فوق طاقته .

ثم أن أخلاقياته ضعيفة أيضاً من ناحية الخطية البشرية . فهو يؤمن أن
طبيعة الانسان في أصلها صالحة ، ولو اتبع مبادئها قادت به إلى الصلاح ، أما الخطأ
فيعمزوه إلى الجهل . وهو لم يدرك صراع بولس مع الجسد الذي تمثل في صرخات
الحجر بين من البشر مدى الأجيال : « الذي لا أريده هذا أفعله » . والظاهر
أن زميله الحكيم الصيني الآخر « لا وتز » تعمق إلى أبعد من هذا في الحياة
البشرية ، ولو أنه لم يكن ذا أثر كبير في بلاده .

اهمية كتب الادب القديمة

ولقد أفرز كنفوشيوس شطراً كبيراً من حياته في تنقيح كتب الأدب
الصينية القديمة « الكلاسيكيات » . وبعد موته صُنِّفت المؤلفات عنه وعن
تعاليمه . وليس هيناً علينا أن نقدّر خطورة هذه الكتب في تاريخ الصين .
فإن قلنا أنها كتب الكنفوشية المقدسة كان قولنا حقاً ، ولكنه بعض الحق
ليس إلا .

ويحول ضيق المقام هنا دون التبسط في وصف التعليم الصيني ، على أن
الشعب الصيني يبرز كل شعوب الأرض في شعوره بضرورة التعليم ، وفي تكريمه
العلم والمعلم . والعامة لا تعرف كثيراً عن الكتب ، ولكن تعرف منها أقوالاً
مأثورة جرت مجرى الأمثال ، ويعلمون أنه لو أتيح لولد أن ينبغ في علوم الأدب
القديمة ، فإن كل المناصب العليا في البلاد قد تسعى إليه . وقد أدّت الإصلاحات

التعليمية الحديثة إلى تغيير الموقف بالنسبة لكتب الأدب القديمة ، ولكنها لم تبدل موقف الصيني حيال التعلم .

مكانة المرأة

وأما مكانة المرأة في الصين فقد كانت دائماً منحطة وضعية . وفي قصيدة شعرية قديمة يُروى عن بطل وُلد له بنون فاضطجعوا على وسائل ناعمة . . . وولد له بنات فنمنَ على الأرض الوعرة ! وخلقت المرأة في عرفهم ، وهى من الجنس الأدنى ، للأعمال الحقيمة الدنيئة . وما عادة حزم الأرجل بأخذية من حديد منذ الصغر - التى أخذت تزول الآن بفضل المؤثرات الغربية - إلا أثر من آثار امتنانهم للمرأة . وكنفوشيوس لم يعمل شيئاً لرفع المستوى الصينى ، لأنه فى نواح كثيرة أثر البقاء فى المستوى العادى المألوف .

التاوزمية

قلنا ان الكنفوشية هى أكثر الأديان ذبوعاً فى بلاد الصين . وهناك - دين آخر يدعى «التاوزمية» نسبة إلى مؤسسه «لاوتز» وقد ألحنا إليه من قبل . ويذكرنا هذا ببوذا من بعض الوجوه . فقد ولد حوالى سنة ٦٠٤ ق.م. فكأنه كان معاصراً لکنفوشيوس وأكبر منه سناً . كان «لاوتز» فيلسوفاً ، بينما كان «کنفوشيوس» سياسياً ومصلحاً أدبياً ، وأودع نظامه وتعاليمه فى سفر خاص . وكان فى دين «لاوتز» هذا فكرة أساسية عبّر عنها بكلمة (Tao) - كما قلنا - وهى كلمة ذهب العلماء مذاهب شتى فى ترجمتها . وإنا لنذكر أن الفكر اليونانى قبل عصر المسيح نشط للتعبير عن المبدأ المسيطر فى الكون فقال بعضهم انه «العقل» ، وذهب آخرون إلى أنه «الطبيعة» . ثم نشط اليهود أيضاً فى ذلك العصر للتعبير عن مظهر الله فى التاريخ فقالوا هو «الحكمة» ، بينما اصطلاح اليونان بكلمة (Logos) للافصاح عن المبدأ النهائى الكلى لكل الأشياء .

وقد شغف « لاوتز » الذى عاش قبل هؤلاء وأولئك بنفس هذا التفكير النظرى حول المبدأ الميطر فى الكون الذى أطلق عليه (Tao) .

ولقد ترجم العلماء هذه الكلمة الصينية فقالوا : العقل ، المبدأ ، الطريق ، الطبيعة - وهى تشبه « الحكمة Wisdom » العبرانية و « الكلمة Logo » اليونانية ، وإن اختلفت عنهما . وهى تعبر عن المبدأ فيما وراء عالم الطبيعة ، كما هو مُعلن فى الطبيعة وفى الجنس البشرى .

والظاهر أن المثل الأعلى فى تعاليمه هو أن يسمح الإنسان للطبيعة أن تعمل فى حياته كيفما تشاء ، فلا يركن إلى جهاد إرادته بلا جدوى . وكان « لاوتز » رجلاً بعيد النظر ، ثاقب الرأى ، ويقال عنه انه حين التقى يكنفوشيوس ألح له إلى خطأ مبادئه الأساسية التى تزعم أن القانون كفيل بإصلاح الانسان ، وقال له فى عبارة صينية جرت مجرى الأمثال : إن الانسان لا يفعل الصلاح لأن « أعماق قلبه لا يستقر فيها شىء من الصلاح » . وكأنه يردد هنا ما جاء فى إنجيل يوحنا « ينبغى أن تولدوا ثانية » . ومن تعاليمه أن يجازى الشرُّ بالخير . وهذا عكس ما دعا إليه يكنفوشيوس . ومع ذلك فإن « لاوتز » هذالم يؤثر إلا أثراً ضئيلاً فى بلاد الصين . وذلك لأن رسالته الوحيدة كانت أن يهجر الناس العالم ، بينما انصرف يكنفوشيوس فى دعواه إلى إصلاح المجتمع .

وليس للتأوزمية شىء من هذا المعنى فى هذا العصر إلا فى عقول نفر قليل من الكهنة والعلماء . ولم تعد اليوم إلا مزيجاً من الخرافات ، تدور حول قوى الطبيعة وتكريمها عند وضع أسس المنازل أو حفر القبور . واختلطت بها فى سهولة مناجاة الأرواح ، وقراءة الكفوف ، والسحر والتعاويذ . ولعل إباء الكنفوشية وقطعها كل علاقة بمثل هذه المظاهر ، هو الذى حل هذه الخرافات الوثنية على الالتجاء إلى الديانة التأوزمية . لقد تسالت إليها الخرافات بسبب ما

انطوت عليه من أسرار غامضة ومعان ملتبسة . وربما كان في هذا الغموض قوتها التي تفتقر إليها الكسفوشية ، ولكنها كانت أيضاً سبب ضعفها .

البوذية الصينية

وفدت البوذية إلى بلاد الصين حوالي بدء العصر المسيحي على يد المرسلين الهنود ، وبفضل الحجاج الصينيين الذين ذهبوا إلى الهند وعادوا إليها حاملين الرسالة البوذية . فلما استوطنت هناك طرأت عليها بعض التغييرات . فبوذية الهند لا إله لها . ولكنها حين انتقلت إلى الصين مالت إلى الاعتقاد بفكرة كائن مطلق يتمثل في شخصيات مختلفة ، بوذا واحد منها . وأشهر تلك الشخصيات في بلاد الصين من يدعوها « كوان ين » ، وهي عندهم إلهة الرحمة يرفعون إليها الابتهالات في المعابد البوذية .

ثم زالت فكرة « النرفانا » في البوذية الصينية ، وحلت محلها فكرة الفردوس المادية ، وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الإلهية . والبوذي الصيني لا يفقه شيئاً من معنى « النرفانا » الهندية ، ولكنه يعتقد أنه سيذهب بعد الموت إلى فردوس في الغرب .

والصلوات ، أو على الأقل الابتهالات ، ذائعة في البوذية الصينية مع أنه لا وجود لها في البوذية الهندية التي شرعها بوذا نفسه . وفي بعض رقاع الصين قد أدخلت عجالات الصلاة الآلية التي يستعملها أهالي التيببت .

ثم إن النظام المقدس الذي وضعه بوذا لجماعة الشحاذين الزاهدين قد استحال في بلاد الصين إلى جيش عرمرم من النساء والناسكات ، معظمهم في أحط درجات الجهل والغباء .

فكان البوذية عند انتقالها إلى بلاد الصين قد أمست مادية ، وابتعدت عن روح مؤسسها ، ولكنها استمسكت بطقوس ورسوم جافة . ومع هذا كله فإنه

من الخطأ أن نضعها مثلاً في مرتبة واحدة مع التاوزمية ، ذلك لأنها فعلت كثيراً في إحياء فكرة الخلاص في بلاد الصين . وبينما عملت الكنفوشية لحل الناس على الاكتفاء بفضائلهم الذاتية ، فإن البوذية قد رسمت أمامهم صورة باهتة لفكرة الخلاص (ليس الخلاص من الخطية ، بل الخلاص من العالم المتألم بسبب خطيته) ، عن طريق تضحية اختيارية من جانب قوة أخرى .

خلاصة الديانة الصينية

والآن لفلخص ديانة الصينيين : منذ التاريخ القديم، سادت فيها عبادة الإله « شنفتاي » ، وعبادة الأسلاف أيضاً . ثم جاء كنفوشوس فأقام ، بالأسفار المقدسة التي كتبها ، وبتعاليمه وحياته الشخصية وأخلاقه ، مجموعة من التقاليد مازالت باقية حتى اليوم . فقبل العبادة القائمة في عصره ، ومزج فيها تعاليم أدبية اجتماعية اقترنت باسمه ، ترمى كلها إلى سلام الأمة ورفاهيتها . وتضيف البوذية إلى هذا كله شيئاً كثيراً من السحر والشعوذة والخرافات متميزة بشيء من الدين الحقيقي . أما التاوزمية فهي — ما خلا الفلسفة التي لا يفقهها إلا نفر قليل من العلماء — وضع من أحط الأوضاع للسحر والفسطة والمحاكة . وهذه الأديان الثلاثة مشتبكة مضمفورة معاً وكلها رسمية ، حتى البوذية والتاوزمية معترف بها . ومن دلائل هذا الخلط الديني الغريب أنه على الرغم من الاعتراف الرسمي بالتاوزمية والبوذية ، تجد الكنفوشية تذيع مرة كل أسبوعين في كل هيكل كنفوشى نداء تنعى فيه البوذية والتاوزمية حاسبة إياها عبادة وثنية ، وبعد هذا كله يصح القول ان الصينى هو فى الوقت الواحد كنفوشى وبوذى ، وتاوزمى .

ويستند التفكير الكنفوشى إلى التعليم ، وإلى الحكومة الصالحة العادلة ، والعلاقة الاجتماعية المنظمة ، لترقية النفس البشرية ، وهو فى هذا يجارى إلى

حد كبير التفكير الغربى الحديث . وليس فى الكتب الصينية شىء عن تقدير ضعف الإنسان الأدبى ، وما فيه من غريزة الخطأ ، أو الاعتراف بحقيقة الإرادة الشريرة ، مما تفرضه علينا فرضاً وجهة النظر العملية فى الحياة . لذلك خلت من فكرة إمكان استمداد المعونة من إله ، أو قوة للتجديد والإحياء من مصدر خارق للطبيعة .

على أنه يتضح لنا جلياً لدى إعمال الفكرة أن بقاء القيم السامية البشرية يفتقر دائماً إلى مرساة تثبت فى إلهها . أما وجهة النظر التى تذهب إلى أن الطبيعة البشرية صالحة بالضرورة وتستبعد الله كلية ، فهذه أعجز من أن ترفع الإنسان فوق المستوى الطبيعى .

الصين الحديثة

بعد ثورة سنة ١٩١١ عاشت الكنفوشية أزمت عنيقة ونكسات مربعة فى المحاولات التى بذلها الشعب لإدراك مصيره ومستقبله . وبعد أن أدمجت الجمهورية الحرية الدينية فى مواد دستورها ، فشل العلماء الذين كونوا أنفسهم فى « الجمعية الكنفوشية » فى حمل الحكومة على الاعتراف بالكنفوشية ديناً رسمياً . ومع أن « الكومنتاج » أى الحزب الوطنى لم يتقيد فى دعايته السياسية بأية معتقدات دينية ، إلا أنه اتخذ الفضائل الكنفوشية شعاراً له : وهى الولاء ، التقوى البنوية ، الإحسان ، الرحمة ، الأمانة والصدق ، العدل والإنصاف ، السلام . ولما أنشأ « شيانغ كاي شيك ^(١) » فى سنة ١٩٣٤ « حركة الحياة الجديدة » صبغها بلون كنفوشى (وحتى بعد أن اعتنق المسيحية ، كان ينظر إلى مشا كل الصين بعين كنفوشية) . وقد أعلن أن الحركة تسند أربعة مبادئ

(١) وهو الآن رئيس جمهورية الصين الوطنية فى فرموزا .

وعلى هذا الأساس يكون كنفوشيوس وغيره من الحكماء والفلاسفة والمتصوفين — مثاليين سفسطائيين من أنصار الفلسفة العقلية ، الذين حاولوا الإبقاء على الامتيازات الاستقرائية . أما « ماوتى » (وهو الزعيم الحالى) فهو يمثل مصالح الأحرار والطبقات الناهضة . وفى هذا النزاع العنيف الذى يقترن أحياناً بالعنف وسفك الدماء ، تتحول الصين إلى المادية المتطرفة ، وإلى النظام الشيوعى الذى يحاول القضاء على الثقافات الدينية القديمة فى تلك البلاد .

وأما البوذية فينظر إليها النظام الجديد كأنها « دين غريب أجنبى » ، يعتقد نظريات خاطئة عن تناسخ الأرواح ، ويولد فى أذهان الناس خيالات مؤداها أنهم مستطيعون بمجهودهم الخاصة أن يطلقوا أنفسهم من عالم الحقائق المادية إلى عالم روحى غامض محوط بالسجف والأسرار ، حيث ينعمون بالغبطة الخالدة . وقد « خنثت » البوذية — هكذا يقولون — إرادة الشعب ، وسلبتها قوتها على التخلص من النظام الإقطاعى القائم .

على أن بيانات الحكومة الرسمية تقول ان بذور المادية والإلحاد كانت قد غرست فى تربة الصين فى القرن السادس عشر وما بعده ، وأخذت تبشير الاستنارة والتطور الفكرى تلوح فى الأفق منذ عهد بعيد ، وهى التى مهدت الطريق للحكمة التى تنادى بها الآن فى تعاليم « ماوتسى تنج » الزعيم الشيوعى .

بقى علينا كلمة أخيرة هل العنصر الكنفوشى فى الثقافة الصينية ، يملك من أسلحة الثورة والتأصل والعمق ما يعينه على التصدى للتيار الشيوعى والرغبة فى الانقلاب الشامل ، وخلق ثقافة صينية جديدة تأتلف مع ماضى تلك البلاد ، وتخلق حلاً وسطاً ، أم أن الشيوعية تكتسح أمامها كل التراث الثقافى والدينى .

هذا ما سيكشف عنه المستقبل .

نور معرفة الله

هل للمسيحية رسالة إلى شعب الصين الذى يتحسس طريقه الآن ؟ انها تقدم لذلك الشعب رسالة الله الواحد ، الآب ، المعلن فى يسوع المسيح . ثم هى تهيب له أيضاً مستوى أدبياً سامياً ، أرفع من مستوى كنفوشيوس ، وأرقى من مستوى بوذا ، وأكثر فى تأثيره العملى من الفيلسوف لاوتز - مستوى مشتقاً ، لا من فقه الحكماء والفلاسفة ، بل من صفات يسوع الذى تلامت أقواله مع حياته . وحين يفشل البشر أمام سمو هذا المطلب ، تجدى عليهم المسيحية خلاصاً لا نصحاً ، وقوة من الله تعين على الحياة الصالحة . ثم تضع المرأة فى مكانها المكرومة اللاتقة بها ، وتلقى نوراً على الحياة بعد الموت . ومن الأسف أن الصين لم تنعم قط برجاء حتى فى الخلود ، فإن البوذية والتاوزمية لم تعطيا إلا فكرة غامضة مبهمة عن الحياة المستقبلية ، أما الكنفوشية فقد صمتت عندها ولم تنطق شيئاً . ولو أن عبادة الأسلاف تنطوى على شيء من المعنى فى هذه العقيدة ، إلا أن المسألة كلها مضطربة غامضة . والشيوعية التى تتحدى الآن كل هذه المبادئ لا تؤمن بالخلود ، لأن أسامها متأصل فى هذه الحياة المادية الزائلة . أما الرجاء المسيحى فى الخلود فصاف رائق لا غموض ولا التواء فيه .

الشنتوية

والأديان الأخرى في بلاد اليابان

الدين القومى فى اليابان ليس فى جوهره وأصله مجموعة من العقائد المنظمة ، إنما هو ولاء وإخلاص لطرق مألوفة فى الحياة ، وأما كن مألوفة فى البلاد . والدين فى نظر عامة الشعب ، إنما هو وطنية قبل كل شىء ، وطنية تذكيها محبة عميقة للوطن . وقد افترضوا فى غير تساؤل أن أفضل وسيلة للتعبير عن هذه المحبة هى فعل ما يأمرهم به الأمبراطور . وقد كان هذا حافزاً قوياً فى الحياة . وحول الأمبراطور والوطن نسجوا خيوطاً قوية من الولاء العاطفى ، ولم يجدوا أية صعوبة فى تقديم الإخلاص كله لما كانوا يسمونه « النظام القومى » أو « التضامن الوطنى » .

أجل ، أحب اليابانيون بلادهم بكل ما فيها ، تلاها وبجيراتها ، جبالها وأنهارها ، بحيث شقّ عليهم دائماً أن يفترقوا عنها أو يهجروها ، وحسبوا معابدهم ومزاراتهم ومشاهد الطبيعة ضرورة لا غنى عنها للتمتع بالحياة الكاملة . وفى وسط هذه المشاهد عاش آباؤهم وماتوا ، وفيها سكنت أسرهم تطلّ عليها أرواح الأسلاف من وراء حقب التاريخ . فضلاعن هذا كانت بلادهم ملكاً لهم عبر القرون ، فلم يقترب من شواطئهم قبل سنة ١٩٤٥ أحد من الغزاة الفاصيين . ولم يخطر على بالهم أبداً أن أحداً غيرهم يطيب له المقام بين ظهرانيهم .

ولم يكن هذا كله عن عقيدة ، بل كان عن إحساس عاطفى امتزج بعظامهم ودمائهم ، حتى لقد حسبه بعض الباحثين غريزة من الفرائز الدفينة فى أعماق النفس ، الغريزة التى تعبر عن ذاتها فى الأساطير القديمة . وهكذا كان الحال

في اليابان ، فقد بدت محبتهم للوطن بالاسطورة ، ثم تطورت فيما بعد إلى فكرة قومية واعية .

وإنه لشيئٌ حقاً أن نقف هنيئة لنرى كيف اعتقد اليابانيون منذ القديم أن بلادهم « إلهية » ، صنعتها الآلهة ، وأسبغت عليها فضلاً لم تُنعم به على غيرها من بلاد العالم .

اسطورة شمنتو :

لفظة « شمنتو » تعنى « طريق الآلهة » ، وتعبّر عن دين اليابان في القديم . وقد دوّن التاريخ اسطورة خيالية شيقة عن أصل اليابان وشعبها والأسرة المالكة فيها في مؤلف يرجع تاريخه إلى القرن الثامن بعد الميلاد . تقول الاسطورة : إن الجزر اليابانية من صنع الآلهة . فبعد الفوضى التي سادت الكون ، وفي سير الحوادث التي فصلت السماء عن الماء ، ظهرت عدة آلهة في الضباب ثم اختفت ، حتى ظهر في المشهد السكونى إلهان - ذكر وانثى - وهما اللذان خلقا الجزر اليابانية وسكانها . واسم الذكر (Izangi) واسم الأنثى (Izanami) . وقد تلقيا الأوامر من شركائهما في السماء لصنع الجزر اليابانية . ثم هبطا من السماء فوق قوس قزح ، ولما بلغا المنطقة السفلى ، غرس الإله الذكّر رمحه المرصع بالجواهر في الحماة المملّحة ، وحركه حتى صارت لزجة ، ثم سحب الرمح بكمية من الطين فصنع منها إحدى الجزر اليابانية . ثم استقر الإله وزوجته على الجزيرة ، وولد من راحهما الجزر الثماني الأخرى التي تكوّن بلاد اليابان . وبعد ذلك ولد باكورة سكان هذه الجزر وهم خمسة وثلاثون إلهاً من الآلهة الصغار ، ولكن آخرهم أحرق أمه عند ولادته ، فاغتاط Izangi الوالد ، وضربه بالسيف ضربات خلقت آلهة أخرى تطير في الفضاء على حال من الفوضى .

والذى حدث بعد ذلك - في إيجاز - أن هذا الإله خلق أعظم آلهة اليابان

وهو Amaterasu إلهة الشمس ، وكانت هذه أكرم المخلوقات جميعاً . ثم خلق بعد ذلك إلهة القمر من عينه ، وبعدها إله العاصفة من منخرينه

وبعد مضي زمنٍ أُطْلَت إلهة الشمس من السماء ، واضطربت للفوضى الضارية أطنابها في البلاد ، وكان إله العاصفة هو الحاكم عايتها ، فأقصته وأرسلت حفيدها ليحكم الجزر بالنيابة عنها ، ومن هذا الحفيد تسلسلت أمبراطرة اليابان . ولذلك سُمِّي الأمبراطور ، إلى ما قبل هزيمة اليابان ابن السماء ، الذي انحدر من إلهة الشمس ، وهو يحكم شعباً من سلالة الآلهة أيضاً .

وقد حفلت اليابان قديماً بعدد هائل من الآلهة ، ذكوراً وإناثاً ، وكان من عادة القوم أن يروا إليها في كل قوة ، وفي كل شيء مادي ، حتى سُمِّيت بلادهم «أرض الآلهة» . وقد قدَّر العارفون أن عدد آلهتهم بلغ ألوفاً وربوات ، على أن إلهة الشمس احتلت مكانة الكرامة والصدارة في البانتيون ، وأقيمت تسكريماً لها أروع المعابد والهيكل .

اصل اليابان تاريخيا واجتماعيا :

واذ نترك الاساطير نرانا أمام علم سلالات الاجناس البشرية الذي يثبت أن اليابانيين شعب خليط ، بعضه كوري ، وبعضه منغولي ، وبعضه من جزر الملايو . وقد وفد الاسلاف من جزر الباسفيك الجنوبية ، وطردها السكان الأصليون شمالاً واستوطنوا البلاد . وكانوا يعيشون في قبائل متفرقة مستقلة بعضها عن بعض ، ولكل قبيلة تقاليدها وعبادتها شأن الجماعات البدائية الفطرية . فكان الشعب مثلاً يعبد كرسول الآلهة في بعض القبائل ، وكان الحاربون وحمل السلاح أرقى الناس بينهم . على أنه حتى في هذه الحالة البدائية عشق اليابانيون النظافة في كل شيء ، التي بقيت حتى اليوم من ابرز مميزاتهم القومية ، وكانوا يعتقدون أن لمس الميت ينجس الأحياء — كما آمن اليهود في

العهد القديم . ولذلك كانوا يقيمون الجنائز توأماً بعد الوفاة . وبعد انقضاء أيام الحداد العشرة ، كان أهل الميت يغتسلون للتطهير . وفي أحيان كثيرة كان الأحياء يهجرون الدار البدائية التي كان يسكنها المتوفى ويبنون غيرها . وقد خلقت تلك العادة مصاعب أمام الامبراطورة في العهود الأولى ، وذلك لأنه كان يتحتم على الامبراطور أن يترك العاصمة القديمة ، ويبني غيرها في مكان آخر من البلاد . ومعنى هذا أن ترتبك الحكومة عند كل حفلة جلوس على العرش جديدة ، وتنتقل من مكانها ، ومعها المكاتب ، والموظفون ، وفريق كبير من أبناء الشعب . ولم يكن يسيراً أن يكيف القوم حياتهم في مقام جديد مرات متواليات كلما جلس امبراطور على العرش .

شعب اليابان :

اليابان من شعوب الأرض الفتية . فلا يبدأ تاريخها المعروف (ان غرضنا الطرف عن الأساطير) قبل القرن الخامس بعد المسيح . وأقدم الوثائق اليابانية التي يعتمد عليها المؤرخون لا تبعد الى أكثر من القرن الثامن كما أسلفنا . وحضارتها مشتقة في أصولها من حضارة الصين . وانه لمن غرائب التاريخ أن نرى اليابان ، وقد اقتبست حضارتها عن الصين ، سابقتها في هذا الميدان ، تخطو في السنوات المتأخرة خطى واسعة ، وتسبق جارتها في الرقي المادى ، وكانت قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قوة عالمية يخشى بأسها كبريات الدول .

وحين نصف اليابان كأمة فتية ناهضة حتى بعد هزيمتها ، فالذى يدور في أذهاننا ، ليس حادثة عهدها نسبياً في التاريخ ، إنما هو تلك السرعة الفائقة التي ظفرت بها إلى مقام الزعامة في الشؤون التجارية والحربية ، مما أعدها لأن تقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى في معداتها العصرية الحديثة . ولقد نشأت اليابان الحديثة سنة ١٨٦٨ ومنذ ذلك التاريخ استطاعت أن تقلب نظم التعليم

فيها ، وتقييمها على أحدث الأسس ، ثم تزج بنفسها في مضمار التجارة الغربية ، وتصبح إحدى الأمم الصناعية الكبرى في العالم ، وإن تكن لم تسلم من الأهوال التي تصحب النظم الصناعية عادة ، وخصوصاً في شعب شرقي حيث تضعف شوكة الحدود الأدبية . وفي تاريخها الحديث أثارت حروباً ضد روسيا والصين كان فيها الفوز حليفها . ثم تضافت إلى الخلفاء في الحرب العالمية الكبرى ، وأثارت حرباً أخرى ضد الصين . وفي الحرب العالمية الثانية هُزمت شرّاً هزيمة سلبتها قوتها الحربية . على أنها قد تصبح فيما بعد عاملاً كبيراً في سياسة الشرق الأقصى .

اديان اليابان .

في بلاد اليابان نجد مزيجاً غريباً من النظريات الدينية والأخلاقية . وقبل الحرب العالمية الثانية التي هزمت فيها اليابان ، لم تكن الأساطير الشنتوية التقليدية ذات معنى إلا بقدر ما فيها من معاني الوطنية للتطرفة والولاء المطلق للامبراطورية . ولم تكن تعكس أي أثر على الحياة والسلوك . على أن اليابان قد أبدت قدرة عجيبة على تقبُّل الآراء والعقائد الأجنبية . ففي القرن السادس الميلادي دخلت بوذية غريبة عن تعاليم بوذا ، قادمة من كوريا ، وصارت تدريجاً الدين الرسمي . وبعد ذلك صارت المسيحية منافساً خطراً للبوذية ، ولكنها طُردت واستؤصلت تقريباً في القرن السادس عشر .

ثم أعيدت الشنتوية ، على أنها لم تكن منافساً خطراً للبوذية ، إنما كانت الكنفوشية هي ذلك المنافس الخطر ، وقد قدمت من الصين بعد تعديلها وتعريبها مناهجها الصينية ، بحيث تخدم قضية الولاء للامبراطور بدون قيد ولا شرط . وقد ظلت مبادئ الهدوء والاستكانة البوذية ، ونزعة الآداب الكنفوشية ،

والمثل المسيحية في أوضاع غامضة ، تتنازع السيادة على العقلية اليابانية فترة طويلة من الزمن .

وفي اليابان ثلاثة أديان رئيسية — غير المسيحية — وواحد منها فقط أصيل فيها نشأ في تربتها. ولقد كان للكنفوشية الصينية أثر كبير في تكييف الأفكار اليابانية وآرائها الاخلاقية ، ولكن أثرها مقصور الآن على الطبقات المتعلمة . وليس لها اليوم كبير أثر في بلاد اليابان . أما الدين الأصيل في بلاد اليابان فهو الشنتوية Shintoism وهو نوع من الثقافة القديمة المشتقة من عصور الاساطير العريقة في القدم ، وهي اليوم الأداة المختارة للتعبير عن الروح القومية الحية في بلاد اليابان . وهناك أيضاً البوذية المأخوذة عن الهند ، وإن تكن قد اصطبغت بألوان ومميزات جعلتها بوذية يابانية ، أو بوذية شرقية على حد قولهم .

الشنتوية

ولنبداً أولاً بالشنتوية . هذا الاسم هو نطق ياباني للكلمة الصينية التي معناها « طريق الآلهة » . وهي دين لا ينسب إلى مؤسس معين خلافاً للبوذية والكنفوشية . ولعلها كانت في أدوارها الأولى ضرباً من ضروب عبادة الأرواح ، ثم اختفت مع تطور الدين تلك الخواص الفطرية التي ظهرت في الأدوار الأولى ، وإن يكن الكثير منها باقياً في الشعور الديني لرجل الكافة في اليابان . وما التعاويذ الخشبية أو الورقية التي تعلق عادة فوق أبواب المنازل ، وقطع القماش التي ترفرف فوق الآبار أو الأشجار المقدسة ، وحبال القش التي تتدلى فوق أبواب الهياكل — إلا آثار لعبادة الأرواح التي كان مفروضاً على الأهالي استرضاؤها ، والتي تلقىها اليابان الحديثة عن تاريخها القديم . وكذا نجد في الشنتوية عبادة الطبيعة ، وخصوصاً قوى الطبيعة المنتجة ، وهي من خصائص الأديان الفطرية الأولى . ففي اليابان توقير خاص للإلهة

الشمس أو كما يسمونها Amaterasu كما قلنا آنفا . ومن آلهتهم أيضاً Inari وهو إله الأرز الذي تكثر معابده في الأقاليم التي تنبت الأرز بكثرة في بلاد اليابان، ويطلقون لفظة Kami على كل إله أو شيء يسمو فوق الفرد ، كالسما مشلاً أو سلطان الحكومة .

توقير القبيلة :

وفي عناصر تطورات الشنتوية الأولى نرى خير تعليل لقوة سلطانها في هذا العصر . وبين تلك العناصر توقيرهم للسلف من القبائل أو زعماء الجماعات السالفة ، وقد كان هذا من المميزات البارزة في الشنتوية في عصورها الأولى ، وهناك فارق بين توقيرهم للسلف من القبائل ، وبين عبادة الأسلاف في بلاد الصين . ففي الأخيرة تتجه الفكرة إلى الكبار من شأن الأسرة أو الأب والأم والجدود ، وإحلالهم موضع التوقير والعبادة في بلاد الصين . أما في الشنتوية فالفكرة متجهة إلى الجماعة أو القبيلة . وعبادة الأسلاف الصينية ذائعة في بلاد اليابان ، ولكنها كنفوشية في أصولها ، ومكاملة لتوقير الياباني لقبيلته وأبطاله وأسلافه .

عبادة الميكادو :

وكان رجال قبيلة « يما تو » أشد الناس إحياء لتوقير السلف من القبائل ، وهم الذين صاروا سادة اليابان فيما بعد ، وهم بناء مجدها ورافعوا عظمته في تاريخها اللاحق . وكان زعيمهم ، المعروف بالميكادو ، مركز دينهم وعبادتهم . ثم زعموا أن الشمس - كما تقول الأساطير - تمت إليهم بصلة القربى ، ومنها تحدر الميكادو ، فحسبوه ممثلاً للشمس وآلهة السماء على الأرض . وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة في اليابان قبل إخضاع أسرة « يما تو » لها ، خير ممهد لهذه العقيدة الجديدة . وفعل رجال « يما تو » كثيراً في تبسيطها وتقريبها إلى

أذهان العامة ، بأن أدخلوا عليها آلهة صغرى هم زعماء القبائل التي دانت بالطاعة والولاء لحكم الأسرة الفاتحة . وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسية والدينية أثره الكبير ، فانتج في عصرنا هذا توقيراً يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الامبراطور . على أنه بعد الحرب العالمية الثانية تنازل الميكادو عن ألوهيته ، وأمسى شخصاً عادياً .

وها هنا نرى الميزات الخاصة البارزة في الدين الياباني ، فالشنتوية ليست ديناً محكم الأوضاع ، ولا تُنقاس بالهندوسية في أسرارها ، ولا بالكنفوشية في متانتها الأخلاقية ، ولكنها منطوية على طراز معين من الوطنية الدينية المتطرفة . فالامبراطور والدولة كانا في نظر الياباني قبل هزيمة اليابان ، هما كل شيء والفرد لاشيء . وكانوا يستسيغون تضحية الذات في سبيل الامبراطور ، بل يرحبون بها كشرف عظيم . وقد كانت عبادة الامبراطور من العناصر البارزة في دين اليابان ، ولذا كانت عقبة في طريق انتشار المسيحية في تلك البلاد ، لأن المسيحية تضع الله فوق الامبراطور .

الأخلاق الشنتوية :

أما من الوجهة الأخلاقية فالشنتوية ليست ديناً سامياً . فانها لا تعبر اهتماماً كثيراً للأخلاق والآداب لأنها لا تقيم للفرد وزناً . نعم إن بها فكرة عن كرامة الفروسية (Bushido) ، ولكن اقتصرها على طبقة معينة يجعلها عديمة الجدوى كمبدأ أدبي أخلاقي لعامة الشعب . ولعلّ ذبوع الكنفوشية والبوذية في اليابان ، قد حجب مافي الشنتوية من قدر قليل في الآداب والأخلاق ، على أننا نلاحظ ناحية واحدة قد يكون فيها بعض الشيء من الصفة الأدبية ونعني بها النظافة - « فان الدنس مصيبة ، والرجس خطية ، والطهارة الجسدية هي على الأقل قداسة . وكل شيء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح مججوج » .

قد لعبت النظافة الطقسية دوراً خطيراً في الطقوس الشنتوية فجُبل الشعب الياباني على عناية خاصة بالنظافة الشخصية حتى في حياته البدائية الأولى ، مما نحسبه قوة أدبية إلى حد ما .

علاقة الشنتوية بالبوذية

قبل ألف سنة اندمجت الشنتوية في البوذية ، فان كهنة البوذية قدموا إلى اليابان سنة ٥٥٢ م . من كوريا وتبعهم آخرون من بلاد الصين . وكان لهؤلاء أثر عميق في البلاط الملكي . ولكن ظلّ عامة الشعب قرنين ونصف على تشبّثهم بالشنتوية القديمة ، إلى أن برز رهاب بوذي فابتكر نظاماً ابتلعت فيه الشنتوية ، وفي هذا النظام أدمج كل آلهة الشنتوية حاسبا إياها مظاهر متجسدة لبوذا ، واشترط أن يكون هذا شأن الأباطرة (الميكادو) في المستقبل أى أن يُدججوا ضمن هذه الآلهة الصغرى . ولئن كان بقي لدى عامة الشعب شيء كثير من عبادة آلهة الطبيعة ، فان هذا النظام قضى أن تدمج الشنتوية في البوذية .

وعقب هذا التبدل نهضة استيقظ فيها الشعور القومي وبلغ أوج قوته في ثورة سنة ١٨٦٨ ، فأظهر الشعب صداً عن كل أجنبي غريب ، وزحزح البوذية الدخيلة عن منزلتها العليا ، التي تسنّمها . فأزيلت التماثيل البوذية من الهيكل وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة وظائفهم ، وعادت الشنتوية ديناً قومياً في المرتبة الاولى . وطبيعى أن يعقب هذا شيء من ردّ الفعل ، فرفعت البوذية رأسها ثانية ، وخفض جناح الشنتوية ، ولكن آثار تلك النهضة لم تضعف الشنتوية وبقيت عاملاً قوياً خطراً في تسكييف حياة الشعب .

وجهة النظر الرسمية للشنتوية

وتميل النزعة الحديثة في دوائر اليابان الرسمية إلى اعتبار الشنتوية مجرد

نظام قومي تتجسم فيه المشاعر القومية ، لادينياً بالمعنى الصحيح . وفي هذا يقول أحد نبلاء اليابان : « إن الشنتوية نظام محكم زرفع بموجه قبعائنا تسكريماً لأسلافنا وأبطال وطننا » . وهذا هو الاتجاه الذي تسير نحوه الشنتوية . ومما هو جدير بالذكر أن كهنتها لا يندرون العزوبة ، ويقومون علاوة على أعمالهم ومهنتهم المادية بوظائفهم الكهنوتية ، وذلك لأن واجباتهم الدينية ضئيلة . ويعتقد كثيرون من اليابانيين أن ليس في الشنتوية ما يناقض المسيحية ، وما هي إلا نزعة قومية مجتمة . ولكن قلّ بين مسيحيي اليابان من يسلمّ بوجهة النظر هذه .

الشنتوية الرسمية اليابانية

في سنة ١٨٨٢ انقسمت كل المؤسسات الشنتوية بحكم القانون إلى قسمين كبيرين : هما « الشنتوية الطائفية ، والشنتوية الرسمية » . وحسبت الحكومة الطائفة الأولى « الدين الحق » ، أما الطائفة الثانية فخرجت من نطاق هذا التقسيم . ونقد قال أحد الثقات اليابانيين :-

« أما الشنتوية الرسمية فيمكن أن تؤخذ كمظهر من المظاهر القومية وتعاليم الأخلاق والآداب اليابانية . وإلى هذا الحدّ يصح اعتبارها غير دينية . ولكن إذا تعمقنا في البحث ، لانبث أن نجد أن الشنتوية الرسمية ليست إلا ديناً نسج نسجاً في نظم اليابان القومية » .

وتتوالى الحكومة الانفاق على الهياكل الرسمية التي تقام فيها حفلات الشنتوية الرسمية . ولا يجوز للشنتوية الطائفية أن تستعمل هذه الهياكل للعبادة فيها . وفي أعياد ومواسم هذه الهياكل الرسمية ، يتحتم على كل معلمى المدارس المحلية أخذ الطلبة إلى تلك الهياكل لمشاهدة الإحتفال .

ولباب هذه الشنتوية الرسمية هو عبادة الأسلاف . وكان غرض الحكومة

في تعضيد الشنتوية الرسمية ورعايتها إنما هو الاحتفاظ بعبادة الإمبراطور و خلود مركزه وعصمته وتساميه فوق الجميع . وتقول إحدى النشرات التي صدرت عن وزارة المعارف في مارس سنة ١٩٣٧ : « إن أرضنا بلد إلهية ، يحكمها الامبراطور وهو إله » . ولكن هذا كله قد تبدل الآن ، وأخذت تغمر اليابان نزعة ديمقراطية غربية ، وأشرأت أعناق الشعب إلى المسيحية .

البوذية اليابانية :

قلنا عن البوذية الشيء الكثير عند الإفاضة في أديان الهند والصين ، وهي ناشطة في بلاد اليابان تتمثل في طوائف وشيع كثيرة ، بعضها يمتاز بالتسامح ، وبعضها يتصف بالتعصب ، وبعضها يميل إلى الزهد والتصوف . وقد تطورت إحدى تلك الطوائف تطوراً يغاير البوذية الشمالية ، وهي طائفة « الشنئية » التي تُعدّ أكبر وأنشط الطوائف البوذية اليابانية . ويشاطر أتباعها البوذيين الشماليين وجهة نظرهم من حيث اعتبارهم بوذا جوهرًا إلهيًا حالاً في الكون ومتمثلاً في أوضاع مجسمة شتى . وثقافتهم مأخوذة عن « أميدا بوذا » . وهم يزعمون أن « أميدا » هذا ظهر على الأرض في العصور الخوالى في شكل راهب ، وأخضع نفسه لضروب من الإذلال والقهر حتى استطاع أخيراً أن يرقى إلى الحالة المجيدة التي نزل منها . وقبل عودته أثبت نذرا قال فيه انه لو قدر له أن يبلغ درجة السكالم في البوذية ، فانه لا يرضى خلاصاً قبل أن يتهيماً هذا الخلاص للجنس البشرى المتألم . وتنفيذا لهذا النذر عانى كثيراً من الآلام والأوجاع ولكنه غلب في النهاية . وكانت ثمار جهوده افتتاح فردوس في الأرض الطاهرة يجوز اليه كل من يدعون باسمه ^(١) .

وكان مبدع هذا التعليم راهباً اسمه « شنران » نقل أغلب أحكامه وأوضاعه

عن طائفة Jodo Sect وأضاف إليها عناصر أشبه بتلك التي أدخلها « لوتر » في عصر الإصلاح المسيحي . فقال ذلك الراهب : إن « الأعمال » أي التقشف والصوم والطقوس وما شاكلها ، ليست بذى قيمة في الخلاص الذي يقوم في أصوله على الإيمان في نذر « أميدا » . ولكي يدفع عنه تهمة القول إن تعليمه يبعث على الخطية ، أبدى أن الإمتنان المتغلغل في نفس الإنسان الذي يشعر بخلاصه يسوقه إلى الإكثار من « الأعمال » أي أعمال الصلاح ، مدفوعاً إلى ذلك بروح الشكر أكثر منه بالرغبة في كسب الخلاص .

وليس « أميدا بوذا » لليابان فقط . فهو مظهر بارز في قوانين ومناسك البوذية الشمالية ، بل يقول البوذيون اليابانيون إن « غوتاما بوذا » أشار في أواخر حياته إلى « أميدا » هذا . وهي قصة لا ترتكن إلى سند ، بدليل الفارق العظيم بين تعاليم هذا وذاك . وتعاليم « أميدا » مقصورة على الطائفتين اليابانيتين ، وخاصة الطائفة الشنيّة التي لا تقدم أية عبادة إلى « غوتاما بوذا » وتخالف البوذية العادية في أن كهنتها لا يندرون العزوبة ، وفي عدم مراعاتها شيء من قواعد التقشف والزهد في البوذية العادية .

بوذية اميدا والمسيحية .

يبدو لكل مطلع شيء من القشابه بين تعاليم « أميدا » ، وبين بعض التعاليم المسيحية ، وخصوصاً تعاليم الرسول بولس عن التبرير بالإيمان . والدليل متوافر على أن الراهب « شنران » عرف شيئاً عن المسيحية ، وكذلك عرف أسلافه من زعماء البوذية شيئاً عنها من جراء اختلاطهم بالمرسلين النسطوريين . على أن هذا لا يحملنا على الإقلال من شأن تعاليم كهذه تزدهر في قلب البوذية ويعتنقها البوذيون في حماس شديد . وقد قلنا ان الطائفة الشنيّة أنشط وأكبر الطوائف الدينية البوذية في اليابان . ولعلّ في هذا دليلاً على أن الطبيعة البشرية تستأثرها فكرة الخلاص التي لا تقوم فقط على الاستحقاق « والأعمال »

وَمَنْ يَدْرِ رُبَّمَا تَسْتَيْقِظُ الْيَابَانُ وَتَقْبَلُ مَفْتَبُطَةً قِصَّةَ الْخُلَاصِ ، لَا بِوَسَاطَةِ كَأَنَّ غَامُضٍ تُشِيرُ إِلَيْهِ الْأَسَاطِيرُ ، بَلْ بِوَسَاطَةِ مَخْلَصٍ حَقِيقِي أَيْدٍ مَجِيئُهُ التَّارِيخُ .
وَرُغْمَ التَّشَابَهِ بَيْنَ بُوذِيَّةِ أَمِيدَا وَبَيْنَ الْمَسِيحِيَّةِ ، فَانَا لَا نَتَعَامَى عَنِ الْفَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ بَيْنَهُمَا . فَالْخُلَاصُ فِي نَظَرِ الْبُوذِي لَيْسَ خُلَاصًا مِنَ الْخَطِيئَةِ ، بَلْ مِنْ قِيُودِ الرِّغْبَاتِ ، وَمِنْ الْآلَامِ ، وَمِنْ الْآثَارِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى تَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ وَانْتِقَالِ الرُّوحِ مِنْ وَجُودٍ إِلَى آخَرٍ . وَفِكْرَةٌ عَنِ الْخُلَاصِ كَهَذِهِ نَاقِصَةٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأَدْبِيَّةِ . ثُمَّ أَنَّ عَقِيدَةَ الْبُوذِي فِي الْحَيَاةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ يَحُوطُهَا الشُّكُّ وَالْارْتِيَابُ ، فَالْفَرْدُوسُ عِنْدَهُ مَجْرَدُ رَجَاءٍ . وَهُوَ مَكَانٌ تَتَوَقَّفُ فِيهِ النَّفْسُ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الطُّورِ الْأَخِيرِ الَّذِي يَصْعَبُ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَنَاءِ .

الحالة الدينية العامة في اليابان :

وفيما عدا تينك الطائفتين — Jodo and Shin — اللتين تدينان بهذه التعاليم في أوضاع مختلفة ، فإن البوذية ليست ناشطة في اليابان .
أما طوائف أميدا فناشطة جداً . وقد اقتبست إلى حدٍّ ما الأساليب المسيحية كإنشاء جمعية الشبان البوذية وغيرها من المؤسسات ، وتقوم الهياكل بمجهود وخدمات على نمط الخدمات التي تجريها الكنائس . وتغمر الطائفة الشنية نهضة تتبع أساليب النهضات الغربية . بل إن لها مرسلين في كوريا ومنشوريا ، ويتحدثون عن إيفاد بعثة دينية إلى أمريكا . ومن هذا يتبين أن حياة البوذية اليابانية قائمة على ثقافة أميدا ، وحيث تختفي تلك الثقافة تبدو البوذية هيكلًا عاطلاً عن الحياة .

ويحمل بنا أن نذكر هنا أن البوذية والشتوية يتبادلان التسامح الكريم ، فينتقل الناس من هيكل بوذي إلى معبد شنتوي في غير حرج . ولا بأس في

الحفلات القومية أن تجرى طقوس شنتوية ، أو أن يُراعى في الجنائز الرسوم البوذية . وأما العقائد الأدبية التي يعتنقها الفرد العادى المحترم فهى مزيج من « نظافة » الشنتوية ، والأخلاق الكنفوشية البوذية ، وربما بعض التعاليم المسيحية . وهذا التسامح هو فى الحقيقة ظاهرة من ظواهر اللادرية وعدم الاكتراث بالدين ، وهى ظاهرة يراها الأجانب والوطنيون أنفسهم تنفشى بسرعة فى اليابان . ولقد انتج تدفق الثقافة الحديثة مزيجاً مضطرباً من الآراء فى عقول الناس وخصوصاً الناشئين ، يصحبه الشيء الكثير من التشكك وانحلال المبادئ الأدبية . والظاهر تماماً أن الشنتوية والبوذية لا تسدّان حاجات البلاد الأدبية . ولقد بلغ الخوف بحكام اليابان وقادة الرأى فيها مبلغاً حاهم على عقد مؤتمر للاديان الثلاثة الرسمية — المسيحية والبوذية والشنتوية — منذ سنوات ، وكان الغرض منه النظر فى ترقية الأحوال الاجتماعية والأدبية فى بلاد اليابان . وقد كان هذا المؤتمر — بغض النظر عما آل إليه أمره — اعترافاً بمجز البلاد على مجابهة مشاكلها الأدبية ، ودليلاً على المكانة التى بلغتها المسيحية .

التمسك بالله

هل للمسيحية رسالة إلى تلك البلاد ؟ من الناحية الأدبية تمسُّ المسيحية بلاد اليابان فى حالتى ضعفها وقوتها . فالصدق والطهارة الجنسية من المميزات البارزة فى الحياة المسيحية . ويلجأ كثيرون من غير المسيحيين إلى الاستعانة بالمبادئ المسيحية من هذه الناحية . ثم ان الفكرة اليابانية عن التضحية وإنكار الذات تتعمق وتزداد خصوبة فى الصليب . وهناك دلائل تشهد لقوة الصليب فى العقل اليابانى ، إذ يُنظر إليه كنموذج من فعال البطولة وإنكار الذات . أما الميول السلبية فى البوذية — أى التقشف واذلال النفس وقمع الجسد — فهذه غريبة عن المزاج اليابانى . وليس من شك فى ان إهداء

المبادئ المسيحية الأدبية في أكمل أوضاعها سيكون له أبلغ النتائج في تلك البلاد .

ولدى المسيحية كل شيء تفتقر إليه اليابان من الوجهة الدينية ، لأن الأديان اليابانية قد فشلت في إعلان الله للشعب الياباني . فالشنتوية وما تتضمنه من عبادة الطبيعة والوطنية الدينية ، لم تفعل شيئاً في الكشف عن الله الحقيقي ، ويعرف البوذي العادي من الخرافات والفردوس المادي أكثر مما يعرف عن الله . وفي اليابان مثل سائر يقول « بوسة واحدة فقط وإذا بنا في ظلمة حالكة » ، إشارة الى ظلام الفسق الذي يتحرك في نطاقه الدين الياباني . ولم يختبر الياباني قط تلك الطمأنينة الواثقة بالله التي تمكن الإنسان من السير في مخاطر الحياة غير هياب ولا وجل ، ولم تعرف قط ذلك اليقين المادي المكين في محبة أب غير منظور وقوته .

قلنا إن الصليب يبدو للعقل الياباني كنموذج سام لتضحية الذات نيابة عن الغير . ولكن « الكفارة » و « الفداء » وحتى « الخطية » — مصطلحات غريبة عن الفكر الياباني . والصلب كديفونة على الخطية ، ورسالة للغفران ، لا يثير في العقل الياباني إلا قليلاً من اليقظة والاستعداد لتلبية ندائه . ولكن في هذا عينه الهبة الكبرى للياباني في نهاية الأمر . فحتى إذا افترضنا ان ثقافة « اميدا » تهى للناس خلاصاً من الخطية ، لا من الآلام ، فإنها تبقى جدّ مفتقرة إلى القوة لبثّ الشعور الحقيقي بالمسئولية الأدبية . ذلك لأن ليس لديها شيء يتسق مع الصليب أو يماثله . فهي تعلن مغفرة لا تكلف إلا قليلاً ، وتميل نوعاً ما إلى محبة الله ، ولكنها تفشل في اظهار قداسته . وحاجة اليابان الأدبية كما يعترف بها ساستها لا تُسدُّ إلاً بإنجيل الغفران الذي يفتح عيون النفس لتدرك شناعة الخطية ومحبة الله الغافرة .

النزاع بين الدين والوطنية

وقبل هزيمة اليابان في الحرب الأخيرة كانت أعظم عقبة في سبيل انتشار الروح الدينية الحققة هي روح القومية الشديدة والوطنية المضطربة التي تملك على الشعب كل عواطفه . فالتوقير الديني للميكادو كان عنصراً فعالاً ، بل كان أفعال العناصر وأقواها في الحياة اليابانية . وكانوا يقيمون ضد المسيحية تهمة صارخة بأن مطالب المسيح تتعارض مع مطالب الميكادو . وقد تبدل هذا كله بعد ان صار الميكادو انساناً عادياً . وحقاً إنه لمن أخطر الأمور على الأمة أن تخلع على نفسها ومصيرها القومي في شخص حاكمها ، ذلك التوقير الذي لا يليق إلا بالله دون سواه . واليوم تقدم المسيحية لليابان إقالة من عثاها . فالمسيحية لا تنطوي على خيانة أو ولاء بارد للوطن كما كان يزعم الياباني ، ولكنها توسع نطاق الوطنية . والمسيحي ينظر إلى مصير أمته وأمجادها كأنها مجتمعة ومتضمنة في فكرة أوسع هي ملكوت الله على الأرض ، ذلك الملكوت الذي تفرغ فيه كل الشعوب مجدها وكرامتها . ههنا ، وههنا فقط ، الحق الذي يوسع آفاق الوطنية العمياء الضيقة . والمهمة الملقة على عاتق المسيحيين الوطنيين في اليابان ، أن يظهروا للملأ ان الوطنية لا تضيق بهذه الفكرة الواسعة ، بل بالأولى تزداد نبلا وكرامة ومجداً ، وان الإنسان يحب بلاده أصدق حب ، ويخدمها أجل خدمة ، متى طلب أولاً ملكوت الله .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، بعد أن تخللّت الحكومة من كل علاقة بالدين ، زاد عدد الطوائف الدينية في بلاد اليابان حتى لقد بلغت ٨٠٠ طائفة مسجلة لدى الحكومة ، وتمتلك هذه الطوائف فكراً وعقائد دينية مختلفة متباينة ، يبعد بعضها كثيراً عن الشنتوية . وأكثر الطوائف المستحدثة تضيف إلى عقائدها كثيراً من الأديان الأجنبية ، ونظريات مستمدة من علم النفس والعلوم الأخرى ، في بلوغ الحق النهائي ، وتحقيق الهناء الروحية الشخصية .

أديان الشرق الأوسط

تمهيد

الآن سننتقل من الأديان البدائية ، والأديان القومية ، وأديان الهند ، وأديان الشرق الأقصى ، بما فيها من أساطير وعقائد لا يستسيغها ، وقد لا يفهمها ، مواطن الشرق الأدنى

إلى الشرق الأدنى ، منزل الوحي ، ومهبط الأديان التوحيدية ، وموقد الشرارة التي انطلق منها نور معرفة الله الواحد .

وسيجد القارئ نفسه في البحوث التالية في موطنه ، وفي جوّ يألفه ، وتفكير يوائم مزاجه ، مهما اختلفت العقائد ، وتباينت متجهات الفكر .

هنا ينأى القارئ عن عقائد تعدد الآلهة ، وتجسّدات الآلهة ، والإيمان بقوى الطبيعة ، وألوهية السماء والشمس والقمر ، والبحر والجو ، والتصوف الذي ينكر كرامة الجسد ، والغموض والإبهام في النظم الأخلاقية وينتقل إلى الإيمان بآله واحد ، خالق السموات والأرض ، الذي تتوثق بينه وبين خلّاقه صلّات روحية . وهو ينظر إلى الدين كطريق للتسلط على الحياة

والعالم والطبيعة . أما الزهد والتصوف وإذلال النفس ، فلا تستهدف في أديان الشرق الأدنى إفناء الذات واحتقار الجسد ، بل ترويض النفس وتهذيبها ، للقربى من خالقها . أما الطبيعة في نظره فهي شيء مخلوق خاضع لمدير حكيم وصانع ماهر ، وإن هي إلا مسرح تتمثل عليه دراما العلاقات التي تربط الإنسان بربه .

وأديان الشرق الأدنى - إذا استثنينا بعض الأوضاع المتفرقة هنا وهناك - ترفع من قدر الإنسان كفرد ، وتفكر في العلاقات بين الإنسان وربه كأنها مواجهة بين خالق ومخلوق ، تسودها العناصر الأدبية الأخلاقية .

وسنبداً رحلتنا بدين زرادشت ، دين بلاد فارس ، وهو من أولى الفِكر التي تمخّض بها العقل الإنساني عن وجود الإله الواحد - ثم اليهودية ، والإسلام والمسيحية .

ديانة الفرس

زرادشت

عاش زرادشت (Zoroaster) في الجزء الغربي من الهضبة الكبرى الممتدة من نهر الأندوس في بلاد الهند، إلى وادي دجلة فيما بين النهرين (العراق الآن) - وهذا هو الإقليم الذي كان مهد الحضارة الإيرانية منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. على أن الآريين لم يزحفوا مهاجرين إلى هذه البقاع إلا في الألف سنة الثانية قبل الميلاد، وقد وفدوا من الشمال زاحفين في طريقين، أحدهما إلى شمال غرب الهند، والثاني إلى غرب آسيا، على أن فريقاً ثالثاً من أولئك الآريين استوطن بعد ذلك في إيران - وهو الاسم المشتق منهم، والذي تُعرف به هذه البلاد اليوم.

من هذا الفريق الثالث نبتت الحركة الدينية الإصلاحية التي تعرف باسم «دين زرادشت» ربما حوالي سنة ٦٥٠ - ٦٠٠ ق م. ويقول بعض المؤرخين إنها نبتت في تاريخ مبكر في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد.

وفي تلك البلاد التي زحف إليها فريق من أولئك الآريين، اتخذت تلك الشعوب عبادة تعدد الآلهة من الطبيعة، وأطلقوا على الآلهة الخيرة لفظة «النجوم اللامعة Deves»، وعلى الشياطين لفظة «سادة Aswras». ولما ظهر زرادشت أراد إدخال الإصلاح على هذه العبادة التي اعتصم بها بنو جنسه في الشرق، فافتنح أنه رسول «أهورا مازدا Ahura Mazda»، الإله الواحد الحكيم، ونبذ كل الآلهة التي آمن بها الآريون، وأبطل أساطيرهم وتقدماتهم، وأخضعها كلها لاله الواحد في صراع بين الخير والشر.

وقد نلخص المؤرخون فيما بعد تاريخ هذا الرسول وتعاليمه وحياته وأعماله من مجموعة الأناشيد الموزونة التي يسمونها Gathas ، وهي الأسفار المقدسة التي جمعها هو في حياته ، أو جمعها المعاصرون من أتباعه ومريديه . وفي هذه الأناشيد يدعو الرائي الجنسَ البشري إلى كفاح مريء لمقاومة قوى الشر ، وهجر العبادات القديمة التي تدن بالتعدد ، والاقتصار على عبادة الإله الواحد الحكيم المتعالى « أهورا مازدا » الذي عُرف فيما بعد باسم « اورموزد Ormuzd » .

وقد أعلن زرادشت أن هذا الإله هو خالق الكون ، وسند الخير والصواب . وقد صنع تحت إمرته خلأئق إلهية ، أو صفات مجسمة له ، أسماها « الفكر الخير » و « البر » و « الفلاح » و « التفكير الصائب المشفق » و « الخلود » . وهناك أيضاً روح الخير ، وهو في صراع مستمر مع روح الكذب والشر . وهذان التوآمان روح الخير وروح الشر ، لم يخلقهما « أهورا مزدا » وإن كانا يلتقيان فيه . وقد خلقا قبل انشاء العالم ، ولكنهما لم يمارسا وظيفتهما ، أحدهما ضد الآخر ، الا بعد أن صارت الأرض مسرحاً لهاتين القوتين المتصارعتين . وفي بدء الحياة أعلن روح الخير سياسته بقوله : « لن يكون تناسق بين فكرينا ولن يكون انسجام بين عقيدتيننا . آمالنا وأمانينا ، وأقوالنا وأفعالنا ، وقلوبنا ونفوسنا ، لن يكون بينها تفاهم ولا التئام » .

الخبر والشر :

وهذا التعليل للصراع المحتدم مدى الأجيال بين الخير والشر ، يمثل في الواقع أول محاولة في تاريخ الدين لحل هذه المشكلة على أساس الوحدانية الأخلاقية . ولئن يكن هذا الحل الذي قدّمه زرادشت تطور سريعاً إلى الاعتقاد بالثنائية في الألوهية ، فإن « أهورا مازدا » بقي وحده الخالق الحكيم ، مصدر الخير والصلاح ، وملك البر . وليس في هذا النظام الدينى ما يشرح لنا كيف بدأت قوات الخير والشر في وجودها ، على أنه من المسلّم به أن الكون هو خليفة الإله

الواحد ، الحكيم الصالح ، ومن إرادته الخيرة الصالحة تستمدُّ كل النظم الطبيعية والأخلاقية وجودها ومقوماتها . ومن المسلّم به أيضاً أن الروحين التوأمين - روح الخير وروح الشر ، ليس لهما كيان مستقل عن « أهورا » . وفي النهاية لا بد ينتصر الخير على الشر . ولما كانت الأرواح الشريرة هي ذرية « روح الكذب والشر » ، فهي تجهد في غير وئاء لتضليل الإنسان ، بالفكر الرديء ، والقول الرديء ، والعمل الرديء . من ثمَّ يتعين على الإنسان أن يقاوم هذه المغريات ، ويدك قواش الشر عن طريق فعل الخير ، وذلك لأن الإنسان — كما خلقه « أهورا مازدا » — يتمتع بحرية الإرادة كمخلوق حرّ التصرف أديباً . نعم ، المفروض أن روح الخير هو الذي يقدم المعونة الإلهية ، ولكن كل فرد مسئول في نهاية الأمر عن تقرير مصيره . ولقد لخصت أسفارهم المقدسة هذا الموقف بقولها :

« هذان الروحان اللذان أعلننا ذاتيهما كتوأمين ، هما الخير والشر ، في الفكر والقول والعمل ، والعامل الحكيم من يختار الخير ، والغبي الأبله هو الذي يختار الشر » .

والذين يطيعون الشرائع التي وضعها « أهورا » بمحض اختيارهم ، يساهمون في نصرة روح الخير على روح الشر والأكاذيب . وأولئك مفروض عليهم أن يتكلموا بالصدق ، ويهجروا الحياة البدوية ، ويفلحوا الأرض ، وينبتوا الزرع والفاكهة ، ويترققوا بالحيوانات الأليفة ، ويرووا الأرض الجرداء ، وذلك « لأن الذي لا يفرس يُحرّم من الرسالة الخيرة » ، كما جاء في سفرهم المقدس .

أما اقتران الزراعة بالحياة الطيبة ، فمرده الى أن عباد « أهورا مازدا » كانوا من الزراع القرويين الذين استقروا في مواطنهم ، يحرسون أراضيهم ضد البدو الغزاة في الشمال — التوارنيين — الذين حُسبوا من أتباع الروح الشرير ،

وكان دأبهم خطف المواشى لتقديم ذبائح لذلك الروح الشرير . ويقال ان زرادشت اشترك في تلك الحروب المقدسة . وكان من آثار انتصاره على الفزاة أن توطدت أركان الدين الجديد الذى نادى به . ويقال أيضاً إن زرادشت قضى نحبه فى معركة لاحقة مع أولئك الفزاة ، يوم اقتحموا عليه أحد الهياكل ، وهو يقدم محرقة على مذبح النار . وسواء أكان موته فى تلك الحرب المقدسة أم غير ذلك ، فان الثابت تاريخياً أن الحركة الدينية التى وضع أساسها بقيت بعد موته ، على أنها سرعان ما فقدت فكرة الوحدةانية الجوهرية ، وصفاتها الأخلاقية الأصيلة .

نظرية زرادشت فى الاخرويات

أيد زرادشت تأييداً تاماً فكرة انتصار الخير فى نهاية الصراع ، ودمار الشر واندحاره . من ثم نراه يضع عقيدة عن « الاخرويات » (فلسفة الحشر والنشر) ، وهى با كورة العقائد التى عرفها الإنسان فى عالم الدين ، والتى قدّر لها فيما بعد أن تمكس آثارها على مطارحات ورؤى المستقبل فى اليهودية والمسيحية والاسلام . ومن تعاليمه أنه فى نهاية العالم ستكون قيامة عامة . ثم تكابد قوى الخير والشر تجربة نارية محرقة فى معدن مذاب . وفى هذه التجربة سيُدمّر روح الشر وأذنا به ، ويُستعلن بعد ذلك عصر ذهبي عقب الدينونة وتأسيس « ملكوت أهورا مازدا » . وفى هذا العالم الجديد ، إما على الأرض أو فى نظام روحى ، سوف لا يكون مكان إلا للصالحين الذين سيتقرر مصيرهم النهائى وفق أعمالهم التى أتوها فى هذه الحياة .

وعلاوة على هذه « النهاية العظمى » ، التى تنتهى بها الدورة الحالية للعالم ، وتبزغ دورة جديدة طليقة حرة من الشر ، تبدأ على التو دينونة الأفراد بعد الموت . وهنا يطلب إلى كل إنسان أن يقدم حساباً عما فعلت يده وهو فى الجسد ، وفى ضوء هذا الإقرار يتقرر مصيره النهائى . وإن كان قد حفظ

وصايا زرادشت قولاً وفكراً وعملاً ، فإن هذه الأقوال والأفكار والأعمال تحسب له من الحسنات التي تضاف إلى حسابه السماوى ، وتجعله قادراً على الوفاء فى يوم الدين . وإن هو استطاع أن يبدى رصيذاً من الحسنات يُذهبن السيئات ، ويكفرن عن فعالة الشريرة ، فإنه فى اليوم الرابع بعد موته يجوز أنماً فوق معبر دقيق أحد من السيف ، وهو الذى يفصل هذا العالم عن الحياة الأخرى ، وتحتة بحيرة متقدمة بالنار يهوى فيها الذين زادت فى ثقل الميزان سيئاتهم عن حسناتهم . أما أنفس الأبرار الذين حرصوا على أحكام النبي ووصاياه ، فإنهم يجوزون سالمين إلى السماء . أما الذين تتعادل حسناتهم مع سيئاتهم ، فإنهم يجوزون إلى حالة متوسطة ، تقع بين الأرض والسموات إلى يوم الدينونة الأخير .

وتقوم هذه العقيدة الخاصة بالأخريات على مبدأ ثابت ، هو أن الإنسان يتمم خلاصه بيده ، فالذى يزرعه فى هذه الحياة آياه « يحصد » ، الشر بالشر ، والخير بالخير . ضحك للإشرار ، وغبطة للأبرار . ويل للظالمين ، وخلص للصالحين — هذا ما يقوله كتابهم القدس . ولا تنفع فى هذا المجال لأى شفيع أو وسيط ، كما أن الصلوات والذبائح لا تجدى فتيلاً ، ولا أثر لها فى تغيير هذه العدالة الصارمة . ان مصير كل الخلائق البشرية تقررته أعمالهم مرة واحدة لأرجعة فيها فى يوم دينونة «اهوراً مازدا» فى تجربة من نار محرقة ، وعبور فوق معبر أحد من السيف يسمونه «الفاصل» ، لأنه يفصل بين الذين مصيرهم «بيت الشر والاكاذيب» ، وبين الداخلين إلى الفردوس « بيت الاناشيد » ، الذى هو خير أوضاع الوجود .

وفى عصر متأخر تطورت نظرية مؤسس هذا الدين عن الأخريات ، تبعاً للتطور الذى طرأ على العقيدة ذاتها . وذلك لأن الروحين التوأمين روح الخير ،

وروح الشر، حسب إلهين، يناوئ أحدهما الآخر. وقد خلق «أهورا مازدا» (وسمى الآن أرموزد) الخير — كما خلق روح الشر (وسمى الآن أهريمان) كل ما هو شر في العالم. وهما يعاندان أحدهما الآخر في وضع ثنائى. وعلى خلاف الفكرة التقليدية المعروفة في اليهودية والمسيحية والإسلام عن الشيطان، آمن القوم أن «روح الشر» (أى الشيطان) هو الخالق الفعلى لكل الشياطين والأرواح الشريرة وغيرها من الخلائق المؤذية والنعاين والحيات، والذئاب، والنمل، والجراد، والناس ذوى الصفات الشيطانية، والسحرة، والأمراض. وهذه الفكرة عن خلق ثنائى يتسلط عليه إلهان، يستقل كل منهما عن الآخر، بأجناده المتعاركة، ومخلوقاته العليا، ومؤهلاته المختلفة — نقول ان هذه الفكرة جعلت أهريمان إله الشر، معادلاً للإله «أهورا مازدا» متعايشاً معه، وخالداً مثله. وفي أحد الأسفار المقدسة المتأخرة نشهد موقفاً يثبت فيه «أهورا» شكواه أمام زرادشت من أن أهريمان يقلب رأساً على عقب كل مشروعاته وتدابيره لجعل بلاد فارس فردوساً أرضياً، وذلك بإدخاله الصقيع القارس في الشتاء، والحر اللافتح في الصيف، وكافة الأمراض والادواء التي يعانها الإيرانيون والتي بلغ عددها ٩٩٩٩٩ داءً ويضاف إليها الموت!! وقد حاول عبثاً بعض كهنة المديانيين — وهم الجوس — التخفيف من وطأة هذه الثنائية الإلهية بمزج الإلهين في نظام واحد، ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل، وحسبت هرطقة دينية. ومهما يكن من أمر فإنهم اعتقدوا أن النصر مكفول في النهاية لإله الخير، وأن إله الشر مصيره البوار والفناء.

تقسيم الزمن

وفي أحد كتبهم المقدسة المتأخرة وعنوانه «الخليقة الأصلية»، الذى يرجع تاريخه ربما إلى القرن التاسع بعد الميلاد، برزت نظرية مؤداها تقسيم

العالم إلى عصور ، وهي مستقاة من نظرية أقدم منها يرجع تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد قالوا ان الزمن — وامتداده اثنا عشر ألفاً من الاعوام — ينقسم إلى فترات أربع ، مدة كل منها ثلاثة آلاف سنة : في الفترة الأولى كانت أرواح الاسلاف هي الجنّيات الحارسة على الناس والأرواح . وفي الفترة التالية ظهر إنسان بدائي وثور بدائي ، وقيل انه في هذا العصر صاغ رؤساء الملائكة جسد زرادشت ، على أنه لم يظهر كشخصية تاريخية إلا في الفترة أو العصر الأخير . وفي الفترة الثالثة ، تسلّطت قوى الشر وخلقّت جدود الإنسان وأسلافه الذين تحدر منهم مؤسسو الأسرة الإيرانية . أما الفترة الرابعة والأخيرة فهي التي استهلّت بإنشاء دين زرادشت ، وهي لم تبلغ بعد ذروتها النهائية .

ثم ان زرادشت يأتى بعده ثلاثة من « المخلصين » ، يظهر كل منهم في فترة مدّاهـا ألف سنة ، وآخر الثلاثة هو « المسّيا » يولد بطريقة معجزة من عذراء طاهرة ، من بذرة زرادشت المحفوظة لهذا الغرض في بحيرة ، وظهوره إيدان بنظام عالى جديد ومجيد . وعند ذاك يقوم الموتى من قبورهم . وفي يوم الدينونة الأخير يُفرز الأبرار عن الأشرار تمهيداً لسكب معدن مذاب بالنار على الأرض وفي جهنم . اما للأبرار فيسكون هذا المعدن المذاب برّداً وسلاماً « حليماً دافئاً » ، اما للأشرار فيسكون عذاباً اليماً يحرق كل الشرور التي ارتكبوها . اما « اهريمان » إله الشر وزبانيته وأبالسته ، فيسلقون في اللهب لإفنائهم ، أو يطرحون في الظلمة الخارجية لاخفائهم عن الانظار أو تدميرهم في الختام . وبعد ذلك تخلق أرض جديدة ، وسما جديدة ، يسود فيهما إلى الأبد البر والفرح والسلام ، وبصير « اهورا مازدا » الكل في الكل .

البارسيون

تلك كانت نظرة عجلى ألقينها على دين زرادشت الذى أُنعم في بلاد فارس

(إيران) أجيالا طويلة . ومع أنه كان لهذا الدين آثاره التي انعكست على اليهودية والإسلام ، وعلى المسيحية بطريقة غير مباشرة ، فإنه لم يبق من هذه الحركة الكبرى التي بدأها زرادشت إلا أعداد نحصى بالألوف . وذلك لأنه بعد الفتح الإسلامي في القرن السابع بعد الميلاد ، حسب اتباع دين زرادشت كفاراً ، واعتنق الإسلام غالبية سكان البلاد ، ولم يبق من أتباع زرادشت اليوم غير عشرة آلاف شخص في إيران . ولكن على الرغم من قلة عددهم ظلوا يمارسون في عناد وصلابة عبادتهم الدينية في هياكل النار ، بعد أن خلصت هذه العبادة من فكرة ثنائية الإله والإضافات السحرية .

أما الباقون من اتباع زرادشت فقد هاجروا إلى بلاد الهند في القرنين السابع والثامن واستوطنوا هناك - وخاصة في مدينة بومباي - في ظروف أقل عناء ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « Parsis » أي البارسيين أو الفرس القدماء . وسرعان ما أصبحوا جماعة ثرية ناجحة ، ويُحصى عددهم اليوم بحوالي خمسين ألفاً في بومباي وحدها ، ومثل هذا العدد موزع في مدن بلاد الهند الأخرى . كذلك توجد منهم جماعات منعزلة في لندن وغيرها من المراكز التجارية في العالم ، لأن أولئك البارسيين أكثرهم من التجار ورجال الأعمال والصناعة .

وعُرف عنهم حينما حلُّوا ، كرم الأخلاق ، والكفاية في العمل ، والكرم في المعاملة ، وهم دائماً موضع تقدير مواطنيهم وإحترامهم . وقصارى القول قد احتلوا في المجتمع مكانة أشبه بمكانة جماعة الاصدقاء في الغرب المسيحي ، وذلك لأنهم اعتصموا بالكرامة والتحفُّظ والعزلة والقناعة ، وممارسة شعائر دينهم على طريقتهم في هدوء وفي غير جلبلة أو تعنت .

ويتعين على أطفالهم ، متى بلغوا السابعة من العمر أو بعدها ، ان يقلدوهم حبلا وقيصاً إشارة إلى أنهم قد أصبحوا أعضاء في الجماعة ، و « من عباد الله على دين

زرادشت . وبهذا الانضمام يتعهد بممارسة الأفكار الصالحة ، والأقوال الصالحة ، والأعمال الصالحة ، والتمسك بدين زرادشت ، وهو الدين المقدس ، أفضل الاديان وأرقاها وأسمأها ، وهو الدين الذي أعلنه الله لزرادشت - وهذا الاعتراف يردده البارسي كل يوم . ولا تمام خلاصهم يتعنين عليهم الا يفكروا الا في الحق ، ولا يعملوا الا الخير ، ولا ينطقوا الا بالصدق ، وأن يمارسوا طقوس النار في هياكلهم ، التي بها يقتربون بطريقة سحرية إلى حضرة الإله «اهورا مازدا» .

ويتحتم على الكهنة - الذين يرسمون عادة للخدمة الدينية في حفلة مزدوجة لتكريسهم - أن يشعلوا ، ويطهروا ، ويراقبوا النار المقدسة ، ويغذوها بخشب الصندل ، وهم يتلون الصلوات والأدعية المقررة ، وأفواهم مغطاة - مثل الأطباء والمرضين في غرف العمليات - خشية ان تنجس أنفاسهم النار المقدسة . وفي عيد رأس السنة ، وهو أهم أعيادهم ، يستحمون ويلبسون الثياب الجديدة ، ويرمون هيكل النار ، ويوزعون الصدقات على الفقراء ، ويتبادلون التحيات والتهاني . وتعقب هذه الأعياد عيد آخر أعمق خشوعاً ورهبة ، هو العيد الذي يقيمونه لإحياء ذكرى أمواتهم وتكريماً لكائن إلهي يسمونه (Farvardin) وهو الذي يحرس أرواح الأسلاف . ويعتقدون أن في هذا العيد يزور الأسلاف ذرايرهم وأنسالهم ، ولذلك يقيمون له حفلات ترحيب فوق التلال أمام « أبراج الصمت » ، وهي التي يودعون فيها - داخل بناء مكشوف مستدير من الطوب أو الحجر - جثث موتاهم لكي تلتهمها الطيور الجارحة .

ابرار الصمت

وقد اختار القوم هذه الطريقة الكثيبه للتخلص من أجساد الموتى ، وذلك لكي لا تنجس الأرض أو الماء بأجساد الموتى ، لأن الطيور الجارحة تلتهم الجثث في ساعة من الزمن بعد وضعها على أرض البناء المكشوف ، ولا يبقى منها إلا الهيكل العظمي . وكانوا يأخذون الثياب التي كانت تغطي الجثة

ويلقونها في حفرة خارج البرج قبل تعريض الجثة للعراء . وفي مدينة بومباي الهندية يحرقونها بحامض الكبريت . ثم يتلو النائحون الأدعية والصلوات قبل أن يعود الموكب من حيث أتى . وبعد أن تجف العظام بفعل حرارة الشمس تلقى في بئر هناك لتتحلل إلى رماد . وفي الأبراج الكبرى خارج مدينة بومباي ، توجد نار مقدسة تشتعل دائماً . وفي العيد السنوي الذي يستمر عشرة أيام ، تتكرر الحفلات الجنائزية ، ولكن تتجه في هذه الفترة ، كما قلنا ، إلى أرواح الموتى .

وفي الجماعات البارسية الصغيرة المنعزلة ، حيث لا توجد طيور جارحة ، ولا يمكن إقامة أبراج الصمت ، يتم الدفن في توابيت من الصلب ، أو غرف من الحجر ، يسبقه طقوس الموت للألوفة ، التي تشمل صلاة التوبة والاستغفار ، ثم الاعتراف بالإيمان على لسان الميت ، وغسل الجثة بعد الموت ، ورسم أخدود في الأرض حولها لابعاد الأرواح الشريرة عنها ، وتعريضها لكلب يكون واقفاً على مقربة ، ثم إشعال النار ، وطقوس أخرى ، يجريها الكهنة وهم يضعون كمات من القطن فوق أفواههم اجتناباً للتدنيس ، وذلك قبل وصول حملة الجثة الذين يرتدون ثياباً بيضاء لحملها إلى مكان الإيداع . وبينما تجرى هذه المراسم الخاشعة بالنيابة عن الفائحيين على الأرض ، تنتظر النفس - حسب اعتقادهم - العبور المحفوف بالمخاطر فوق المعبر الدقيق في اليوم الرابع ، حيث مصيرها النهائي .

وعلاوة على النار ، يُحسب الماء أولى العناصر بالتوقير والتقدّيس . ولا يجوز تدنيسه أبداً . ووراء هذا التوقير فكرة عبادة الطبيعة التي اتخذها أسلاف زرادشت ديناً لهم قبل أن يحىء زرادشت وأتباعه الذين ألبسوها رداء الوجدانية ، وجعلوها أداة مقدسة للتقرب إلى الإله أهورا مازدا . ولذلك يجتمع البارسيون في مدينة بومباي على شاطئ البحر عند غروب الشمس ، ليغمسوا أصابعهم في

ماء المحيط ، ويمسحوا بها عيونهم وجباههم ، ويرفعوا أيديهم بالدعاء لاهورا
مازدا في حضرة الشمس الغاربة ، كرمز « لروح المياه النقية المتلمعة الطاهرة » .

وفي البارسية الحديثة متجهات أخلاقية أدبية تقترن بمجموعة من الطقوس
الرسمية . ومع أن هذه المتجهات مستمدة أصلاً من عبادة زرادشت ، فإنها قد
صارت في الواقع ثيوصوفية ، تصوفية ، ولا أدرية ، في نظرتها وتفكيرها ، وحادت
عن الوجدانية الأولى .

وكان هذا الدين قد ورث تقاليد نبوية متأصلة في وجدانية أخلاقية ،
ولكن أضيف إليها بعد مجموعات من الرسوم والطقوس والتقاليد التي تشبث
بها القوم ، وصارت من مظاهر حياتهم المميزة وخاصة بعد النكبات التي حاقت
بهم عقب فتح الاسكندر الأكبر لبلاد فارس سنة ٣٣١ ق . م .

دين زرادشت واليهودية

وحين نذكر أنه بعد أن غزا داريوس العظيم بابل في سنة ٥٣٨ ق . م .
أذن للمسيبين اليهود أن يعودوا إلى اورشليم لبناء هيكلهم ، أقول حين نذكر
ذلك ، لا يدهشنا أن نرى اليهودية بعد السبي تتأثر بدين زرادشت . وقد بقي
المسيبيون الذين عادوا فترة من زمن تحت الحكم الفارسي ، شأنهم شأن أكرية
اليهود الذين بقوا فيما بين النهرين . وحوالي هذا الزمن بدأ دين زرادشت يطبع أثره
العميق في الامبراطورية الايرانية ، ولو أن آثار هذا الدين لم تبدُ ظاهرة في
اليهودية إلا بعد قرنين من الزمن ، يوم فتح الاسكندر الأكبر بلاد فارس
سنة ٣٣١ ق . م ، وبسط سلطانه على فلسطين ، وصارت سورية جزءاً من
المنطقة الغربية للامبراطورية المكدونية يحكمها بطليموس الذي كان أحد قواد
الاسكندر .

وفي هذه الفترة من التاريخ ظهرت كتابات الرؤى في الأدب العبري تحمل
بين طياتها آثاراً واضحة ، لاخفاء فيها ، من عقائد زرادشت عن السماء وجهنم ،

وعن الدينونة بعد الموت وعن نهاية العالم، كما ظهرت عقيدة الكهنوت الملائكي،
وثنائية الخير والشر تحت سلطان قوتين متضاربتين، لكل منهما زعيمها وقائدها،
رئيس الملائكة ميخائيل للخير وابلوس للشر . يضاف إلى هذه العقائد ، فكرة
ملكوت المسيح الذي سيسوده البرّ يوماً ما .

صحيح أن الاسكندر الأكبر لم يُقم وزناً لهذه العقائد التي تنتمي لأسرة
هزمها بجحافله وفرض عليها سلطانه ، إلا أن هذه العقائد عن الأخريات قد
تسربت إلى الرأي العام في الإمبراطورية كلها التي كانت اليهودية جزءاً منها .
وماحلّ القرن الثاني قبل الميلاد حتى تكاثرت الكتابات اليهودية عن
رؤى المستقبل مثل سفر دانيال في أسفار الكتاب المقدس القانونية ، وأسفار
الابوكريفا غير القانونية ، وسفر الآباء الاثني عشر .

اليهودية

العبرانيون

تألفت الأمة التي سُمِّيت فيما بعد «إسرائيل» من خليط من البشر ، وقد نشأت أصولها ، أول ما نشأت ، في الألف الثانية قبل الميلاد في شمال ما بين النهرين (العراق الآن) من أجناس مختلطة أحدها من غير الساميين ، وهم الحورنيون الذين جاء ذكرهم في الكتاب المقدس (نحميا ٢ : ١٩) ، وكان موطنهم الأصلي جبال الكرد في الشمال ، ويضاف إلى هؤلاء خليط آخر يسمى «عابرو» . (ولعلَّ اسم العبرانيين كان اشتقاقاً من هذه اللفظة) .

وهؤلاء جميعاً هاجروا إلى الغرب ، وجالوا في فلسطين ، وامتزجوا بالسكان الوطنيين ، وهم الكنعانيون الساميون — كما يقين هذا كله في روايات الأسفار المقدسة عن الآباء إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، في سفر التكوين .

وروايات الأسفار المقدسة تقدم لنا صورة للأحداث التي كانت جارية في منطقة الشرق الأوسط خلال الألف الثانية قبل الميلاد ، يوم كان أسلاف

العبرانيين يتنقلون بقطعاتهم ومواسيهم بين شمال ما بين النهرين وسورية ، وكان خليط من البدو الرحل عُرفوا «بالمكسوس» ، قد غزوا سورية وفلسطين في الشمال ، واستولوا على مصر حتى طُردوا منها سنة ١٥٧٠ ق م . من ثم نرى قصة إبراهيم في الكتاب المقدس تروى لنا في سطور تاريخاً قَبلياً عن فريق من « العابيرو (Habiru) » . وقد كُتب أن إسحق استورد زوجته من حاران في شمال ما بين النهرين (تكوين ص ٢٤) ، وأن بعض ذلك الخليط الذي عُرف بالعبرانيين نزحوا إلى مصر في أعقاب المكسوس ، وهم الملوك الرعاة (تكوين ١٢ : ١٠ و ٢٦ : ١) . وقيل أنهم استوطنوا أرض جاسان ، وقد تكون هذه وادي طوميلات في شرق الدلتا .

وهناك من الأدلة التاريخية ما يثبت أن العبرانيين كانوا على وفاق وتفاهم مع المكسوس غزاة مصر ، وأن بعضهم على الأقل قد تسللوا إلى مصر مع أفواج المهاجرين الذين دخلوا البلاد في تلك الفترة . على أنه من العسير تاريخياً أن نحدد بالضبط تاريخ دخول العبرانيين إلى وادي النيل وخروجهم منه . ولكن يمكن القول ان دخولهم حدث خلال احتلال المكسوس لمصر ، وذلك لأن في مثل هذا الاضطراب التاريخي فقط ، كان يتسنى لهم أن يلقوا ترحاباً وهم الغرباء النازحون .

ويبدو أن حظوظ العبرانيين قد تبدلت يوم جلس على العرش فرعون « لم يكن يعرف يوسف » ، كما جاء في الاصحاح الأول من سفر الخروج . وكان هذا يوم رحل المكسوس عن مصر سنة ١٥٧٠ ق م . على أن ذكر مدينتي الخازن فيثوم ورعمسيس اللتين سخرَّ العبرانيون في بنائهما (خروج ١ : ١١) قد حمل بعض العلماء على الظن بأن رعمسيس الثاني (١٣٠٠ — ١٢٢٤ ق م) .

هو الذى سَخَّرَ العبرانيين وأَذَلَّهُمْ ، وليس أحسن الأول الذى طرد الهكسوس من مصر . لذلك قيل ان الخروج قد تمَّ بعد أن جلس خليفة رعمسيس على العرش وهو « منفتاح » (١٢٢٣ — ١٢١٥ ق . م .) ، وهو الذى أخذ ثورات فى فلسطين ، كما اتضح من لوحة اكتشفت فى طيبة سنة ١٨٩٦ . وقد أثبتت الحفريات التى جرت فى أريحا بعد الحرب العالمية الكبرى الأولى أن تلك المدينة قد دمَّرت فى النصف الثانى من العصر البرونزى المتأخر أى حوالى سنة ١٤٠٠ ق . م . وهذا يؤيد التسلسل التاريخى فى الكتاب المقدس الذى ورد فى سفر الملوك الأول (ص ٦ : ٤) ، والذى يثبت أن خروج بنى إسرائيل من مصر قد تمَّ قبل بناء هيكل سليمان بأربع مائة وثمانين سنة . ولذلك يمكن القول أن تحوتس الثالث (١٥٠١ — ١٤٤٧ ق . م .) هو الذى سخر العبرانيين ، وأنه بعد موته قام أولئك بمحاولة ناجحة لخلع نير السخرة والاسترقاق الذى ثقل على أعناقهم .

والحق أننا هنا أمام مشكلة تاريخية تناقضت فيها ألوان الحدس والتخمين ، وقد حاولت كلها التغلب على صعاب ليس من الهين تذليلها للتوفيق بين روايات الكتاب المقدس ، ونتائج الحفريات وعلوم الآثار .

إله العبرانيين

عرف العبرانيون الله الذى عبدوه بإسم « يهوه » . على أنه لا يمكن الفصل بقول جازم حاسم عن التاريخ الذى بدأت فيه عبادة الله بهذا الإسم . فى أقدم الوثائق التاريخية التى كتبت فى اليهودية فى القرن الثامن قبل الميلاد — التى عرفت بالحرف J — دُعِيَ الله بهذا الإسم — يهوه — منذ بدء الجنس البشرى فى جنة عدن . أما فى وثيقة أخرى ، أُطلق عليها الحرف E وذاعت فى شمال فلسطين ، فإن اسم الله « يهوه » قد أُوحى إلى موسى فى العليقة المشتعلة

بالنار في مديان، يوم أمر أن ينطلق إلى مواطنيه الاسارى في مصر حاملاً رسالة العتق والخلاص من إله آبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب، واسمه يهوه . (خروج ص ٣) . وهذا الرأي تؤيده الوثيقة الكهنوتية التي أطلق عليها الحرف (P) والتي جمعت بعد عودة اليهود من السبي في بابل في القرن السادس .

ولئن يكن أصل اللفظة التي أطلقت على الإله الذي صار فيما بعد الإله القومى لإسرائيل واليهودية ، والذي صار مرادفاً للإله العظيم كما نفهمه اليوم - يحوطه شيء من الغموض، فإن أغلب الظن أن الأسرى العبرانيين في مصر ما كانوا يعيرون آذاناً صاغية لموسى، لو أنه فاجأهم باسم إله لم يسمعوا عنه شيئاً من قبل . وبما أن أسماء الآلهة مثل يا - يامى - ياهو - قد وردت في بعض النقوش والآيات والوثائق المعاصرة لزمان موسى، فقد يكون من المحتمل أن «يهوه» كان لقباً معروفاً للإله سامي في ذلك العصر، خاصة بين قبائل المديانيين الذين عاشوا في جيرة حوريب، حيث كان الجبل المقدس الذي قيل عنه تجاوزاً جبل سيناء . ومع تلك الأقوام عاش موسى بضع سنوات يوم هرب من مصر قبل عودته لتولى الزعامة والقيادة لمواطنيه المأسورين عبر الصحراء (خروج ٢ : ١٥) وهناك في مديان كان يرعى قطعان حميه « يثرون » الذي يُظن أنه كان كاهن يهوه (خروج ٣ : ١٨، ١١) .

من ثمَّ نَظَنُّ أن « يثرون » كان أول من أطلع موسى على عبادة يهوه . على أن بعض العلماء يظنون أن « يهوه » كان من أصل عبري، وأن « يثرون » قد اعتنق عبادته مسوفاً بأدلة قوته التي رآها في عجائبه مع العبرانيين .

ويقول الأستاذ العقاد في كتابه « الله » إن إسم « يهوه » لا يُعرف اشتقاقه على التحقيق، فيصحّ أنه من مادة الحياة، ويصح أنه نداء لضمير الغائب أى « ياهو »، لأن موسى علم بنى إسرائيل أن يتسقوا ذكره توقيراً له، وأن يكتفوا بالإشارة إليه .

ويقول عالم آخر إن الكلمة العبرانية المماثلة لكلمة "Lord" هي يَهْوَا وكانت اللغة العبرية تكتب بدون حروف علة حتى سنة ٥٠٠ م ثم دخلت هذه الحروف فأصبحت كلمة يهوا : ياهوفا (Jehovah) ، ولذلك فكلمة (يهوا) أو (ياهوفا) معناها سيد وإله .

ومهما يكن من أمر ، ومهما تكن الفكرة التي نقبلها ، فإن (يهوه) لم يكن إلهاً عبرانياً وطنياً ، وإن قبائل إسرائيل التي خرجت من مصر ، واتخذته معبوداً لها ، إنما فعلت ذلك تحت تأثير موسى . وقد صار هذا الإله على مرّ الزمن الإله الواحد الذي عبده الشعب في تاريخه اللاحق .

إله إسرائيل في الأسفار المقدسة

وعلى مسار التاريخ في الأسفار المقدسة ، اختار « يهوه » إسرائيل شعباً له . فهو الذي أخرجهم من عبودية مصر ، والذي أعلن ذاته لموسى فوق الجبل المقدس ، حوريب (سيناء) ، وقطع معهم عهداً على يد زعيمهم أثناء تجوالهم في البرية . وقد كان موسى هو المستول الأول عن ادخال عبادة يهوه ، الإله الذي أجرى معهم المعجائب المذهلة . وفي مملكة يهوذا الجنوبية ، ساد الاعتقاد أن يهوه قد عبد منذ بدء الخليقة ، أما التقاليد في المملكة الشمالية فيؤخذ منها أن عبادة يهوه استعلنت ، أول ما استعلنت ، على يد موسى . ولعلّ السبب في هذا راجع إلى أن (يهوه) كان معروفاً لدى القبائل الجنوبية قبل أن يظهر موسى على مسرح التاريخ إما كإله مديان قديم ، أو إله عربي قبلي ، بينما لم تعرفه القبائل الأخرى إلا في تاريخ متأخر إعلانياً من موسى . على أنه بعد زمن موسى ، أحسّت الأمة أنها ارتبطت بعهد مع يهوه بعد استجابتهم لندائه .

الشعب المختار

وهنا لابدّ لنا من وقفة عن العهد والشعب المختار . صحيح أن الله قطع عهداً مع إبراهيم واسحق ويعقوب ، أنبياء الله الصالحين ، كما ورد في الكتاب

المقدس والقرآن . وقد أراد الله أن تحمل ذرية هؤلاء الأنبياء رسالة إلى العالم تمهيداً لحجى مخلص للعالم هو المسيح، وتأهباً للملكوت جديد ، هو ملكوت البر والحق والخير .

على أن ذرية هؤلاء الأنبياء الصالحين ، قد تفكرت لهذا الواحد على مسار التاريخ ، وحادت عن عبادة الله الواحد في فترات من حياتها، وعبدت الأصنام . وفي أحسن الأوضاع حسبته إلها قومياً قبلها يقف إلى جانبها في حروبها وعدوانها على الشعوب الأخرى ، وحفلت سيرتهم بالشرور وطفحت بالآثام .

ويوم جاء المسيح ، كما تنبأت به كتب أنبيائهم ، ودعاهم إلى الخير والحق ونبذ العنصرية العنيفة والقومية الضيقة ، حسبوه أفا كما مجدفاً ، وقتلوه شرّاً قتلة ، فزالت عنهم العهد والمواثيق القديمة ، وغدت ارتناً للذين آمنوا بالمسيح وقبلوا رسالته . وإنك لو اجد اليوم شقة واسعة بين كلمة (إسرائيل) الواردة في كتب الله ، وبين إسرائيل كما نعرفها اليوم . وقديماً تفاخر اليهود أمام المسيح بنسبتهم إلى أبيهم إبراهيم واعتصامهم بالعهد . فقال لهم المسيح : أيها المرادون يا أولاد الأفاعي ... إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم ..

ولذلك حين يذكر المسيحيون اليوم كلمة (إسرائيل) في كتبهم وأدعيتهم وقراءات كتابهم المقدس ، لا يفكرون في إسرائيل الحالية ، بل في إسرائيل الحقيقي — وهو الكنيسة المسيحية اليوم — التي ورثت عهد الله ومواثيقه في مجيء المسيح ، وذلك لأن مجيء المسيح قد قطع الصلة الأبوية بين الله وبين إسرائيل القديم، وباتت فكرة « الشعب المختار » أسطورة قديمة عفا عليها الزمن ، وأبطلها التاريخ ، وهدمتها المسيحية .

كلمة حق

ويبقى علينا بعد هذا كلمة حق ، فنحن العرب من مسلمين ونصارى ، لا ننادى اليهودية كدين ، لأننا نؤمن أنها من الأيان التوحيدية التي برزت في الشرق ، والتي أخذت عنها المسيحية والإسلام، ولا ننادى اليهود بسبب دينهم، فنحن وإياهم من أصل ساميٍّ أصيلٍ في التاريخ، ولكننا نقف في وجه المصائب الصهيونية التي تريد أن توطد ملكاً في أرضنا، حكمت عليه الأحداث والنبوات بالزوال والفناء . ألم يبك المسيح على أورشليم لعنادها وجهلها وتعصبها وقال بلسان النبوة : « ٠٠٠ ستأتى أيام يحيط بك أعداؤك بمترسه ، ويحدقون بك ، ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك وبنيك فيك ، ولا يتركون فيك حجراً على حجر ، لأنك لم تعرفى زمان افتقادك » (لوقا ١٩ : ١٣ ر ٢٤) . وقد تمَّ هذا فعلاً بعد أربعين عاماً من ذلك التاريخ (سنة ٧٠ ب . م) ، يوم دمر تيطس الرومانى مدينة أورشليم تدميراً شاملاً وأحرق الهيكل ، وشرّد اليهود فى كل أنحاء الأرض ، وصاروا يعرفون فيما بعد « يهود الشتات » .

العهد والملكية

والآن لنعد إلى حديثنا : تأصلت عقيدة العهد فى قلب الأمة فى تاريخها اللاحق فى عمق وجدّية . واختفت آلهة العبرانيين القديمة ، وتركزت العبادة فى وحدانية يهوه الذى غدا معبود الشعب ، وصاحب السلطان على مصائره . وبعد الاستقرار فى أرض كنعان صارت ليهوه السيادة المطلقة على كل الآلهة الأخرى ، وإن تكن صفات آلهة القبائل الفلسطينية وطبيعتها قد انتقلت إلى ذات يهوه فى أول الأمر ، وكذلك مراسم العبادة فى المقداس التى ألفها الكنعانيون الأسبقون فى عبادتهم . والواقع أن الصراع بين العبادتين والدينين ظل قائماً إلى أن طُرد اليهود من أرض كنعان (فلسطين) ، وحُل الشعب أسيراً إلى بابل (ما بين النهرين) فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد

أبرز أنبياء ، العبرانيين هذه الحقائق في أسفارهم قبل نكبة السبي بقرنين من الزمن ، وهم الذين فضحوا المفساد والآثام التي اقترفها الشعب ، وأعلنوا النتائج الحتمية المترتبة على هذا الزيف والفساد . وعلى الرغم من كل هذه فإن فلسطين كانت بصفة رسمية « أرض يهوه » الإله الواحد ، الذي كان مركز حكومة ثيوقراطية ، توحدت دينياً وسياسياً في عبادته وتحت سلطانه.

وقد قامت العلاقة بين الأمة وإلهها على التمسك بالمهد، والاعتصام بأحكامه ومراسيمه ، وأولها الولاء المطلق ليهوه، له دون سواء ، وطاعة وصاياه وأوامره ، على أن الشعب كثيراً ما حثت بأحكام هذا العهد في عهد الملكية ، وزاغ وعبد آلهة أخرى ، إلى جانب هذا الإله الواحد ، ولذلك قيل عن الله في العهد القديم انه « إله غيور » ، لأنه أصرّ على عبادته وحده دون سواء ، ولكن الشعب استورد آلهة غريبة باغراء الملكات والأميرات الأجنبية (أنظر ١ ملوك ١١ : ٣ و ١٨ : ١٩) حتى لقد قيل ان الملكية كانت تحدياً ليهوه (١ صموئيل ٨ : ٤ وهوشع ١٠ : ٩ و ١٣ : ١٠) واعتداءً صارخاً على العهد . وقد نظر أنبياء العهد القديم في القرن الثامن إلى الملكية نظرة ملؤها الريبة والشبهات ، وذلك لأن الملكيات في البلدان المجاورة كانت تجنح دائماً إلى آلهة كثيرة لتثبيت دعائم عروشها ، ورأى الأنبياء في هذا النظام الملكي تحدياً واعتداءً على العلاقة القائمة بين يهوه والشعب ، وهو العهد الذي قطعه الله معهم مع إبراهيم وأولاده مع موسى . وكانت تلك العلاقة الثيوقراطية مع إله تبنيّ الشعب ، وليس مع ملك مقدس ، وهو ما كانت تهدف إليه الملكية ، كما كان الحال مع فرعون مصر ، وملوك ما بين النهرين ، ومعبودات الكنعانيين .

وقد ألح القوم على الملكية للوقوف في وجه هجمات الفلسطينيين والعمونيين . وفي خلال حكم شاول ودأود كملكين « ممسوحين » من الله يمارسان تقديم

الذبايح مثل الملوك الآلهة في البلدان المتجاورة في الهلال الخصيب ، لم يحسبوا
أبداً أهمهما تجسيد للاله يهوه ، بل كان الله دائماً فوق العالم وفوق مجريات
الطبيعة كلها . لذلك نرى الأسم الشخصي « يهوه » الذي أطلقه موسى على
الإله الذي دُعي لعبادته وخدمته ، يحمل بين ثناياه فكرة التنزيه الإلهي .
وعبادة « أهية الذي أهيه » (خروج ٣ : ١٤) — « أنا الذي هو أنا »
تحمل أيضاً فكرة الوجود الذاتي — هو الخالق الحال في كل مكان المسند كل
الأشياء ، الفائق الوصف الذي لا ينطق به ، الذي لا تدركه الأفهام ولا تحتويه
العقول ، هو علة كل الوجود .

وقد لا تكون هذه الصفات كلها في أذهان العبرانيين يوم سمعوا لأول
مرة هذا الأسم على لسان زعيمهم ، ولكنهم على الأقل تلقوا عنه فكرة
لا تختلف كثيراً عن الفكرة التي عرفها المصريون عن الإله « بتاح » في
الفكر المصري القديم .

على أنه مما لا شك فيه أن الوجدانية العبرانية كما أعلنها أنبياءهم قامت على
الاقتناع بأن الله الذي أعلن ذاته لأسلاف الأمة إبان الحقبة ، والذي أخرجهم
من عبودية مصر ، ومن تيم البرية ، هو المتسلط على كل الأشياء ، وفق
مشيئته ومقاصده . وقد تمت كل هذه الأمور قبل عهد الملكية ، لذلك قد
لا نحسب الملوك العبرانيين وسطاء بين الأمة وآلهتها ، كما نرى في الحضارات
الأخرى في الشرق الأوسط قديماً .

وبعد أن أبرم العهد بين يهوه وبيت داود ، لم تتورع المملكة الشمالية
عن التنكر لميراثها في ابن يسي يوم أبي حفيده يربعام أن ينصت إلى شكاوى
الشعب (١ ملوك ١٢ : ٢٢ و ١٦) . وقد كان ذلك وزراً كبيراً من جانب
يربعام الأول ، ومع ذلك بقيت عبادة يهوه في الشمال والجنوب معاً ، الدين

الرسمى، لأن العهد لم يكن مرتبطاً بأسرة أرضية . وكان من آثار هذه الأوزار جميعها أن سقطت الملكية — أولاً مملكة إسرائيل باستيلاء الآشوريين على السامرة سنة ٧٢١ ق . م . والقضاء على مملكة يهوذا سنة ٥٨٧ ق . م . بايدي الكلدانيين . على أن هذا الانهيار القومى للأمة جمعاء ، لم يكن له إلا أثر ضئيل فى الحياة الدينية، وذلك لأن الملوك حكموا بمقتضى أوامر صادرة من يهوه وبارادة الشعب ، وقد بقى العرش قائماً ما بقى الجالس عليه أميناً فى أداء واجباته . وإلى حد ما لم يكن الملك يُسأل عن الخطأ كما كان الحال فى الملكيات القديمة (أنظر ١ صموئيل ٨ : ١١ و ١ ملوك ص ٢١) . ولكن سلطانه المطلق كان محدوداً ومقيداً بارادة يهوه وسلطانه . وإنالزى الأنبياء ينتهرون الملوك المتربعين على العروش باسم الرب ، كأنهم ينطقون بلسانه ، ويصدرون الأحكام الإلهية الصارمة ، وأخيراً يتنبأون بزوال الملكية كنظام نخر فيه الفساد وأثبت فشله فى إتمام مقاصد الله فى دولة دينية ثيوقراطية .

الهيكل :

أثناء قيام الهيكل ، كان يحق للملوك أن يقدموا الذبائح ، ويرتدوا الثياب الكهنوتية ، ويمثلوا الأمة فى الحفلات الدينية المتعلقة بتابوت العهد المقدس ، بل كانوا يتنبأون . وبعد بناء هيكل أورشليم فى عهد سليمان ، أنقطعت الصلة بين التقاليد الصحراوية القديمة التى كانت تقضى بأن يقيم يهوه فى «خيمة وفى مسكن وليس فى بيت من أرز» (٢ صموئيل ٧ : ١ — ٧) . ولما كان المبدأ العام يُوحى أن يكون للملك العظيم معبد فخيم يؤدى فيه وظائفه المقدسة ، فقد بُذلت جهود جبارة وأنفقت أموال طائلة لتشييد مقام يهوه وتابوته فوق جبل صهيون يليق بالجلال الإلهى ، ويعكس مجد الملك سليمان الجالس على العرش .

وقد ابتنى لنفسه قصرأ عظيماً ملحقاً بالهيكل ، على النمط عينه الذى أُلحق به قصر الفاتيكان بكائدرائية القديس بطرس فى رومية .

أما تصميم الهيكل فقد قام به مهندس معارى من صيدا على نسق هياكل مصر وفينيقية ، وقام بالعمل كله صناع مهرة من البلدان الأجنبية . وقد زُود بكثير من أروع النقوش والشعارات والرموز . أما العبادة فى الهيكل فكانت تقرب كثيراً فى مميزاتها العامة من الممارسات المألوفة فى هياكل مصر وفينيقية وراس شماره فى سورية .

وان صح هذا القول — ونحسبه صحيحاً — كما توحى بذلك أعمدة الهيكل والحلى التى إزدان بها ، والعبادات الغريبة التى أدانها وفضحها ككتاب الأسفار المقدسة المتأخرون ، فلا بد أن طقوس عبادة الشمس المصرية ، والذبايح والتقدمات السكنعمانية ، وحفلات ما بين النهرين الدينية مثل المرائى على تموز ، وغيرها . . قد مارسها القوم فى ذلك المعبد الملكى ، وقد أقام فيه الملك أهاز مذبجاً آشورياً على النمط السومرى فى دمشق (٢ ملوك ١٦ : ١٠ — ١٥) .

فى هذا الوسط الذى يعبد آلهة كثيرة وضع تابوت العهد بين آلهة الأمم المجاورة ، وأشرف الملك نفسه على هذه العبادات الغريبة فى الهيكل ، إلى جانب المعابد الأخرى التى ابتناها سليمان لزوجاته الأجنبية لآلهة غريبة .

ولا مناص من كلمة حق هنا . فإن للولوك العتاة والشعب العنيد الضال ، كثيراً مازاغوا وفسدوا ، وأدخلوا عبادة تعدد الآلهة ، وأوغلوا فى الشر والأنثم ، ولكن يهوه بقى الإله الأوحد الشرعى للشعب ، والمتسلط على العالم كله ، وهذه تحسبها مفخرة لليهودية ، لاليهود أنفسهم . وعلى الرغم من تقلبات التاريخ ، وصروف الزمن ، بقى إله العهد الحقيقة الجوهرية الثابتة . فالملكية قامت وسقطت

والأثر القومى فى أرض الموعد قد زال ، ولكن بقى العهد قائماً روحياً فى الدين اليهودى مع الاله الواحد ، فى عبادة وحدانية . والصراع القائم بين العرب وإسرائيل ليس صراعاً دينياً ، فاليهودية من الأديان التوحيدية التى اخذت عنها المسيحية والأسلام كما قلنا ، ولكن الصراع هو مع عصابات صهيونية سلخت قطعة من أرض العرب وشردت أهلها ، بحجة إقامة دولة عنصرية تعيد مجداً دارساً وملكاً قُضى عليه بالفناء .

التطور في اليهودية

إذا أردنا الوقوف على حقيقة الدين اليهودي وآدابه وتاريخه فلا مناص من الرجوع إلى كتابات الأنبياء - عاموس ، وهوشع ، واشعيا ، وميخا ، وأرميا وحزقيال . وإننا لنرى في هذه الكتابات تعليماً لم يكن في بادئ الأمر مقبولا لإغراق الشعب في موبقاته ، ولكن بعد نكبة السبي ، وعودة الشعب إلى وعيه بعد صهره في البوقة ، غدت هذه الكتابات الدين الرسمي ، ورويداً رويداً تغلغلت إلى الآداب والمؤلفات العبرية ، والقصص الشعبي ، والأساطير ، والتاريخ والثقافة ، والأخلاقيات ، والحكمة ، والشعر ، وجعلت الكتاب المقدس وحدة قوية الترابط ، وكتاباً قومياً مقدساً .

ولعلّه من الخير في صدد هذا البحث أن نشير لما مآ إلى بعض المبادئ التي اقترضتها اليهودية من الأديان الأخرى التي أحاطت بها . وبين أن العبرانيين ظهروا على مسرح التاريخ في وسط عالم تشبع بالثقافة البابلية ، ولا ينكر أحد أن أثر هذه الثقافة المستقاة من شريعة حمورابي كان عميقاً في صياغة الناموس الاجتماعي اليهودي - ولا ننكر أيضاً أن القديس يوحنا فم الذهب كان مصيباً حين قال إن الطقوس اليهودية المادية مثل الذبائح وأساليب التطهير ، ورؤوس الشهور القمرية ، والتابوت ، والهيكل ذاته - قد استمدتها المشترعون من عبادات وثنية سابقة .

أما الذي اقتبسوه عن الكنعانيين في حرية يرثي لها ، فهو تلك الممارسات والعقائد التي أدانها الانبياء وحاولوا اخراجها من التقاليد اليهودية الدينية . ويبدو لنا أيضاً أن اليهودية أخذت عن الدين الفارسي (زرادشت) الاعتقاد في الحياة الأخرى ، ولكنها نبذت فكرة الثنائية في الألوهية التي اعتصم بها دين فارسي .

وفي عصور اليونان المتأخرة يتبين لنا من سفر حكمة سليمان (وهو من أسفار الابو كريفيا) كيف أن الكاتب استقى كثيراً من الفلسفة الافلاطونية ، بل أن سفر الامثال نفسه اقتبس من الحكمة الإغريقية والحكمة المصرية أيضاً . ومن خطل الرأي أن نبدي خشية على كتابنا المقدس عند القول ان اليهودية قد اقترضت من بلدان وأديان أخرى ، فالإيمان بالله الواحد يقتضى حتماً وجوده في العالم كله ، ونشاط روحه نشاطاً شاملاً بين كل الجماعات البشرية . والدين الحق هو الذي لا يقطع لحة النسب والقربى بينه وبين الحكمة المتسامية لدى كل الشعوب . ومعنى هذا أن يكون في ميسوره أن يثبت أصوله الالهية بقوته على امتصاص الحق أينما كان ، حين يتصل به . والله لم يترك نفسه بلا شاهد في أى مكان أو زمان .

على أن ثمة حقيقة أخرى ينبغى ألاّ نغفلها ، وهى انه مع التسليم بأن اليهودية قد استمدت من دين الفرس بعض أحكامها وشرائعها ، فإن اليهودية كانت في خواصها الجوهرية ، تطوراً قومياً نسب في اصله إلى موسى ، ولكفه تشكل فيما بعد تاريخاً سليماً صادقاً بأيدي كبار الأنبياء ، الذين خلوا إلى نفوسهم وربهم ، وكتبوا ما كتبوا بإيحاء روح يهوه .

وفي اليهودية وعقائدها مظاهر معينة لا بد من دراستها .

١ — كان الدين عند اليهود مطلبهم الأول والأهم . فنحن لا نعرف شيئاً عن فنونهم عدا ما ذكر في سفر الخروج (٣١ : ١ - ١١) عن « بصلييل بن أورى » الذى حذق صناعة الذهب والفضة والنحاس ، ونقش الحجارة للترصيع ونجارة الخشب . وفي سفر أخبار الأيام الثانى (٢ : ١٣) عن « حوارم » وهو من اصل مخطلط ، كان أبوه رجلاً من صور ، وقد حذق أيضاً صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب والارجوان . . . وهو الذى صاغ أبحاث

هيكل سليمان . أما الفن الهيرودسي الذي ظهر متأخراً في الهيكل الثاني، فلم تسهم فيه العبقرية الفنية اليهودية إلا بقسط ضئيل لا يذكر .

أما الإمام بالطبيعة الذي نقرأه في سفر حكمة سليمان (١٧ : ٦) - وهو من الأسفار غير القانونية - فهذا في الواقع من ابتكار خيالات مفكر اغريقي ، ولم يقدم اليهود شيئاً من نتاج تفكيرهم للعلوم كما فعل البابليون ، أو المصريون ، أو الأغارقة . كذلك لم يسهموا بنصيب في التراث العالى للعلوم السياسية ، ولا للعلوم اللاهوتية أو الفلسفة العقلية .

على أنهم قد بلغوا في الشعر ، وفي الفن القصصى ، شأواً رفيعاً . ولكن شعرهم ورواياتهم النثرية وآدابهم في صياغة الأمثال قد عُتبت بموضوع واحد هو الدين وثماره الأخلاقية . هذا هو الدين الوحيد الذي يدين به العالم لليهودية .

٢ - ولم تكن اليهودية ديناً طقسياً وحسب ، بل كانت أيضاً ديناً أخلاقياً .

فالأنبياء قد سفّوها عبادات الشعوب الأخرى الحبيطة بهم إذ رأوها مناقضة للأخلاق القويمية، وسلقوا بالسنة حادة عبادة الأوثان، وصنع التماثيل ، والذباح المادية ، مما حسبوه مكرهه وسبّة للدين . على أن الشعب في فترات عديدة من التاريخ قد تمرد على نواهي الأنبياء ، وتمرغ في كثير من ألوان الفساد وعبادة الأوثان والتنكر لمبادئ الحق والعدل .

٣ - واليهودية في العهد القديم سارت في تطور . وهذا التطور التدريجي في الأساليب والتفكير كان من المميزات الخاصة التي نراها ماثلة في طرق الله مع هذا الشعب . وكأنما الله قد أخذ بيد الإنسان البشري ، وسار به خطوة خطوة إلى هدف معين . وعلى هذا الأساس فهموا المشاكل الأدبية التي تضمنها العهد القديم . وحين فكروا في الوصايا المنسوبة لله - كأمر الله لابراهيم أن يقدم ابنه ذبيحة ، أو الأوامر الأخرى بتضحية شعوب بأسرها - التي لا

يصح نسبتها إلى الله في أيام الاستنارة الروحية ، فهموا أن الشعب كان يرتقى صعداً في أطوار نحو هدف اسمى . ومما يبرر هذه الطريقة الالهية في التطور أن الإنسان مستطيع الآن أن يستنكر بإسم الله بعض الشرائع التي قبلها الناس في عهود البداوة الأولى ، مثل الذبائح الحيوانية والنباتية . واعتقادنا ان الله لا يرضى اليوم عن كثير من تلك الاحكام والفرائض التي سنّها العهد القديم شريعة لأقوام بدائية ...

فمثلاً نحسب فكرة عاموس النبي عن يهوه ، إله العالم كله ، والديان العادل لكل شعوب الارض ، تقدماً عظيماً وارتقاءً رائعاً للفكرة القائلة ان يهوه هو إله شعب إسرائيل وحسب ، له سلطة محدودة ونفوذ قومي لا غير . كذلك نرى هوشع النبي يدين على لسان الله المذبحة الدموية لبيت آخاب الملك ، التي لطنح بها « يا هو » يده . وقد حسبها المؤرخ القديم أمراً صادراً من الله ! وأيضاً نرى فكرة الاقرار بكرامة الفرد ومسئوليته بيزغ نورها في عصر حزقيال فقط ، ومن هنا ينبثق الإحساس بخلود الإنسان وقيامته . على أن التقدم والتطور لم يكن سيراً إلى الامام في كافة الاحوال ، بل كانت هناك الرّدة تارة ، والقهقري إلى الوراء أخرى .

ففي أشعياء (١٩ : ١٩ — ٢٥) نشهد فكرة رائعة واسعة الاتفاق تجعل دين يهوه ديناً عالمياً جامعاً شاملاً يضم مصر وأشور مع إسرائيل سواء بسواء . وفي أشعياء الثانى نقرأ عن شعب يهوه الخادم الذى سيكون بشيراً للعالم قاطبة . وفي سفر يونان يمدّ يهوه يده بالترحاب والغفران لأشد الشعوب لداً في عداوته ، إذا هم تابوا ونابوا وأصغوا إلى ندائه . على أن هذا المستوى الرفيع لم يكن من الميسور الاحتفاظ به . فقد برزت فيما بعد بقربنها قومية ضيقة عاتية ، ناقت إلى سيادة إسرائيل الدموية على الشعوب الاخرى .. وإنّا لنرى مصداقاً

لهذه النعمة في مزامير سليمان الفريسيّة — التي يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠ ق . م .
فضلاً عن هذا فإن سلسلة الأنبياء قد انتهت بالغزو الفارسي ، وبطلت النبوة .
ولم يكن خليفة الأنبياء كهنة الهيكل ، بل كتبة الناموس والشرعة الذين
شفلوا بالشرح والتأويل والاجتهاد في أسفار موسى ، حتى أخرجوا للشعب شبكة
معقدة من الاوامر والنواهي السخيفة غطت كل الحياة اليهودية ، وباتت
الطقسية الجامدة الضيقة بديلاً عن الوحي والإلهام في سعة من الافق وروحانية
في الفكر .

حقاً لم يكن دين إسرائيل في القرون التي سبقت مجيء المسيح على أفضل
أوضاعه ، بل قد تسلط عليه الفريسيون ، وراحوا ينزلون به درجات في
الخصيصة الأسفل .

الله في اليهودية

في رسائل الأنبياء

إذا أردنا أن نعرف ذات الله وطبيعته في اليهودية ، فلا بدّ من دراسة أقوال الأنبياء ، أما تصرفات الشعب والملوك والقادة فقد حادت في فترات كثيرة عن جادة الصواب والحق ، وانغمست في آراء وأفعال لا تمتُّ بصلة إلى وحدانية الله وبرّه وعدله .

لذلك نرى بعض كتّابنا في الشرق يصورون إله العبرانيين ويخلعون عليه أوصافاً حسّية ، لا تتفق والصورة التي رسمها له الأنبياء وهم رسله ودعائه . . . فقالوا مثلاً ان يهوه إلههم اتخذ عمود سحاب نهراً ليهديهم في الطريق ، وعمود نار ليلاً ليضيء لهم (خروج ١٣ : ٢٠ - ٢١) . ويقول بعض العلماء ان هذه لم تكن في الحقيقة ، الا دخاناً متجمعاً من البراكين دفعته الرياح إلى الأمام .

ويقول الدكتور أحمد شلبي في كتابه (مقارنة الأديان - اليهودية ^(١)) ان يهوه إله العبرانيين لم يدّع أنه عالم بكل شيء ، بدليل أنه طلب من بنى اسرائيل ان يميّزوا بيوتهم بدماء الكباش المضحاة لكي لا يخطيء في إنزال الضربات عليهم ^(٢) .

ويقول ان يهوه العبرانيين لم يكن معصوماً ، وكثيراً ما يقع في الخطأ ، ثم يندم على ما فعل ^(٣) . ويهوه يأمر بالسرقة ^(٤) . ويهوه إله قاسٍ مدمر متعصب

(١) مقارنة الأديان — اليهودية صفحة ١٥٥ .

(٢) خروج ١٢ : ٧ .

(٣) خروج ٣٢ : ١٤ وصموئيل الأول ١٥ : ١٠ .

(٤) خروج ٢٢ : ٣ .

لشعبه دون بقية الشعوب ^(١) . وهكذا إلى آخر ما ذكره الكاتب من أوصاف استند فيها إلى آيات في الكتاب المقدس في المراحل الأولى .

وقد قلنا في فصل سابق من هذا الكتاب ان دين العبرانيين جاء تطوراً يتفق مع طبيعة الإنسان ، وان الكتاب المقدس يروى قصة هذا التطور ، وان الأنبياء عابوا هذه التصرفات .

وفي هذا الكتاب - كما قلنا في المقدمة - قد آلفنا على أنفسنا أن نصور الأديان ، لا كما يؤمن بها الكافة والبسطاء وذلك لأن بين جماهير الكافة في كل نظام من النظم الدينية ، لا نرى إلا قليلاً مما نقدر على إخراجه من دائرة الوثنية الوضيعة ، والآداب الرخيصة ، والتخوف من الأرواح الشريرة . وفي حكمنا على الأديان لم نراعِ أسوأ ما فيها ، بل أفضل ما بها . ولسنا ننكر أن في كل دين من دلائل المثل العليا ما تستطيع النفس أن تنهض به للوصول إلى الله .

ويهو في رسائل الأنبياء هو الإله الواحد ، خالق الكون كله ، في وحدانية مطلقة لا مكان فيها لشريك معه . هو خالق كل الأشياء ، ما يرى وما لا يرى ، المادية والروحية . ولم تكن رسائل الأنبياء زبد قرائحهم استخلصوها من منطقهم وتفكيرهم ، بل كانت كلام الله أوحى إليهم . ومعنى هذا أن الأقوال التي تفوه بها الأنبياء والاختبارات التي عرفوها ، لم تكن انعكاس أفكارهم ، بل كانت أحاديث تسربت إلى قلوبهم كأنها صوت من الله ذاته ، متميز عن أفكارهم الخاصة ، حتى لقد بدوا أحياناً أنهم يتحدثون إلى الله ، بل يحتجون عليه ويمارضونه ، وأحياناً يتمتعون عن أن يكونوا أدوات لتنفيذ مشيئته .

وهذا الإله المتعالى الذى يفوق كل عقل ، مطلق فى برّه ، وهو لا يطلب من الناس إلاّ البرّ . ويبدو هذا البرّ واضحاً فى دينونته للخطية ، لأنّ الخطية عصيان ضد الله .

ولكن هذا الإله لا يسرّه أن يدين أو يعاقب ، لأنّ برّه محبة ، محبة تفوق محبة الام لوليدها ، أو الزوج لزوجته .

وفى الاطوار الأولى من النبوة والتاريخ ، اقتضت الفكرة على قيام شعب يكرس حياته لعبادة يهوه ، ولم تبرز قيمة الفرد ومسئوليته إلاّ فى الأفراد الذين يمثلون الأمة كالمملوك ، والانبياء ، والكهنة . وكان الدرس الذى تردد صده فى كل مناسبة أنه إذا حفظ الشعب وصايا الله وأحكامه ، وسلك أمامه فى نزاهة وعدل ، فإن النجاح يكون حليفه ، ولكن هذا الإله لا يرضى ابداً ولا موزعاً ، لأنه إله غيور ، وينظر إلى الأمة كوحدة واحدة فى تسلسل اجيالها : « يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه ، ويصنع احساناً إلى ألوف من محبيه وحافظى وصاياه » .

وما أحرانا فى هذا العصر أن نفكر ملياً فى صدق هذا القول . فإذا أردنا أن نحلل عوامل الشقاء والبؤس والفشل التى تصيب الأمم ، ادركنا أن الخطية هى من أهم أسباب النوائب والكوارث التى تحيق بالشعوب — أى إباء مجاميع الشعب عن فعل الصواب ، والتنكر للاستقامة والنزاهة والحق والعدل . أرنا الأمة التى تحفظ شرعة القانون الأدبى ، وتعصم بمبادئ النزاهة والصدق والعدل والتجرد من الانانية ، وتتجلى بضبط النفس فى ملاذها الشهوانية ومطامعها الاشعبية ، وانا اضمن لك زوال أسباب الشقاء والبؤس والفوضى التى تعانىها . ولكن من مأسى التاريخ أن الشعوب تعرف هذه الحقائق ولا نفطن لها ، ولا ترعوى عن غيتها . وفى مثل هذه الأمة يتألم البار مع الاثيم ،

بل لعلّه يتألم أكثر منه ، لأن عصيان الناموس الأدبي يولد كثرة من الآلام والمظالم . كان هذا شأن إسرائيل في القديم ، وأغلب الظن أن هذا سيكون مصيرها في هذا العصر أيضاً !

الحياة الأخرى :

ومن الغريب أنه بينما كان الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت من العقائد التي نادت بها اديان كثيرة في القديم مثل دين الفرس ، فإن أمة إسرائيل لم تلتزم بهذه العقيدة ، في أول عهداها . صحيح أن فكرة غامضة راودت خيالاتهم عن عالم تحفه الظلال للأنفس في شيول ، ولكن هذا العالم السفلي كان مظلماً خارجاً عن سلطان يهوه ، واقتصر دين إسرائيل على الاهتمام بهذا العالم وشئونه . ولعل هذا التركيز على الحياة الحاضرة هو الذي أبقى لليهودية خواصها الأدبية الاخلاقية في الإيمان ببر الله وعدله ، اللذين يجب أن يتزكيا في هذه الحياة . على أن ضغط الأعصاب لم يعد محتملاً ، وفي الاطوار الأخيرة من تطور الدين ، اضطر القوم إلى قبول عقيدة قيامة الأموات والحياة بعد الموت . ولئن يكن لدين الفرس بعض الأثر في هذا التطور ، فانه لا جدال في أن هذه العقيدة كانت في الواقع نمواً داخلياً في هذا الدين . وكان مردّها إلى عوامل ثلاثة :

اولها الاحساس بمدالة الله . وذلك لأن الاختبار البشري أقحم على العقول نتيجة منطقية ، مؤداها أنه لا بد أن يكون لله مجال أوسع من هذا العالم يزكي فيه عدله : « وبعد أن يفنى جلدي هذا وبدون جسدي أرى الله » (ايوب ١٩ : ٢٦) . وقد رسخت هذه العقيدة في عصر الشهداء المكابيين .

الثاني الرقي المضطرد في الدين الشخصي وعلاقة الإنسان بالله ، كما نرى ذلك ماثلاً في سفر المزامير « الله ليس اله أموات ، بل اله أحياء ، لأن الكل يحيمون لله ، . وليس مستساغاً ولا مقبولاً أن انفس البشر التي تستمتع بمثل

هذه الصلة مع الله تنحدر إلى « اللاشئئية » عند الموت . « اما انا فالبرّ انظر وجهك . اشبع إذا استيقظت بشبهك » (مرزور ١٧ : ١٥) .

والثالث توقع مجيء ملكوت الله ، بعد كل أسباب الفشل والخيبة التي عانتها الأمة . فلا يعقل أن الذين جاهدوا وكافحوا وحاربوا وماتوا في سبيل قضية الأمة وتحقيق آمالها ، لا يكون لهم نصيب في ذلك اليوم المجيد . تلك كانت صرخة اشعياء ، حين قال : « تحيا أمواتك . تقوم الجثث . استيقظوا ، ترموا ياسكان التراب » (اشعياء ٢٦ : ١٩) .

دين العهد القديم :

ومع أن الدين في العهد القديم يصل إلى مرتبة عليا في تأييد الكمالات الإنسانية وابرار عدل الله ، ورحمته ، وقدرته ، وعلمه بكل شيء ، فإنه لم يكن كاملا ، وذلك لأنه دين أمة معينة ، وليس ديناً جامعاً للجنس البشري ، وان تكن هذه الفكرة منطوية بين ثناياه في بعض المواقف . وإنّا لنلاحظ القسوة والوحشية في التعبير عن الدينونة الإلهية التي تحيق باعداء إسرائيل . على أنه مع التسليم بهذا النقص في دين العهد القديم ، يجب أن نذكر أن فكرة النقص لم يحاول أحد من الأنبياء اخفاءها ، فكلهم رنوا بأبصارهم إلى يوم أفضل ، إلى نور أكمل ، إلى عهد جديد أكثر رواء وروحانية — هو عهد المسيا (المسيح) .

وقد يصح أن نمثل هذا القول بالنظر إلى الوصايا العشر وهي الأساس الذي بُنى عليه دين العهد القديم وآدابه وأخلاقياته . فتلّك كانت وصايا ناقصة جاء أكثرها في صيغة سلبية ، وقد نقحها وراجعها المسيح نفسه . ولكن حتى مع التسليم بأن المسيح نقحها وراجعها في ضياء روحه ، ونقل مضامينها من العمل الظاهري إلى النوايا الخفية الباطنة وراء هذه الأعمال ، ومن السلبية إلى الإيجابية ، فلن ينكر أحد أنها شملت في الواقع كل الآداب الخاصة والعامة ، وأنها قد

أوفت وأبدعت في تصوير اسمى الأخلاق التي عرفها العالم القديم .
ذلك لأن الوصايا صورت السلطان المطلق للإله الواحد ، وأوجبت العبادة
له وحده دون سواه ، وشجبت كل عبادة للأصنام ، وكل وضع من أوضاع
العبادة التصويرية أو الشكلية المحسوسة ، وفصلت بين دين العبرانيين والأديان
الأخرى التي حفل بها العالم القديم ، وجعلت الحياة وطيدة الأركان مادام يعبد
الناس يهوه البار ، الإله الواحد ، خالق العالمين ، المنزه الذي لا يمكن تصويره بأى
شكل أرضى .

ويبدو الجانب الإيجابي للوصيتين الأوليين في سفر التثنية « كالوصية
الأولى والعظمى » التي ذكرها المسيح . والوصية الثالثة التي تحظر ذكر اسم
الله باطلاً ، قد عمقتها المسيح في شرعة النطق بالصدق المطلق . وتشمل الوصية
الرابعة ثلاث شرائع - شريعة العمل ، وشريعة الراحة في يوم السبت ، وشريعة
المشاركة في إراحة جميع الناس ، بل حتى الحيوانات ، ليكون لها نصيب في هذه
الراحة . وقد ردد بولس هذه الشريعة « إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل
أيضاً » . وشريعة السبت تمثلت في يوم العبادة الأسبوعية يوم الأحد عند
المسيحيين . وشريعة المشاركة التي تعمقت جذورها وامتدت في العهد الجديد ،
نجدتها في وضع ١٨ . ١٩) « تحب قريبك كنفسك ،
وقد ردها المسيح كما هي بنصها .

واكرام والدين - وهي شريعة تشترك فيها اليهودية مع الكنفوشية -
قد تأيدت وامتدت في العهد الجديد كنظام اجتماعي عام ، وخضوع متبادل .
أما شريعة القتل فقد ذهب بها المسيح إلى ما هو أبعد وأعرق في معناها ومدلولها
ومظاهرها . كذلك شريعة الزنى التي تطلبت في العهد الجديد الطهارة الكاملة
والقسط على كل الميول الشهوانية الجنسية ، كما تطلبت شريعة السرقة الأمانة
والنزاهة والشرف في المعاملات المتبادلة . وشريعة حظر شهادة الزور فرضت

على اللسان أن لا ينطق إلا بكل كلمة رقيقة رحيمة . أما شريعة عدم اشتهاى متاع
الغير ، فقد استحالت إلى إداة كل نزة للتملك والطمع .
فالوصايا العشر إذا تمثل بلا شك طوراً ناقصاً فى التربية الدينية الأخلاقية ،
ولكن فى المسيحية قد تعمقت جذورها ، واتسعت معانيها ، وخلع عليها المسيح
رداءً جديداً من البهاء والرواء .

اليهودية بعد السبي

بدأت الحوادث المثيرة في مستهل القرن الثاني قبل الميلاد تغذى المطارحات والدراسات اليهودية عن الحياة الأخرى ، ولو أن مؤثرات الحياة الفارسية كانت قد تغلغت في اليهودية في القرن الثالث أو ربما القرن الرابع قبل الميلاد . وبعد العود من السبي ظلت اليهودية خاضعة للحكم الفارسي فترة من الزمن ، على الرغم من المعارضة العنيفة التي أبدتها السامريون في الشمال ، بعد أن رفض المسييون المحافظون التعاون مع بقية الشعب في إعادة بناء الهيكل والمدينة . وفي هذه الفترة توطدت أركان الدولة الكهنوتية تحت عزرا ونحميا وخلفائهم من بعدهم . واضطر اليهود إلى طرد زوجاتهم الأجنبية ، وحظر الزواج مع غير اليهود ، وفرضت قواعد حفظ السبت فرضاً صارماً ، وأعيدت عبادة الهيكل كما أعيد تأويلها والاجتهاد فيها وفق آراء المدرسة الكهنوتية على أساس الوحدانية الأخلاقية التي بدأها الأنبياء ، مع طقوس ورسوم ترجع في أصولها الإلهية إلى عصر موسى في البرية ، وجعلت التوراة التي تضمنت في بادئ الأمر أسفار موسى الخمسة — وبعدها اتسعت لتشمل كتابات الأنبياء والمزامير وأسفار العهد القديم جميعها — مرشداً معصوماً للإيمان والسلوك . ثم أقيمت للجامع لقراءة الأسفار المقدسة وشرحها والتبصر بأحكامها . وقد كان الهيكل مركز العبادة ، أما الجمع فكان مكاناً للاجتماع ودراسة الكتاب وشرحه .

وقد اقترنت الحياة الدينية بسلسلة من الأصوام والأعياد مبتدئة بعيد الفصح الذي اقترن أيضاً بالعيد الزراعي — عيد الخبز غير الختمر في فصل الربيع (مارس أو إبريل من كل عام) .

وبعد سبعة أسابيع من هذا التاريخ يحى « عيد الأسابيع » أو باكورة

الثمار، وينتهي بعيد العنصرة في ختام الربيع، وكان إيداناً بنهاية حصاد الشعير وبداية حصاد القمح، وكان في الأصل يحىء في منتصف الصيف. على أن أهم الأعياد الزراعية وآخرها هو عيد رأس السنة الذي كان يقع في اليوم الأول من الشهر السابع (تشرى) في الخريف يوم كان يُنفخ في الأبواق، ويُنادى بيهوه ملكاً في حفل تتويج رائع. وبعد هذا التاريخ بعشرة أيام كان يحىء «يوم الكفارة»، وهو اليوم الذي كانت الأمة تكفر فيه عن ذنوبها التي اقترفتها في العام المنصرم بطريقة جماعية، ويوم كان يطهر الهيكل، والمذبح، والكهنة والجماعة كلها بالدم المسفوك (لاويين ١٦ : ١ - ٢٨).

يوم الكفارة :

وهذا الطقس البدائي قد يرجع تاريخه إلى فترة ما قبل السبي، وهو يقوم على طرد الشر إلى ضحية فدائية (ذبيحة خطية)^(١)، وعلى التطهير برش الدم على الأشخاص والأشياء، وهذا طقس وضع أساسه موسى وهرون في البرية بإرشاد إلهي، على أنه لم يذكر في المهد القديم إلا مرة واحدة، ثم ذكر بعد ذلك في القانون الكهنوتي بعد السبي (لاويين ص ١٦).

والظاهر أن هذا الطقس لم يكن معروفاً لدى حزقيال وزكريا، وهما اللذان نظما قواعد الذبائح والأصوام لإحياء لذكرى النوائب والأحداث القومية دون أية إشارة إلى هذا الطقس (حزقيال ٤٥ : ١٨ وزكريا ٨ : ١٩). من ثمَّ يكون تقرير يوم الكفارة لاحقاً لطقس تطهير المقدس في اليوم الأول في كل من الشهرين الأول والسابع، وأغلب الظن بعد عصر عزرا (سنة ٣٩٧ ق. م)، وذلك لأن الصوم المقرر في اليوم الرابع والعشرين من الشهر السابع والمشار إليه في سفر نحميا (٩ : ١، ٢) لا يمتُّ إلى هذا الطقس بأية صلة. على أنه بعد تقرير يوم الكفارة غداً طقساً مرموقاً منيع المكانة في يهودية

(١) اعتقد القوم أن الشر كان يحمله عنهم « تيس مطلق » يسمى « عزازيل »، ثم يأخذه منه شيطان ويلقيه في تيه البرية المقفرة.

الربيين بعد السبي، واقترن بمعمان أخلاقية سامية . فقد علم الرِيثون اليهود (فقهاء الشرع) أن هذا الطقس مع قدرته على التكفير عن كبائر الذنوب التي يقترفها الإنسان بتصلف وعناد ، فإنه لا بد أن يجرى بإخلاص في القلب وتوبة صادقة لكي يحقق الهدف المروم . وكان من آثار السبي أن نضجت وأينعت الفكرة الأخلاقية عن التوبة والغفران التي ألح عليها الأنبياء العبرانيون ، ولكنها تمشياً مع الروح التي سادت اليهودية بعد السبي، اقترنت بطقس بدائي تسنده مبررات وأسانيد إلهية .

عيد المظال :

وتختتم الأعياد الخريفية بعيد المظال، في اليوم الخامس عشر من شهر تشرى حيث كان يقيم العبرانيون في مظلات مصنوعة من « أغصان الأشجار وسعف النخل وصفصاف الوادي » (لاويين ٢٣ : ٤٠) . وقد كانت تلك أهم أحداث السنة ، تعبيراً عن امتنانهم وشكرهم من أجل قطاف الكروم ، وثمار الأرض الخريفية عاماً بعد آخر ، وإحياء لذكرى فضل يهوه عليهم في أيام القدم ، يوم هام أسلافهم على وجوههم في البرية .

ولما كان ذلك العيد رأس سنة « في آخر السنة » (خروج ٣٤ : ٢٢) فرمما كان قريب الشبه في أغراضه وأهدافه بذلك العيد السنوي الذي عرفته الحضارات الزراعية في الشرق الأوسط ، يوم كانوا يحتفون بيوم قيامة إله الزرع والحصاد . ومما لا شك فيه أن بعض المزامير التي اقترنت به توحى بتتويج يهوه ملكاً لضمان تهطال المطر في السنة الحالية (مزمور ٦٥ : ٩ - ١٣ و ١٠٤ : ١٣ و مزمور ٤٧ و ٦٨ و ٧٤ : ١٦ و مزمور ٢٤ - أنظر أيضاً زكريا ١٤ : ٦) وإعلان نصرته على قوى الموت .

ولما كانت قلة من هذه المزامير يرجع تاريخها إلى ما قبل السبي ، فإنها

لا تلقى إلا قليلا من الضياء على أهمية هذا العيد في عهد الملكية ، إلا إذا حسبناه مجرد تراث من عقائد وممارسات في تاريخ مبكر .

الاسفار المقدسة في اليهودية

كان هدف المسؤولين عن بناء نظام اجتماعى منسق وطيد الأركان على دعائم قومية صلبة ، أن ينشئوا جماعة كهنوتية تيوقراطية على رأسها رئيس الكهنة ، الذى يدعى تحدّره من السكاكن الملكى صادق ، وقد زعموا أن هذا من سلالة هرون أخى موسى . وتحت إشرافه كهنوت الهيكل وسدنته من اللاويين . على أنه بعد أن ذاعت وتطورت الكتابات المقدسة ، وزاد اهتمام القوم بالتوراة ، ظهر بين طبقات المجتمع الدينى فئة مستقلة أخرى تولّت نسخ هذه الكتابات وشرحها — وأولئك هم « الكتبة » . وقد صار بعضهم معلمين فى الجامع ، وبالتالى من الأبحار الربيين ، وكانت مهمتهم شرح الأسفار العبرية باللغة الآرامية ، وقد كانت لغة الشعب فى فلسطين وسورية . وعلى مرّ الزمن ظهرت ترجمة آرامية سميت « الترجوم » ، كما بدىء بترجمة يونانية — هى الترجمة السبعينية — فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وأستكملت حوالى القرن الأول قبل الميلاد .

وكان من آثار هذا النشاط فى الكتابة والنقل أن جمع الكتبة والكتبة الكتاب المقدس العبرى (أى العهد القديم) ، كما هو الآن بين أيدينا ، وذاع استعماله وقراءته فى الجامع بمعرفة الربيين والأبحار . وقد قسم اليهود كتابهم المقدس إلى أقسام ثلاثة :

١ - « الناموس » أى التوراة - وهو الذى يشمل الأسفار الخمسة الأولى فى العهد القديم ، الذى كتبها موسى كما يقولون .

٢ - « الأنبياء » وهم الأنبياء المتقدمون (يشوع والقضاة وصموئيل

الأول والثانى ، والملوك الأول والثانى)، والأنبياء المتأخرون (وهم أشعياء وأرمياء وحزقيال وصغار الأنبياء الاثنى عشر) .

٣ - « الكتابات » (وهى الزمير والأمثال وسفر أيوب ونشيد الأنشاد وراعوث والمرائى والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا وأخبار الأيام الأولى والثانية).

وتحت تأثير الحركة الهلينية (اليونانية) التى سادت منطقة الشرق الأوسط عقب غزوات الأسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وتغلغل الفكر اليونانى والثقافة اليونانية ، بزغت فكرة تنظيم وتقنين الأسفار المقدسة العبرية للتمييز بين الأسفار المقدسة وأسفار الأبوكريفا (غير القانونية) ، التى كانت قد انتشرت حوالى سنة ٢٠٠ ق . م . وكان الكتاب المقدس اليونانى (الترجمة السبعينية) قد تضمنت أسفار الأبوكريفا هذه (وهى عزرا الأول ، عزرا الثانى . يهوديت . طويث . تنمة سفر استير . الحكمة . يشوع ابن سيراخ . باروخ النبى . رسالة أرمياء . نشيد الفتيان الثلاثة . قصة سوسنة . قصة بعل والتنين . صلاة منسى . سفر المكابيين الأول . سفر المكابيين الثانى) .

و « الأبوكريفا كلمة يونانية معناها « خفى » واستعملت أيضاً بمعنى غامض أو سر^(١) . وبعض الكنائس المسيحية تقرأها فقط للإفادة وتهذيب الأخلاق .

والوحى فى نظر اليهودى هو إعلان إرادة الله وقصده فى مواقف تاريخية صريحة بتدخله الإلهى فى سير الحوادث وتوجيهها . وادعى الأنبياء

(١) من أراد الاستزادة من فهم هذه الأسفار وتاريخها فليرجع إلى « المدخل إلى الكتاب المقدس ، للمؤلف صفحة ١٧٩ وما بعدها .

العبرانيون أنهم لسان حال يهوه، فقدّموا رسائلهم بقولهم « هكذا قال الرب »، اعتقاداً منهم أنهم يقدمون للناس رسالة مباشرة من الله . على أنهم لم يهتموا إلا قليلاً بالإنباء بأحداث المستقبل ، أو إعلان المبادئ . والأحكام الدينية والأدبية . أما أسفار الأبوكريفا فقد تبسّطت وتوسّعت في موضوع الحياة الأخرى والدينونة والسماء وجهنم ونهاية العالم . ويذهب بعض المفكرين إلى أن هذه الكتابات قد تأثرت في تفكيرها ومتجهاً بها بالإلتهابات الفارسية ، كما يؤخذ من كثير في تفاصيلها (راجع دين زرادشت في هذا الكتاب) .

عصر السكابين

بعد سقوط فلسطين تحت حكم السلوقيين — أو العنصر الاسيوي (السوري) في الإمبراطورية المكدونية — سنة ١٩٨ ق . م . زاد الضغط على اليهود لاعتناق طريق الحياة اليونانية، والدين اليوناني . ولما جلس انتيخوس ابيفانوس على العرش في سنة ١٧٥ ق . م . حاول أرغامهم بالقوة والعنف على عبادة الآلهة اليونانية — زيوس وديونيسيوس — وحرّم عليهم حفظ يوم السبت ، وختان أطفالهم ، وقراءة الاسفار العبرية المقدسة . وقد تورط في هذا الإغاثات حتى اقام مذبحاً للاله زيوس في هيكل أورشليم ، وقدم عليه محرقات وذبائح من الخنازير ، وهي أكثر الحيوانات تدنيساً في نظر اليهودي . ولما طلب من كاهن شيخ يدعى « متياس » أن يقدّم هذه الذبيحة الدينية على مذبح قريته « مودين » ، ذبح الوالى الموفد من قبل الملك ، وشقّ عصا الطاعة علناً ، ورفع لواء العصيان الثورى الذى حمّله من بعده أولاده الثلاثة — يهوذا ويوناثان وسمعان — وأفلحت الثورة في استعادة استقلال فلسطين ، على أن نزعاً داخلياً وحرّاً أهلية نشبت بين خلفائهم ، حتى اضطّر الرومان للتدخل وحفظ النظام . وفي سنة ٦٣ ق . م . اخضعوا البلاد لحكمهم كجزء من ولاية سورية .

وفي بداية العصر السلوقي (في سنة ١٩٨ ق.م.) كُتِب سفر دانيال الذي يصف « الرّجس الخرب » الذي اقترفه انتيخوس الذي سُمّي « القرن الصغير » ، وفيه تجسّمت قوة الشر . وقد روى سفر المكابيين ، من اسفار الابوكريفا ، قصة الثورة وما تلاها من أحداث . ومع أنه في أزمنة الازمات تتجه أفكار البشر إلى الرّؤى والاحلام ، فإن الرّؤى اليهودية لم تنسجم تمامًا مع الرّؤى الفارسية . والحديث عن الأخرويات في سفر دانيال يتميز عن كتابات الانبياء المتأخرين ، وفيه يظهر رؤساء الملائكة ميخائيل وجبرائيل معًا مع يوريل ورفائيل في اسفار الأبوكريفا . كما أن الرجاء في مجيء المسّيّا الذي قوى في اليهودية بعد السبي ، والاتجاه الثنائي الذي تمثل في وجود مصدر شخصي للشر — يدلان على تبنى أفكار جديدة لها تاريخها التقليدي البعيد عن المؤثرات الفارسية إلى حد ما . على أنه بعد عصر المكابيين تشبّع الفكر اليهودي في أسفار الأبوكريفا بالآراء والأفكار الفارسية عن عالم الآخرة .

الاحزاب والطوائف اليهودية

بعد الثورة المكابية ، والاستقلال المؤقت ، وصدّ الثقافة اليونانية عن التغلغل في حياة الامة ، أصبح التوراة السلطة العليا التي دان لها الشعب . وعُرف غلاة المتزمتين والتمسكين بالتقاليد القومية ، بلقب «شاسديم Chasidim ، أي الاتقياء ، وهم الذين تميّزوا بغيرتهم على الناموس في أيام الاضطهاد المريعة التي عانوها تحت حكم انتيخوس ابيفانوس ، وآثروا الموت جماعة في حالة البر عن تدنيس يوم السبت — على حد قول سفر المكابيين . ومن هؤلاء نبت الفريسيون كحزب يهودي ، محافظ شديد الولاء للناموس ، وامتزمت في حفظ التقاليد الشفوية المتواترة بمثابة توراة غير مسطور . وتحالفهم في هذا فئة أخرى ، لها وزنها وقدرها ، هم جماعة الصدوقيين الذين نبذوا التقاليد والاحاديث كأن لا سند لها . وقد احتدم النزاع بينهم حتى انتهى بالقطيعة

والإنفصال الذى استمر حتى سقوط أورشليم سنة ٧٠ م . يوم قُضى على الصدوقيين القضاء الاخير .

أما الفريسيون فقد اعتصموا بالأراء عن مجيء المسيحيا التى جاءت فى أسفار الابوكريفا ، وقيامه الاموات والدينونة الاخيرة وفق المصطلحات الفارسية ، وشددوا على التطهير الطقسى ، وعلى الدين الشخصى فى البيت وفى الحياة . ومع أن بشارت الإنجيل تصورهم بألوان قائمة ، ويسلقهم التلمود بأعنف النفوت واقسى الاوصاف ، إلا انهم كانوا موضع التقدير والاحترام خلال القرن الأول بعد الميلاد ، ونشطوا فى الدعاية لدينهم حتى كانوا يجوبون البر والبحر لاكتساب الدخلاء إلى دينهم (متى ٢٣ : ١٥) . والحق أن بقاء اليهودية كدين أخلاقى بعد دمار أورشليم إنما يرجع إلى ثبات أركانه التى وضعوهاهم فى صلابة وترمت . وقد كانوا فئة « انفصالية » أشبه بالمعتزلة فى الإسلام ، وحركة الطهورين فى المسيحية ، إلا أنهم ركبوا متن الشطط فى ضيق الفكر ، والتزمت العنيف ، واحتكار التقوى لأنفسهم دون سواهم ، كمدرسة قائمة بذاتها بأرائها وممارساتها . ومهما يكن من أمر ، فقد استمسكوا بلا شك بالبر الذاتى فى تقاليدهم وتصرفاتهم .

وبينما كان الفريسيون جماعة من العلمانيين الغيورين ، عاشوا وعملوا فى اورشليم وما جاورها من مدن ، فإن الصدوقيين كانوا فئة ارسقراطية كهنوتية من ذوى الاملاك ، محافظين بالطبيعة فى آرائهم ونظراتهم ، مستمسكين بالناموس دون سواه ، ونبدوا التقاليد والأحكام التى اجتهد فى استنباطها فقهاء الشريعة وأشياخ الدين ، مما حسبوه « تورا » غير مسطورة . كذلك نبدوا الآراء الدخيلة التى حفلت بها اسفار الابوكريفا غير القانونية ، ولم يؤمنوا بقيامه الاجساد . ولم يكن لهم فى جماهير الشعب إلا ضئيل الأثر ، وذلك لأن الجماهير العادية لجأت إلى الفريسيين الذين استأثروا بعواطف الشعب ، اما

الجماهير التي تشبعت بالحلماس الوطني، فقد مالت اما إلى الهراصة لتوطيد حكم هيرودس، أو إلى الغيورين المناضلين فوق تلال الجليل الشمالية ، وهم الذين آلوا على أنفسهم خلع النير الرومانى بالقوة والعنف .

وفئة قليلة من الناس قطعوا انفسهم كلية عن العالم وشئونهِ ، وتسحبوا من مفسده وشروره، واعتزلوا في البرية شرق نهر الأردن ، أو في القرى تاهباً لمحجىء المسّيا ، واولئك هم الاسينيون. وقد تشددوا في حفظ السبت ، وعاشوا حياة مشتركة بينهم ، ونذروا العزوبة ، وصاموا وصلوا ، واتخذوا ممارسات التطهير ، ورفضوا حمل السلاح أو الاندماج في الحياة في أى وضع من اوضاعها. وفي أواخر القرن الأول بعد الميلاد صار جماعة قليلة تلاميذ يسوع الناصرى ، كطائفة من طوائف اليهودية في بادئ الأمر . وسيجىء الحديث عنهم عند الكلام عن المسيحية .

العصر الرومانى

خضعت فلسطين للرومان تحت حكم بومبى سنة ٦٣ ق . م . وألحقت بولاية سورية الرومانية . ومن ذلك العهد حتى سقوط أورشليم سنة ٧٠ ب.م. قوى الرجاء في مجيىء المسيا (المسيح) ، واشترأبت أعناق الشعب وزاد توقه لتحقيق هذا الوعد . وكان لهذا الانتظار المشبع بنفاد الصبر أثره في حالة القلق والاضطراب التي سادت تلك الفترة من التاريخ . ومع أن القوم قد استاءوا من حكم الرومان واستنكروه ، فإن قيصر رومية نفسه كان في أول الأمر شخصية موقرة بسبب حسن معاملته لليهود في ارجاء الإمبراطورية الرومانية. على أن تعيين «انتيابتر الأدومى» حاكماً محلياً، وبعده هيرودس الكبير (٣٧ ق.م — ٤ ب.م) بعد موت قيصر — قد أثار غضب اليهود وحقدهم الشديد . ولم تهدأ نائزتهم بعد أن حكم أولاده — ارخيلائوس

وفيابس وانتيباس على اليهودية ، وبعدهم اغريباس حفيد هيرودس الكبير . ومع أن ولده — وقد سُمّي على اسمه — مُنح لقب ملك ، فإن الموقف لم يتغير . واخيراً خضعت اليهودية لحكم الولاة الموفدين من قبل رومية ، وبينهم بيلاطس البنطى الذى خلّد التاريخ اسمه لمساهمة فى صلب المسيح . وقد عملت سياسته المتأرجحة — كما بدا ذلك فى أثناء محاكمة المسيح كما جاء فى الانجيل — على تفاقم الموقف وشدة الاضطراب ، وانتهى الأمر بسقوطه . ولم يفلح خلفاؤه فى ازالة أسباب القلق والتوتر ، حتى حلتّ الضربة القاصمة ، وثار الحرب ضد رومية سنة ٦٦ ب . م فاضطر الرومان سنة ٧٠ ب . م إلى تدمير أورشليم ، والقضاء نهائياً على السكان اليهودى فى فلسطين .

يهودية الاحبار الربيين

بعد خراب أورشليم انتهت عبادة الهيكل وذبائحه وكهنوته ، وانحلت الأحزاب — الصدوقيون والفيورون والهرادسة والاسينيون . أما الفريسيون فقد ظلوا أحياء ، فما كانوا حزباً سياسياً ولا طائفة دينية ، وكانت علة وجودهم ومدار اهتمامهم شرح الناموس غير المكتوب ، بما تضمنه من أحكام وقواعد لا تقع تحت حصر . أما الكتبة فكانوا فقهاء الشريعة ، وأكثرهم فريسيون ، لذلك لم يتورطوا فى المشاكل السياسية ، وكثيرون منهم لاذوا بالفرار إلى اللدّ وجامينا . وفى اللدّ انشئت مدرسة زاهرة للكتبة تحت اشراف « التقليديين » أو « المعلمين » (الربيين) ، أمثال الحبر أليعازر ، والحبر عقيمه . أما فى « جامينا » المدينة الساحلية ، فقد انشأ الحبر يوحنا بن زكاى « داراً للعلم » . وكان هذا من جهاذة رجال الشرع ، ومن تلاميذ « هلايل » رئيس مدرسة شهيرة للربيين فى أورشليم من سنة ٦٠ ق . م . إلى سنة ١٠ ب . م . وكان « هلايل » هذا قد رحل من أورشليم إلى بابل ، واتسع آفاق

تفكيره ، وجاهد في أن تكون الشرائع وفق الظروف المتغيرة ، وحاجات الشعب ومطالبه ، وأن تتمشى مع أحكام الاسفار المقدسة . وكان في هذا الموقف يناقض زميله المحافظ المتزمت « شمعى » . وقد ظل الجدل محتدماً بين المدرستين إلى ما بعد سقوط أورشليم . وبعدها فاز أنصار « هلايل » بالغلبة وتضاءلت نظريات « شمعى » ، وكان الفضل في ذلك راجعاً إلى نفوذ « يوحنا بن زكاي » وسعة سلطانه ، إذ وقف إلى جانبهم يناصرهم . وبعد أن صار زعيم الفريسيين المتحررين أنصار الآراء التقدمية ، حاول أن يصون ممارسات الناموس التي امكن تنفيذها (مثل حفظ السبت والختان والاجراءات المنزلية الطقسية) ، وأن يكيّف أحكام اليهودية وفق مقتضيات الزمن والظروف المتغيرة بعد توقف عبادة الهيكل . وغدت عقيدة القيامة من الأموات من العقائد الصحيحة المسلّم بها وفق أحكام التوراة . من ثمّ حسب الصدوقيون الذين ينكرونها من الهراطقة الملحدّين . وقد ثارت أيضاً مناقشات حامية بين مدرستي شمعى وهلايل حول صلاحية سفرى الجامعة ونشيد الانشاد للاندماج ضمن اسفار الكتاب المقدس القانونية ، وقد تم الفوز لانصار هلايل ، وحسب السفيران من الاسفار القانونية ، ومثلها سفرا الامثال واستير . أما سفر « حكمة يشوع بن سيراخ » والكتابات المقدسة اللاحقة ، فقد حسبت غير قانونية .

وعوضاً عن مجمع السنهدريم الذى انقضى أجله بعد سقوط أورشليم ، انشئت محكمة خاصة يرأسها « بطريك » ، اعترف به الرومان رئيساً أعلى للجماعات اليهودية المشتتة . وتحت اشراف هذه المحكمة استمرت مدرسة جامينا في تنسيق وشرح الأسفار المقدسة والتقاليد . وقد كانت هناك مواد مبعثة وتعليقات شفوية متواترة على التوراة ، تعالج الطقوس الدينية والقانونية وتنظم الحياة اليومية . وقد تم جمع هذه كلها وتبويبها وتنسيقها باللغة العبرية الفصحى .

المشنا :

«المشنا» كلمة معناها «تكرار»، وهي تشمل كل تعاليم وتعليقات وتفسيرات الرّيبّين أى تفسير الأسفار المقدسة، وأحكام الفاموس غير المسطور المستنبطة منها، والقواعد المفصلة الدينية والأدبية التي تنظم الحياة كلها بأدق التفاصيل وأكثرها اسماءً. وقد كان لكل مدرسة «المشنا» الخاصة بها، إلى أن جاء بطريك اليهودية الفلسطينية يهوذا الأول (١٦٤ — ٢١٧ ب. م) ونسق المواد غير المتجانسة تحت ستة أبواب في نحو ستين فرعاً. وقد ظفرت هذه «المشنا الكبرى» بسلطان قوى، لا في فلسطين فقط، بل في بابل أيضاً، بحيث صارت قانوناً رسمياً لليهود، لا يفضلها إلا التوراة، وهي تعالج أدق تفاصيل الحياة اليهودية، كما وضعها فقهاء الشرع وعلماء الفاموس.

التلمود :

وحدث بعد ذلك اجتهاد آخر أسموه «تكملة» أو «مبحثاً»، فيه جمع فقهاء بابل وعلمائوها كل القواعد والممارسات الدينية والقانونية باللغة الآرامية والعبرية، التي لم يسبق تدوينها، وأضافوها إلى «المشنا» لتكوّن معا «التلمود» اليهودي. واللفظة «تلمود» مشتقة من لفظة عبرية «Lamad» ومعناها «يتعلم» أو يعلم. وبدأ العمل في التلمود في مدينة طبرية في مدرسة يوحنا الذي توفي سنة ٢٧٩ ب. م. على أنه لم يفرغ منه إلا في القرن الرابع. وفي الوقت عينه جمع الحبر «أشي» (٣٥٢ — ٤٢٧ ب. م) وتبعه الحبر «رايينا» (٤٩٩ م) تلموداً ثانياً باللغة الآرامية، بمقتبسات عبرية نقلها عن قدامى علماء الشرع، ليصحح بها بعض الأخطاء في النسخة الفلسطينية. وهو في وضعه الحالي يعادل أربعة أمثال التلمود الفلسطيني، من حيث حجمه ومحتوياته، وذلك لأنه يشتمل على ٢٩٤٧ صفحة. وقد كان لهذا التلمود أثر بالغ على اليهودية في كل تاريخها، وكان بمثابة مرسة تشبّث بها القوم في تجاربهم وضيقاتهم التي عانوها.

وفي القرن السابع الميلادي ، هبّت عاصفة اضطهاد اليهود من بيزنطة في الشرق إلى أسبانيا في الغرب . وإذ ينتشر اليهود في أنحاء أوربا ، يتفاقم العداء بينهم وبين المسيحيين . وفي ما بين النهرين يضطر اليهود إلى الهجرة إلى شمال أفريقيا ، وإلى أسبانيا في القرنين العاشر والحادي عشر ، إبان انتصار العرب وفتوحاتهم في تلك الأصقاع ، وقد حملوا معهم العلوم غير التلمودية المتحررة من المدارس البابلية وعلوم العرب وثقافتهم . وازدهرت في قرطبة بأسبانيا هذه العلوم اليهودية الجديدة ، وقد نبذت التقاليد وأحكام التلمود ، وحسبت العهد القديم من الكتاب المقدس المصدر الوحيد لكل المعرفة والممارسات والطقوس الدينية . وفي قرطبة ولد الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون سنة ١١٣٥ م ولكنه اضطر تحت وطأة الاضطهاد أن يهرب إلى القاهرة . وهناك حاول أن ينظم مجموعة التقاليد ، واختصر « المشنا » إلى ثلاث عشرة عقيدة أساسية ، ووضع تفسيراً عقلياً للأسفار المقدسة . وفي كتابه « مرشد الحيران » الذي كتبه أولاً باللغة العربية ، ثم نقل بعد ذلك إلى اللغة العبرية القديمة ، أخضع اليهودية لأضواء الفكر الحديث والبحث العلمي ، على طريقة أرسطو فيلسوف الإغريق وابن رشد الفيلسوف العربي . وإن يكن هذا التصرف قد أثار عاصفة من الجدل المرير الطويل بينه وبين المحافظين على نصوص التلمود ، فإن حركته بلا شك ، كانت أبرز المحاولات وأبعدها أثراً من جانب العلماء اليهود لمواجهة التحديات العقلية والفكرية التي برزت في عالم الفكر الإنساني في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

الكبالة : The Kabbala

واليهودية عامة لم تبدِ ميلاً للتصوف ولا للفلسفة العقلية . وقبل القرن التاسع الميلادي لم يكن في الأدب العبراني أثر لأي تعليم صوفي . ولم تظهر الحركة

التصوفية إلا في القرن الثالث عشر ، حيث نلمح ظواهر للبحث وراء الحكمة الخفية السرية والعلوم الباطنية والسكامة العبرية « كَبَّالًا » (ومعناها « الذي يُسَلِّم ») كانت تستعمل فقط للدلالة على التقاليد المستنبطة من الأسفار المقدسة ، على أن بعض الكتّاب مثل موسى بن نَحْمَان (١١٩٥ — ١٢٧٠) وموسى ده ليون (١٢٥٠ — ١٣٠٥) ، قد استعملوها مقترنة بتقاليد ثيوصوفية وانطلق معناها على العقائد السرية الخفية المتعلقة بذات الله وعلاقته بالعالم . وكان المفروض أن الألفاظ والأرقام الكتابية ذات معنى أعمق . على أنهم اتخذوا من مذهب العارفين ^(١) فكرة المخلوقات للملائكية الوسيطة ، كما اتخذوا من الأفلاطونية الحديثة العقيدة القائلة أن كل الكائنات إنما هي نابعة أو منسكبة من الله كذات مطلقة حالّ في الكون ^(٢) . وقالوا إن النفس البشرية كائنة قبل الوجود ، وبعد سلسلة من « التجسّدات » ، مقترنة بالتوبة والروحانية الصوفية تعود إلى مصدرها الإلهي في الله . وكانوا يستعملون الرقي والتعاويذ والتأمّم للحيلولة دون المرض والشروع الأخرى . وكانوا يمارسون العرافة وعلم الغيب بإلقاء القرعة ، ويسندون هذه الممارسة بشواهد من أسفار الكتاب المقدس وأحكام التلمود .

وأهم مؤلف للـكَبَّالَا « هو كتاب البهاء Zohar » ، كتب باللغة الأرامية ونسب خطأ في الطباعة إلى « سيمان بن يوهاي » أحد أحبار القرن الثاني . والواقع أنه مجموعة تمتد إلى فترة طويلة من الزمن في وضع تفسير تصوفى روحاني لأسفار موسى الخمسة . وقد شاع وذاع هذا الكتاب بعد طرد اليهود من أسبانيا سنة ١٤٩٢ وكان أكثر المؤلفات إنتشاراً بين اليهود . وإن يكن تأثيره الآن قد أخذ يتضاءل ، فإنه قد لعب دوراً خطيراً كدائرة معارف شاملة لعقائده وتأملاته وخاصة إبان الاضطهاد . ومما لا شك فيه أن « الكَبَّالَا » قد ايقظت روح

(١) gnosticism أي الذين يعتقدون بأن الخلاص بالمعرفة دون الإيمان .

(٢) Pantheism وهو مذهب وحدة الوجود ، أي وحدة الله والكائنات ،

أو ألوهية الكون ، بمعنى أن الله هو الكائنات . ويقال عنه أحياناً المذهب الحلوى .

الصلاة والروحانية في اليهودية ، ولكنها شجعت في الوقت عينه الخرافات السحرية ، وظهور فئة من الادعياء الكذبة بأنهم المسيا المنتظر . وفي القرن الثامن عشر ظهرت حركة جديدة تدعى « هاسيديم Hasidim » استهدفت لإنهاض الدين الروحي بالتشديد على سكنى الله في قلب الإنسان ، وفي الكون عامة — الدين الذي يدركه المرء بالإيمان، ويكتسبه بالصلاة ومناجاة ربه ، مؤدياً به آخر الامر إلى الاندماج في الالهية .

يهودية العصر الحديث

وفي العصر الحديث ارتفعت الموجة المضادة للسامية، وأحاطت باليهود في وسط أوروبا ، وكانت نذر الخطر قد بدأت في القرن الرابع عشر وما بعده . وكان لهذه الموجة أثرها الذي لم يكن منه بد، ألا وهو خلق حالة عقلية قوامها الانعزالية والجمود. ولما أزيلت الاحرام التي فرضت عليهم، وأعيدت إلى اليهود حقوقهم وإمтиازاتهم المدنية في القرن التاسع عشر ، انفتح الباب على مصراعيه أمام المصلحين مقتفين آثار « موسى مندلسون » (١٧٢٩ - ١٧٨٦) ، وتواقين إلى تحرير اليهودية من أسر التلمود ، وتجديدها وإحيائها بادخال المعرفة الحديثة وأنوار العلوم العصرية . على أن فكرة الإصلاح حسبها المحافظون « أناثيا » وتسلمت على عقول كثيرين ففكرة القومية المتطرفة ، أي العودة إلى « أرض الميعاد ». وما أن ثارت عاصفة الاضطهاد من جديد حتى استيقظت آمال الصهيونية المكبوتة ، وراحت تشدد في مطالبها بشتى الطرق وأعنف الاساليب ، حتى كانت سنة ١٩٤٧ التي انشئت فيها دولة إسرائيل بكل ما خلقتة هذه الدولة من مشا كل دينية، واجتماعية، وثقافية، واقتصادية، وسياسية - أقضت مضاجع العالم العربي - وهي مشا كل آخذة في التفاقم والتفجر عاماً بعد عام .

الإسلام^(١)

مؤسس الدعوة الإسلامية

« في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل (٢٠٠٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيماً ، توفي والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمسة جمال ، وبعض نعاج وجارية ، ويروى أقل من ذلك . وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفي جده ، فكفله من بعده عمه أبو طالب . وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقيم على تربيته مهذب ، ولم يُعَمَّ بنشقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه ، أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوام . فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحداً

(١) قلت في مقدمة هذا الكتاب لاني آليت على نفسي أن أشرح الأديان كما يؤمن بها الخاصة والمتقفون من أهلها . ولم أتعرض للنقد والتطبيق على عقائد الناس . ولذلك استندت في حديثي عن الإسلام لى مقتنيات مما قاله العلماء والأئمة والكتاب أنفسهم .

وهم وثنيون ، سُلماً وهم مشاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً
على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون^(١) . . . »

بدء الوحي :

وظلَّ محمدٌ يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الإثنين السابع عشر من
شهر رمضان وناداه :

— اقرأ

— ما أنا بقارئ

— اقرأ

— ما أنا بقارئ

— اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك
الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم^(٢) .

وكانت هذه أول آيات من القرآن الكريم ، ومن الملاحظ أن هذه
الآيات لم تكلف محمداً بدعوة ، ولم تخبره برسالة ، ولم تكن إلا اعلماً بشيء غير
عادي لم يدرك محمد كنهه ، ولذلك أسرع إلى البيت خائفاً مذعوراً .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه في الغار
وخارج الغار ، وبعد فترة من الانتظار طالت على محمد ، ظهر له جبريل مرة
أخرى ، فظهرت عليه رعدة وفزع ، وسارع إلى بيته في حالة من الخشية ، وقال لأهله :
« ذروني . ذروني ، فدثروه . ولكن جبريل جاءه وهو في هذه الحال وألقى إليه
نداء ربه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز

(١) « رسالة التوحيد » للاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

(٢) سورة الملوك الآيات ١ - ٥ .

فاهجر ، ولا تمن تستكثر ، ولربك فاصبر » ، وأدرك محمد بهذه الآيات مايراد منه ، فهبَّ ينذر الناس ، وبدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد .

وبدأ محمد دعوته بمكة ولكن الدعوة تعثرت ، ووقفت قوى الشر في طريقها ، ولكن محمداً بحث عن طريق آخر تنطلق منه دعوة الإسلام ، فهاجر إلى يثرب ، وحاولت القوة الفاشمة أن تلحق به ، وأن تحطم بالمدينة الدعوة المهاجرة من مكة ، ولكن محمداً قاوم القوة بالقوة ، وخاض معارك حاسمة مع المعتدين ، كتب له في نهايتها النصر المبين .

الله في الإسلام

« جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين . فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً ، متصفاً بما دلَّت عليه آثار صنعه من الصفات العلمية ، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لانسبة بيئه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون . قُلْ هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والأضواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشبهوها فى شيء منها ، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده ^(١) بما شاء من علم وسلطان ، على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبديل ، وحظُر على كل ذى عقل أن لا يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدماته

(١) يعنى الأنبياء .

إلى حكم الحسّ ، وما جاوره من البديهيّات التي لا تنقص عنه في الوضوح ، بل قد تعلموه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو إرتفاعهما معاً ، أو وجوب أن السكل أعظم من الجزء مثلاً . وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نقماً ولا ضراً ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون ، وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص وبتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة .

(رسالة التوحيد للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده)

صفات الله في الإسلام

قصدنا بهذا العنوان « صفات الله » أن نوضح أن ذات الله توصف ولا تدرك ، فالله سبحانه وتعالى خالق الكون ، وطبيعة الخالق مخالفة لطبيعة المخلوق ، كما يختلف النجار عن الباب الذي يصنعه ، وعلى هذا يرشد القرآن إلى معرفة الله بأناره الدالة على صفاته ، وكال جلاله وجماله ، وتنزهه عن المماثلة لخلقه ، أو الاتحاد ، أو الحلول في شيء مما خلق ، وأوصد أمامه باب التطلع إلى معرفة حقيقة وذاته وصرفه عن محاولة التفكير في هذا الباب . . . والمعجز عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله ، وهو نفسه برهان على سمو الالهية الحقّة عن الدخول في دائرة التفكير العقلي المحدود بطبيعته ، والذي لا يجد مجالاً لتخطّي ما وراء الكون^(١) .

ويقول الإمام الأكبر محمد عبده أن النظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ، ويغني للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره ، وعليها تجلّت أنواره . . . وأما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتفاء من جهة ، وهو ممتنع على العقل

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت / الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٠

البشرى، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين، ولاستحالة التركيب في ذاته، وتطاول إلى ما لم تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد، ولأنه تحديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره.^(١)

وقد قال القرآن الكريم موضحاً ذلك المعنى « ليس كمثله شيء »^(٢) وقال « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »^(٣). وقال « ولا يحيطون به علماً »^(٤). وقد قال النبي محمد « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ». وقال أيضاً « تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله ».

أما صفات الله كما يراها الإسلام فإن مصدرها القرآن الكريم، وهي في مجموعها تصور الكمال المطلق، وليس للمسلم أن يناجى ربه بإسم أو صفة لم يضعه الله لنفسه، فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثاره وصفاته^(٥) وإليك آيات من القرآن الكريم تحمل بعض صفات الله :

— بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين^(٦) — والله الأسماء الحسنى فادعوه بها^(٧).

— تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا اله إلا هو إليه المصير^(٨).

— يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور^(٩).

(١) رسالة التوحيد صفحة ٤٨ — ٤٩ . (٢) سورة الشورى الآية ١١ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣ . (٤) سورة طه الآية ١١ .

(٥) الشيخ محمود شلتوت / الإسلام عقيدة وشرعية ص ١٩ .

(٦) سورة الفاتحة الآية ١ — ٤ . (٧) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٨) سورة غافر الآية ٢ — ٣ . (٩) سورة غافر الآية ١٩ .

— هو الله الذى لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الله الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحانه الله عما يشكرون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى، يسبِّح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم^(١).

— إن بطش ربك لشديد، انه هو يبدىء ويعيد، وهو الغفور الودود، ذو العرش المجيد فعال لما يريد^(٢).

— وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق، ويوم يقول كن فيكون، قوله الحق، وله الملك يوم ينفخ فى الصور، عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير^(٣).

— سبِّح اسم ربك الأعلى، الذى خلق فسوَّى، والذى قدَّر فهدى، والذى أخرج المرعى^(٤).

— ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم^(٥).

[مقارنة الأديان - الإسلام - للدكتور أحمد شلبى صفحة ٨٨]

عبادات الإسلام

عبادات الإسلام تنحصر فى أربعة أنواع: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج.

والصلوات المفروضة خمس صلوات فى اليوم واللييلة: هى صلاة الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

وهناك صلاة أخرى تسمى فرض كفاية، أى أن أداءها من بعض المسلمين يعنى الآخرين من القيام بها، وهى صلاة الجنازة.

(١) سورة الحشر الآية ٢٢ - ٢٤ . (٢) سورة البروج الآية ١٢ - ١٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٢٣ . (٤) سورة الأعلى الآية ١ - ٦ .

(٥) سورة السجدة الآية ٦ .

وهناك صلوات مندوبة كصلاة العيدين والنوافل . ولا بد من الطهارة قبل الصلاة ، وهى تقضى بالاستحجام عند حدوث مضاجعة جنسية ، أو بالوضوء فقط فى غير هذه الحالة .

والزكاة خمسة أنواع هى : النقد (الذهب والفضة) ، وعروض التجارة والسوائيم والزروع والثمار . ويشترط لوجوب الزكاة فى كل من هذه الأنواع أن يصل المال إلى مقدار معين جعله الشارع دليلاً على الفنى واليسار . فإذا لم يصل المال إلى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه . ويشترط كذلك الحول والنماء ، وأن تكون الماشية سائمة ، وأن تبلغ الزروع حدّ قوتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحها .

والصوم هو الإمتناع عن الأكل والشرب والاختلاط الجنسى من الفجر إلى غروب الشمس . وهو فرض خلال شهر رمضان على المسلم البالغ القادر الذى ليس له عذر شرعى ، كالمرض أو السفر أو الشيخوخة أو حيض المرأة أو نفاسها .

والحج هو قصد البيت الحرام بمكة للعبادة فى وقت معين ، هو شهر ذى الحجة ، على أن يتم الوقوف بعرفة فى التاسع من هذا الشهر ، وينتهى الحج بالطواف حول بيت الله الحرام بمكة . ويجب الحج مرة فى العمر . وكثيراً ما تخفف هذه العبادات ، وكثيراً ما تسقط على النحو الواضح فى كتب الفقه . فالصلاة للمريض يمكن أن تؤدى وهو قاعد أو وهو مضطجع ، ويمكن أن تؤدى حتى بإيماءات خفيفة أو برمش العين . فالنحو فقط أن يظل المسلم على صلة بربه فى صحته ومرضه ، وتُجمع الصلاة وتقتصر للمسافر ، وتسقط على الحائض والنفساء .

ولا تجب الزكاة إلا على القادر الذى وجد عنده النصاب ، ولا يعتبر النصاب كاملاً إلا بعد تقدير إسقاط الديون . ويرى بعض العلماء أن الزكاة

لا تجب على الفنى إلا فيما فضل عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم .
ويؤجل الصوم فى حالة المرض والسفر والحيض والنفاس ، وتستبدل به
كفارة فى حالة الشيخوخة .
ولا يجب الحج إلا على القادر عليه ، من حيث الصحة والتكاليف
وأمن الطريق .

العقيدة الإسلامية فى الآخريات

يؤمن الإسلام - كما تؤمن اليهودية المتأخرة ، والمسيحية ، وكما يؤمن أتباع
زرادشت - بالحياة الأخرى بعد الموت . فالمؤمن يذهب بعد موته إلى فردوس ،
وصفته الأحاديث بمصطلحات دنيوية ، فيه من اللذات والمتع ما تشبهه النفس ،
ومعاينة وجه الله ليلاً ونهاراً . وعلى نقيض هذا الفردوس جهنم النار بأقسامها
السبعة المخصصة على التوالي : للمسلمين غير المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ،
والصائبة ، والجوس ، وعبداء الأوثان ، والمرائين - حيث يلقون عذاباً أبدياً .
أما المصير الإنسانى فقد سبق تقريره ، وكتب فى لوحات خالدة ، وما قدّر
يكون . أما الأنبياء والشهداء فصيرهم إلى الفردوس حتماً ، ويفلتون من يوم
الدينونة يوم ييوق رئيس الملائكة اسرافيل بالبوق ثلاث مرات .

وفى ذلك اليوم المهوب يعبر الناس على صراط أحد من السيف - (وهذا
ما يؤمن به أيضاً دين زرادشت الفارسى) - وقبل العبور توزن الصالحات
والسيئات التى أتاها الإنسان فى حياته على الأرض ، وتسلم نتيجة الوزن إلى
بد البار اليمنى وتربط على ظهر الشرير . وبهذا يتقدم كل منهم إلى مصيره
الأبدي عن طريق « الصراط » أو (المعبر) . والذين قدّر لهم فردوس النعيم

يمبرون سالمين، وأما المقدّر لهم نار جهنم، فيسقطون في الحفرة وبئس المصير .
ويقال إن عيسى (يسوع) مصحوباً بإمام يسمى « المهدي » سيقدّم الإسلام
دينًا عالميًا ، والذين آمنوا بالرسول ودعوته ينجون من نار جهنم، وينعمون
بفردوس النعيم .

الحديث الإسلامي

لما اتسع الإسلام ، وامتدت حركته إلى كثير من الأرجاء ، أحسّ قوم
أن أحكام القرآن لم تعد كافية لمواجهة الحاجات المتزايدة في عالم جديد . وقد كان
النبي العربي مصدر الوحي في حياته ، وكان المرشد والمشير ، الذي اتجهت إليه
الأنظار والأفكار . وقد حدث بعد موته أن جمعت أقواله في شتى الشئون ،
ونسقت تنسيقاً مبوباً وسميت « الحديث » ، وغدت تلك الأحاديث أساساً
ومرجعاً سمّيت « السنة » ، التي فرض على المسلمين أن يراعوها ويعيشوا على
مقتضاها . على أن الأحاديث التي جمعت على هذا النحو تكاثرت عددها ، بحيث
اضطر العلماء والفقهاء أن يضعوا لها حدوداً ويخضعوها للبحث والدرس ، وقد
قبلوا منها ما حسبوه صحيحاً متواتراً منقولاً عن الصحابة على لسان النبي .

وقد صنفت هذه الأحاديث في كتب الفقه والشريعة ، وكان أول من
جمعها مالك بن أنس (سنة ٧٩٥ م) ، على أنه في القرن التاسع الميلادي صنفت
مجموعة صحيحة قام بها محام فارسي يدعى « البخاري » ، وقد احتوت ٣٠٠٠
حديث ثبت صدقها وصحة إسنادها من بين ٦٠٠.٠٠٠ حديث . وهذه المجموعة
التي سميت « صحيح البخاري » ارتفعت إلى مرتبة من القوة والسلطان ، لم
يسبقها فيها غير القرآن ، كما أن مجموعة « مسلم » (سنة ٨٧٥ م) نالت أيضاً
مكانة الكرامة وحسن التقدير . وعلى مسار التاريخ ظهرت كتب أخرى تبين
أن الإسلام كيف نفسه وفق مقتضيات الظروف المتغيرة والأوساط التي حلّت
بها دون الاعتماد نظرياً عن العقائد التقليدية الأصيلة . واستناداً إلى « الإجماع »

تمكن الفقهاء وأشياخ الشريعة من توطيد أركان مذاهب أربعة محافظة في الفقه والشرع ، ووُصم بعض الحركات الإصلاحية الأخرى بالمروق والحيدة عن حدود الدين .

الشيعة الإسلامية

على أن أبرز الانحرافات عن « السنة » المحافظة ظهرت في أثر النزاع الذي شجر بين أنصار الخليفة علي بن أبي طالب الذين عُرفوا « بالشيعة » أي « حزب علي » ، وبين الذين تشبثوا بشرعية الخلفاء الثلاثة السابقين . وقد كان هذا الخلاف مبعث نشوء مشكلة دينية ، وذلك لأن أهل الشيعة رفضوا مبدأ « الإجماع » ، واستعاضوا عنه بعقيدة مؤداها أن الله يصطفى في كل عصر إماماً معصوماً عن الخطأ يكون رئيس الدولة ، إما مباشرة أو عن طريق خلفه ، وفي مثل هذا الإمام يسكن « نور » محمد ، وهو من ثم يكون صاحب القول في تفسير القرآن والقيم على الشريعة . وقد تسلسلت خلافة علي في اثني عشر إماماً ، اختفى آخرهم بطريقة غامضة سنة ٨٧٨ م . وقد زعم فريق كبير من أبناء الطائفة ، ممن عاشوا في بلاد فارس — وكانت الشيعة دين الدولة منذ سنة ١٥٠٢ م — انه ما يزال محتفياً في مكان ما . وسيعود للظهور في « نهاية العصور » تحت اسم « المهدي » ليثبت سلطان البر . وبينما يختلف الشيعة فيما بينهم حول عدد الأئمة وشخصياتهم ، فإن الرجاء في عودة « حاكم البر » يكاد يكون عاماً شاملاً ، مما جمعهم يرفعون علياً وبعض خلفائه إلى مقام الألوهية . وقد اشتهر فرع من أهل الشيعة ، ممن يسلسلون نسبهم إلى الإمام السابع المدعو إسماعيل — في غضون القرون الوسطى ، وأسموا أنفسهم « السفاحين » ، وقاموا بحملات دموية وحشية ، ولكن المغول خضدوا شوكتهم وأذلوا كبرياءهم في القرن الثالث عشر . وما يجدر ذكره أن الطائفة الإسماعيلية ليست في جوهر كيانها من أهل الحرب والجلاد ، بدليل أن أغاخان هو الآن زعيمهم الروحي الوراثي .

ومن الحركات **المعتزلة** الأخرى التي كان لها شأن في تاريخ الإسلام « المعتزلة »، التي آمن أصحابها أن القرآن مكتوب باللغة العربية، وهو من كلام الناس، لذلك يُعتبر مخلوقاً، وليس من كلام الله الأزلي غير المخلوق، كما يؤمن أهل السنة. وفي هذه الحالة التي وجد فيها العنصر الإنساني، فلن يكون القرآن بعيداً عن متناول البحث والدراسة والنقد. وذهب المعتزلة أيضاً إلى أن الله—وهو عادل بارئ— لن يكون مصدر الشر، ولا يقرر قضاء مسبوقاً بإدانة الخاطئين المذنبين بتقرير أفعالهم الشريرة قبل أن يقترفوها. فالإنسان مسئول عن أعماله، وسيدان على مقتضى هذه الأعمال، والعقل وحده هو المرشد والدليل إلى معرفة الله، ولا يفرض على الإنسان قبولاً أعمى واستسلاماً لكل شيء دون وعي أو تفكير.

وقد كان من آثار الفكر اليوناني على العالم العربي أن أثبتت أيضاً مشكلة العلاقة بين العقل والوحي. وكان ميسوراً للمعتزلة أن يؤيدوا سلطان تفكيرهم لولا أنهم أساءوا استعمال سلطتهم في عهد الخليفة المأمون سنة ٨٣٣ م بعد أن ضمنوا لأنفسهم اعترافاً رسمياً في دين الدولة. وسرعان ما استعاد المحافظون من أهل السنة سلطانهم وتفوقهم، وألفوا في عالم سابق من علماء المعتزلة—هو أبو الحسن الأشعري—حليفاً ونصيراً قوياً. وقد حاول هذا العالم تأويل السنة بمصطلحات عقلية، فقال إن القرآن والحديث من أفكار الله الأزلي، وتليت تلاوة على الأرض. والله أفكاره التي لا تدركها الأفهام البشرية في خلق الكافرين وإدانتهم.

هذه لحظة وجيزة عن نشوء الطوائف في الإسلام. وخليق بنا في هذا الصدد أن ننقل ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في كتابه « رسالة التوحيد » صفحة ٩ وما بعدها—قال :

« مضى النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة، والسراج في

ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدّر لهما من العمر في مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليلتلوها بالبحث في مباني عقائدهم . وما كان من خلاف قايل رد إليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ، إن كانت حاجة إلى الاستشارة . وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد . ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوم التشبيه ، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ . « كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله ، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها ، وبقي القرآن قائماً على صراطه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . وفتح للناس باب لتعمد الحدود التي حداها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم . وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الإصالة منهم ، ففضيت أمور على غير ما يحبون .

« وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودي أسلم وغلا في حب على كرم الله وجهه ، حتى زعم أن الله حلّ فيه ، وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان فنفاه ، فذهب إلى البصرة وبث فيها فتنته ، فأخرج منها ، فذهب إلى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة ، فنفي منها فذهب إلى الشام ، فلم يجد فيها ما يريد ، فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته ، إلى أن كان ما كان مما ذكرناه ، ثم ظهر بمذهبه في عهد علي ، فنفاه إلى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده .

« تواتت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع

ماعقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، وأخذ الأحزاب في تأييد آرائهم ، كلٌّ ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وبانت نشأة الإختراع في الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج ففكروا من عدام ، ثم استمرّ عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتفكيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا ، إلى أن تضعض أمرهم بعد حروب أكلت كثيرا من المسلمين ، وانتشرت فارتتهم في أطراف البلاد ، ولم يكفوا عن إشعال الفتن ، وبقيت منهم بقية إلى اليوم في أطراف أفريقيا وناحية جزيرة العرب . وغلا الشيعة فرفعوا عليّاً أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية ، أو ما يقرب منه . وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد

« وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الإختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الإختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يذب . اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصرى ، واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن — على قول — كان على رأى أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته ، وقام يفازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان في عمله الإرادى كأغصان الشجر في حركاتها الاضطرابية . كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ، ولا يعنون برد الناس إلى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ، ثم يذهب كل إلى ماشاء ، سوى عمر بن عبد العزيز أمر الزهرى بتدوين ما وصل إليه من الحديث . وهو أول من جمع الحديث .

« ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الإلهية أو نفيها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع

الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلواً في تأييد خطة القرآن) ،
أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى . ثم غالى آخرون وهم الأقلون ،
فمحوها بالمرّة ، وخالفوا في ذلك طريقة الكتّاب عناداً للاولين ، وكانت الآراء
في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد ، كأنها مبنى من مباني الاعتقاد
الإسلامي .

« تفرقت السبل باتباع واصل (وهم المعتزلة) ، وتناولوا من كتب اليونان
مالات بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبتته العلم بدون تفرقة
بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل ، وما كان سراباً في نظر الوهم ، فخلطوا
بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجّأوا في ذلك حتى
صارت شيعتهم تعد بالعشرات ، أيدهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة
فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب
السلف يناضلونهم معتمدين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكين .

« وعرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب
دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم وأعدوا لهم منصات الرفعة بين
وزرائهم وحواشيهم — فعلاً أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء .
وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له ، وغير أولئك من الفرق الفارسية ،
فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بحالهم وبمقالمهم إلى من يرى مثل آرائهم
أن يقتلوا بهم ، فظهر الإلحاد ، وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور
بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وإبطال مزاعمهم .

« فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموه ، وبناء
لم يتشامخ علوه ، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوباً بمبادئ النظر في الكائنات
جرباً على ماسنّه القرآن من ذلك ، وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته ،
وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول أو صرح بالأزلية

عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجازاة البدعة ، وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق . وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين

«ومع إتفاق السلف وخصوصهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم، كان أمر الخلاف بينهم جللاً، وكانت الأيام بينهم دولاً، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض ، واستفادة كل فريق من صاحبه ، إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف ، وسطاً بين موقف السلف، وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب في أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته . وكفره الحنابلة واستباحوا دمه . ونصره جماعة من أكابر العلماء كآبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والاسفرايني وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين في الجري خلف ماتزينة الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الإسلامية .

«غير أن الفاضلين لمذهب الأشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نوااميس الكون ، أو جوبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها ، كما يجب عليه اليقين بما تؤدي إليه من عقائد الإيمان ، ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول ، ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالي والإمام الرازي ومن أخذ مأخذهما فخالقوا في ذلك ، وقرروا أن دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها ، فلا وجه للحجج في الاستدلال » (١ هـ) .

التصوف في الاسلام

وإلى جانب هذه التطورات الفقهية والعقلية التي سبق ذكرها ، وكردّ

فعل حياة البذخ والرفاهة في دور الخلفاء ، نهضت حركة تقشفية تحت تأثير الأفلاطونية الحديثة ، والمتجهات الفكرية الشرقية والمسيحية ، واتخذت لباساً تصوفياً ، على الرغم من أن النبي العربي لم يشجع هذا النموذج في الممارسات الدينية ، لأنه يتنافى مع مبدأ القوة والجهاد . وقد استمدت هذه الحركة الصوفية اسمها من لفظة عربية « الصوف » ، وذلك لأن أنصارها كانوا يرتدون لباساً صوفياً خشناً .

وقد لجأ أولئك المتقشفون الزاهدون — في سبيل الحصول على الكمال الروحي ومعرفة الله — إلى ألوان من الممارسات ، منها اليقظات الطويلة ، والتأمل العميق ، ونذر العزوبة . وماحلّ القرن الثاني عشر حتى كانت قد تأسست رتب من « الرهبانية » ، كان القوم يقومون فيها — في حالة هيام وتجلّس — بحركات جسمانية ، وهم يتلون عبارات صوفية ، ويرقصون رقصات مقدسة . وكان بينهم شحاذون متجولون — دراويش — لهم القدرة على القيام بأعمال عجيبة خارقة ، مثل إطفاء النار بدخولهم في الأفران المتقدة ، والصياح والتمايل في رقصات هيامية وهوس ديني ، وابتلاع الفحم الحمي بالنار ، وأكل الثعابين الحية . على أن تصرفاتهم الشاذة ، وتفاهة شخصياتهم ، ودمامة أشكالهم ، قد جلبت عاراً على نظامهم ، وعلى الصوفية عامة .

وفما عدا هذا الإفراط المشين ، كانت الصوفية في أصولها أقرب إلى الهدوء والدعة والخضوع منها إلى الإباحية والضوضاء والتعصب . وفي عهد الإمام الغزالي (١٠٥٨ — ١١١١م) الذي جمع بين فقه الشيخ أبي الحسن الأشعري وبين الصوفية المستنيرة الحقة ، تهادنت الصوفية وتوافقت مع العقائد التقليدية في الإسلام . على أنها بعدت عن سنة المحافظين بحيث لم تنظر إليها الدوائر الرسمية نظرة تقدير واحترام . ولئن تسكن قد أدخلت عنصرأ روحيا كان ناقصا ، فإنها قد راحت تنحدر حتى ضعف أثرها في القرن الماضي .

القضاء والقدر

في الاسلام والمسيحية

لعلّ الفيلسوف الألماني الكبير « عمانوئيل كانت » ما يزال صاحب الأثر الفعال في عقول الطبقة المثقفة في الغرب، حتى حينما لا يحسّون بوعيهم وادراكهم هذا التأثير . واليوم لا يسلم الناس بكثير من التفاصيل في فلسفته، على أن النظرة العامة حيال مشاكل الإنسان ومصيره، التي كان هو أول من ابتكرها وشرحها في فلسفته، لم تُستبدل حتى الآن بشيء آخر على نطاق واسع . ومما هو جدير بالذكر أنه يلفت النظر في كتابه « نقد العقل المجرد » — وهو جوهر بحوثه الفلسفية — الى قيود العقل وحدوده، والى ان العقل في ذاته، وفي مطارحاته النظرية المحض، يصل الى نتائج ينقض بعضها بعضا، ويخرج أدلة تثبت حقائق متعارضة . وهو يسمّى هذه البيانات المتعارضة المتناقضة « متناقضات » . على أن التناقض في هذه النتائج ليس مرده الى بطلان الدليل أو تفاهة الحجة، فالأدلة في ذاتها صحيحة سليمة معقولة . ولكن هذا التناقض يقع فيه العقل بطبيعته، وهو أمر لا يحصى عنه، بسبب خواص العقل وتركيبه .

وفي معالجة موضوع القضاء والقدر، نرانا أمام مسألة تنطوي على هذا التناقض الظاهر . وهي في الواقع مثال من أمثلة « المتناقضات »، التي خاض الفيلسوف « كانت » في بحثها وتحليلها . فمقولنا وأفكارنا تؤكد لنا صدق عقيدتين، ومع ذلك نجد أنفسنا عاجزين عن التوفيق بينهما . ويمكن شرح تينك الحقيقتين المتعارضتين بطرق مختلفة، ولكن حسبنا في هذا البحث أن نذكر القاعدتين التاليتين :

(١) من ناحية ينبغي أن تؤمن بأن الإنسان مسئول عن أعماله وتصرفاته، فهو نفسه الذى يقوم بهذه الأعمال . وكل تصرفاته صادرة عنه ، فمن العدل أن يُثاب متى كانت أعماله سالحة ، ومن العدل أن يُعاقب متى كانت شريرة .

(٢) ومن ناحية أخرى تسلّم عقولنا وأفكارنا بأن الله قادر على كل شىء . وهو يسيطر على كل ما يحدث فى السموات وفى الأرض . وبغير إرادته تعالى لا يحدث شىء ، لا فى السماء ولا على الأرض . وهو الذى يدبر سير الحوادث ، ومن بينها تصرفات الإنسان .

وبين هاتين الحقيقتين ، أى مسئولية الإنسان وقدره الله على كل شىء ، يبدو تناقض . فإذا أقدم انسان على قتل آخر ، فهو الذى أزهى روح هذا القتل ، وليس الله . على أن الزعم بأن موت ذلك الإنسان لم يكن وفق إرادة الله ، إنما هو إنكار لقدرة الله على كل شىء .

وتؤمن المسيحية والإسلام بأن الله قادر على كل شىء ، وبأن البشر مسئولون عن أعمالهم . وإنما الواجدون - فى كلتا الديانتين - علماء الدين وكثرة المؤمنين قد حاولوا إيجاد توازن عادل بين هاتين الحقيقتين ، بحيث لا يغالون فى واحدة ويهملون الأخرى ، ولا يتغافلون عن واحدة ويؤكدون أخرى .

القضاء والقدر فى الاسلام :

من المسلم به إجماعاً لدى المسلمين ، أن الاسلام يشيد دوماً بقدره الله على كل شىء . على أن الاعتقاد بمسئولية الانسان قد احتلت مكانة ذات شأن فى التعاليم الاسلامية لأنها متضمنة فى الاعتقاد باليوم الآخر . ذلك لأنه فى اليوم الآخر يُثاب الذين أطاعوا الله بالدخول إلى الجنة، ويعاقب الذين عصوه بالذهاب إلى النار . ومعنى هذا أن أعمال الطاعة والمعصيان التى يُثاب من أجلها البشر ، إنما تصدر منهم وهى أعمالهم وتصرفاتهم التى ينالون عنها جزاء وفقاً . والله عادل فهو

لا يعاقب على عصيان أو امره ونواهيهِ، ما لم يكن هذا العصيان صادراً عن الإنسان ومنسوباً إليه . وبما أن الله يعاقب الناس على عصيانهم ، فهم إذاً مسئولون عن أعمال العصيان ، لأن الله منصف عادل .

والمتكاملون بين المسلمين قد شرحوا الموضوع من حيث « القوة » ، لا من حيث « حرية الإرادة » . فهم قد تساؤلوا: هل للبشر قوة على أعمالهم ، أم أن كل الحوادث الأرضية - وبينها التصرفات الانسانية - هي من قوة الله دون سواه . وعلى الرغم من الفارق في المصطلحات ، فإن المشكلة هي بعينها .

وقد ذهب فريق كبير منهم إلى أن للبشر قوة على أعمالهم ، وجعلوا هذا المبدأ أساساً لعقيدتهم في هذه المسئلة ، ومن هذا خلصوا إلى النتيجة المنطقية بأن ما دخل في قوة الإنسان ، خرج من قوة الله ، فإن كان من قوة القاتل أن يقتل غريمه ، إما اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد ، إذاً يكون قتل الإنسان في قوة القاتل . وإن كان القتل في قوة القاتل ، فهو إذاً ليس في قوة الله . والذين ذهبوا هذا المذهب هم « القدرية » الذين يمثلهم « المعتزلة » كما سبق القول . ولا عجب أن يتهمهم خصومهم بانكار قوة الله على كل شيء . فهم قد أفرطوا في توكيد مسئولية الإنسان عن أعماله ، وغالوا في قوته ، بحيث أغفلوا الحقيقة الأخرى المتعلقة بالقدرة الإلهية ، ولذلك حُسبوا من « أصحاب البدع » .

ووقع فريق آخر في الخطأ المضاد ، فأفرطوا في توكيد قوة الله بحيث أنكروا على الإنسان أية قوة أو أية مسئولية - وأولئك هم « الجبرية » ، وأشهر الناس بينهم هم « الجهمية » - ومن أقوالهم : « حينما تغيب الشمس ، فالشمس لا تعمل شيئاً ، بل الله هو الذي يعمل . ويمكن القول فقط ان الشمس تعمل على الحجاز . كذلك حينما يمشى الإنسان أو يجلس ، فهو لا يعمل في الواقع شيئاً ، بل الله هو الذي يعمل ، ويمكن القول فقط ان الإنسان يعمل بطريق الحجاز » . وقد هال

جمهرة المسلمين بطلان هذا الموقف فلم يأبهوا له . وذلك لأن أصحاب هذا الرأي تجاهلوا الفارق بين أعمال الخلاق البشرية ، وبين « أعمال » الجداد ، مثل الشمس والحجارة . ومن ثم جعلوا الله سبحانه وتعالى ظالماً ، لأنه يجازى الناس عن أعمال لا سلطان لهم عليها ، وهم عنها لا يلامون .

على أن جمهرة المؤمنين ومشاهير علماء الدين - وخاصة أبا الحسن الأشعري وأتباعه - اتخذوا طريقاً وسطاً بين هذين الفريقين المتطرفين . فقالوا إن الله قادر على كل شيء ، وأنه يخلق أعمال البشر ، بحيث تخضع كل الحوادث على الأرض لسلطانه وتجرى وفق إرادته . ولكنهم أكدوا في الوقت عينه أنه حينما يأتي زيد من الناس عملاً ، فإن هذا العمل يُنسب حقاً وفعلاً إلى مَنْ أتاه ، ومن العدل أن يعاقب عنه إذا كان العمل عصيانياً . وحين تنسب الأعمال إلى الإنسان على هذه الطريقة ، فإن الأشعرية يقولون في مصطلحاتهم إن الإنسان « كسبها » أو « اكتسبها » . وبهذه الوسيلة أبرزوا الفارق بين موقف الإنسان في عمل جلوسه ، وبين موقف الشمس في عمل مغيبها المزعوم . وذلك لأنهم لا يقولون عن الشمس أنها كسبت أو اكتسبت مغيبها . وكثيراً ما يقال إن هذه العقيدة ، غامضة مبهمه ، ولكنها على قدر من الأهمية لأنها تبين ، إلى حد ما ، كيف أن الله يخلق أعمال الإنسان وكلها خاضعة لسلطانه ، وكيف أن الإنسان في الوقت عينه مسئول عن أعماله ، ومن العدل أن يُثاب أو يعاقب عنها .

وعلى مقتضى نظرية الكسب هذه ، يقول أصحابها إن الله خلق في كل إنسان في وقت قيامه بعمل ما « الاستطاعة » ليأتي هذا العمل ، على أن هذه « الاستطاعة » إنما هي للعمل الذي يأتيه الإنسان فعلاً ، وقد خلقت وقت قيامه به ، لا قبل ذلك . وفي هذه الآراء عارضوا أهل « القدرية » الذين قالوا إن الله يخلق القوة على العمل قبل وقت أدائه ، وإن هذه القوة عينها هي للقيام بالعمل فعلاً ، أو بعمل غيره ، أو بالامتناع عنه . ويستعمل أهل « القدرية » كلمة

« قدرة » أو « قوة » أو « استطاعة » . ولكن الأشعرية يفضلون الكلمة الأخيرة ، لأن كلمة « القدرة » تنسب إلى الانسان شيئاً هو من صفات الله .

وليس هذا كل ما يؤمن به المسلمون ويعلمون به عن مشكلة القضاء والقدر .
وبينما يؤكد القرآن بأن الله المسيطر على كل أعمال البشر في الوقت الحاضر ، فإن الأحاديث المتعلقة بهذه المسئلة تؤكد بأنه سبق وقرر في وقت سابق بمض الجوانب الهامة في حياة الانسان مثل رزقه وأجله وسعادته وشقائه . على أنه ليس ثمة تعارض بين هاتين الفكرتين . فالله يخلق أعمال الانسان وقت حدوثها ، ولكن الذي يصنعه سبحانه وتعالى هو جزء من إرادته وقصده الأزليين . ولذلك يقال بحق ان الله يرتب ويقرر الحوادث قبل وقوعها ، كما يقال انه يخلقها أيضاً وقت وقوعها .

ومما هو جدير بالذكر أنه بينما أكد كبار المفكرين المسلمين من علماء الدين - مثل الأشعرية والمريدية - قوة الله التي بها يسيطر على الحوادث في الحاضر بخلقها ، فإن العامة قد جنحت إلى الاعتقاد بأن الله يقضى ويقرر الحوادث في زمن سابق . وهذه حقيقة صادقة عن الله ، ولكن يمكن أن يستنبط منها نتائج باطلة . وهذا هو الواقع فعلاً . فحين تقول القروية الساذجة ، ان مرض طفلها من الله ، انما تقول الحق ، حتى متى يكون مردُّ المرض الى انعدام أسباب النظافة ، وذلك بمعنى أن الله يرتب نتائج معينة تلحق حتماً بالتصرفات البشرية . ولكن حينما تمنن القروية في الاستنتاج وتقول : « بما أن مرض طفلي من الله ، فمن العبث أن أذهب به الى الطبيب » ، فإن حجتها هنا باطلة سخيفة .

على أن القرآن يفسِّه هذا الموقف في صورة يس ، وينذر من يمنحون اليه بالعقاب في النار . وكان ذلك - على قول البيضاوى - في مناسبة جاء فيها هذا البيان .

« استطعم فقراء المؤمنين مشركي قريش . فقالوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، أيها ما بأن الله تعالى لما كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم ، فنحن أحق بذلك . وهذا من فرط جهالتهم ، فإن الله يطعم بأسباب ، منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له . »

من ثم لا يجوز الاستناد في الامتناع عن أداء الواجبات التي فرضها علينا الله - الى الزعم بأن الله قد سبق وقرر حوادث المستقبل .

القضاء والقدر في المسيحية :

وفي المسيحية - كما في الإسلام - أسرف بعضهم في نظرية تقدير مسئولية الإنسان ، كما أفرط آخرون وغالوا في نظرية قدرة الله على كل شيء ، بينما اتخذ جمهرة المؤمنين طريقاً وسطاً بين هاتين النظريتين المتطرفتين . وتقرن نظرية المغالاة في تقدير قوة الإنسان ببدعة بلاجيوس التي ظهرت في النصف الأول ، من القرن الخامس الميلادي . وكان بلاجيوس هذا بريطاني الأصل ، ومن الغريب أن الشعوب الانجلوسكسونية ما فتئت معتصة بعقيدتها في قدرة الإنسان على أن يأتي أعمالاً كباراً بدون أية معونة إلهية . وكان الأمر البارز في تعليم بلاجيوس حرية الإرادة البشرية حرية مطلقة بدون قيد ولا شرط . فالإنسان ولد حراً ، وهو قادر على أن يقاوم الخطية أو يستسلم لها متى شاء . والإنسان معتمد على الله من حيث طبيعته ، وما فيها من إمكانات كامنة قادرة على مقاومة الخطية ، على أنه مستطيع بهذه الطبيعة أن يفعل الصواب من تلقاء نفسه ، ولو أنه مستطيع أن يفعله بأكثر يسر بمعونة الله . ولقد أنكر بلاجيوس عقيدة الخطية الأصلية ، التي تقول ان الإنسان ولد وفيه نزوع وقابلية للخطية ، كما أنكر أن خطية آدم أي أثر في الإنسان أكثر من مجرد كونها نموذجاً سيئاً ، وأيد إمكانية الحياة بدون خطية . وتختلف عقيدة بلاجيوس في كثير من تفصيلاتها عن عقيدة أهل « القدرية » في الإسلام التي ألحنا إليها . على

أن الفكرة واحدة في العقيدتين ، وهي أن الإنسان قادر من تلقاء ذاته على أن يظفر بالحياة في السماء جزاء أعماله الصالحة . وقد أبرز بطلان هذه الآراء كثيرون من الكتّاب مثل القديس أوغسطينوس ، وحكمت الكنيسة على آراء بالاجيوس بأنها بدعة وهرطقة .

وكذلك كان للعقيدة القائلة بأن الله يقرر ويقدّر حوادث التاريخ قبل وقوعها ، أنصار بين المسيحيين ممن غالوا وأفرطوا في التمسك بها - وأشهر هؤلاء جون كالفن ، مصلح القرن السادس عشر ، وبعض أتباعه . ولقد زعم كالفن أن بعض الناس قدّرت لهم حياة النعيم ، وقدّر للبعض الآخر حياة الجحيم .

واستنتج بعض أتباعه من هذا الزعم أن بعض الناس لا أمل لهم في دخول الجنة مادام قدّر لهم أن يكونوا في النار . على أن أكثر أتباع كالفن في العصر الحديث يرفضون قبول هذه الفكرة .

ويتخذ كثرة المسيحيين طريقاً وسطاً . فهم يعترفون بقدرة الله على كل شيء ، وإن كانوا ينسونها أحياناً . ويعتقدون أن الإنسان مسئول عن أعماله ، ولكنهم يعترفون أن الإنسان ضعيف ولا يقدر أن يبلغ ما يجاهد في سبيله . وفي الوقت عينه يؤمنون أن الله بفضل نعمته وإرشاده ، يهيئ للإنسان السبيل ليفعل ما يعجز عن فعله بمجرد قواه الطبيعية . واختبارهم العملي يدّعم هذا الإيمان .

ومن ثم نرى المسيحية والإسلام يتفقان اتفاقاً عاماً في هذه العقيدة حسباً تلميذ عليهم أسفارهم المقدسة ، وتعاليم كبار مفكرتهم ، وأصحاب العقول الراجحة بينهم ، فالله قادر على كل شيء ، ومع ذلك فالإنسان مسئول عن أعماله . ومن خطئ الرأي أن نغالي في إحدى هاتين الفكرتين على حساب الأخرى . هذا

هو موقف نخبة جماعة المفكرين وصفوة العقلاء في الديانتين . على أن موقف العامة - وبعض المفكرين أيضاً - يختلف بعض الشيء . ففي الإسلام يميل تفكير عامة الشعب إلى المغالاة في قوة الله ، وإغفال فكرة « استطاعة » الإنسان . وفي المسيحية - من الجهة الأخرى - يميل تفكير العامة إلى المغالاة في تقدير قوة الإنسان ونسيان قدرة الله على كل شيء . وهذا الميل الذي يبدو في عامة الشعب في الديانتين هو الذي يبرر الفكرة السائدة عند أهل الغرب ، بأن الإسلام هو دين القضاء والقدر ، وأن المسيحية هي دين حرية الإرادة .

ونلاحظ مما تقدم فارقاً آخر . ففي الإسلام نرى موضوع عدل الله ، والعلاقة بين العقاب العادل وبين المسئولية - من أمهات المسائل التي حفلت بها عقول الناس . ولم يغفل المسيحيون هذا الأمر ، ولكنهم عنوا أشد العناية بموضوع آخر : وهو مدى قوة الإنسان على أن يحيا حياة صالحة طيبة ، وهل في وسع من هبطوا إلى أحط دركات الشر والاثم أن يتغيروا ويصيروا فضلاً صالحين ، وهل يقدر الإنسان الذي قضى حياته أنانياً مؤثراً نفسه على غيره أن يتغير في سن الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين ، ويفدو باذلاً مضحياً ، مؤثراً غيره على نفسه . وهل يقدر من كانت شيمته القسوة أن ينقلب ليصير مُشفقاً ليناً عطوفاً . وهل يقدر من أدمن الخمر سنوات طوالاً ، وألف غشيان مواخير الدعارة والفسق - أن يحطم هذه القوة التي كبّلتها بها عاداته الشريرة ويصاح أخلاقه ، ويقلع عن معاقرة الخمر ، ويبتعد عن كل علاقة جنسية مع غير حليته . .

وقد أجاب الكثرة الساحقة من المسيحيين على هذه الأسئلة بقولهم : ان هذه الأشياء غير مستطاعة لدى الإنسان بمحض قوته ، ولكن غير المستطاع للإنسان ، مستطاع لله . والله قادر على أن يُمَيِّر الطبيعة البشرية التي خلقها ويصلحها ويحدها . وهو قادر على أن يمنح الإنسان قوة لكي يبلغ

الأهداف التي لن يقدر أن يبلغها بدون هذه القوة - وهي أن يكون باذلاً مضحياً ، مشفقاً رحيماً ، صاحباً رزيقاً ، طاهراً عفيفاً . والله ليس قادراً على أن يصنع هذا وحسب ، بل قد صنعه فعلاً في حياة ألوف ، وربما ملايين من الناس .

وأحياناً يكون الله البادئ ، ويتمُّ التغير في الشخص ضد إرادته . ولكن المألوف أن الله لا يعين الإنسان بنعمته وعونه ما لم يرغب الإنسان بملء قلبه في تغيير أخلاقه وطريقة حياته ، ويلتمس إلى الله في دعائه أن يغير حياته ويصلحها . وعندئذ يجد الإنسان نفسه مزوداً بالقوة والفهم لكي يهجر حياته الشريرة الآثمة ، مثل انقطاعه عن عشرة الذين شجَّموه على الشر بأقوالهم ومثالهم ، وميله إلى معاشررة الأخيار الصالحين ، والاستمرار على الصلاة بانتظام ، وافتاق وقته في التأمل بالحقائق المتضمنة في الأسفار المقدسة .

وهذا هو الخطوة الأولى فقط في سير العملية . فالشر أشبه بشجرة كانت تنمو في قلب الإنسان مدى سنوات كثيرة ، حتى تأصلت جذورها ، وكبرت وتعاقدت أغصانها ، وعزمه على نبذ حياته السابقة أشبه بقطع هذه الشجرة . فالجذع والأغصان والأوراق قد ذهب . ولكن الجذور باقية تكمن فيها الحياة . وإذا لم يُعن الإنسان بأمره ، تنبت هذه الجذور جذعاً وأغصاناً جديدة . وفي الوقت عينه تشبه رغبته - في أن يحبَّ الله ويخدمه - شجيرة غضة زرعت في قلب الإنسان . وعلى مرَّ الزمن تنمو وتكبر أكثر من شجرة الشر ، ولكن هذا يستغرق سنوات طويلاً ينبغي أن يتمهدها في خلالها بالسقي بانتظام . وما السقي هنا إلا الصلاة والعبادة العامة .

المشكلة في هذا العصر :

وفي الشرق والغرب اليوم ، نرى كثيرين من المسلمين والمسيحيين يتخذون

في هذه المسائل التي أسلفنا موقف كبار المفكرين والكتّاب في الإسلام والمسيحية. على أننا نرى في الشرق والغرب على السواء، فريقاً من الناس - ولو أنهم يدعون أنفسهم مسلمين ومسيحيين - ينجحون إلى الاعتصام بالآراء العالمية، لا الآراء الدينية. وهنا نرى اتجاهين من التفكير :

فهناك أولاً موقف أحرار الفكر، وهو موقف الذين يرفعون شأن قوة الإنسان وقدرته للسيطرة على سير الحوادث في هذا العالم. وهم يفكرون في مظاهر التقدم العلمي، والكشوف التي ظفر بها القرن أو القرنان الأخيران، والقوى الكثيرة التي أخضعها الإنسان لسلطانه من بخار وكهرباء وبترول وطاقات ذرية، وكافة المنافع والخدمات التي سخر لها هذه القوى لرفع مستوى معيشته، مثل الآلات في المصانع، والسيارات في الطرقات، والنور في المنازل... يفكرون في أسباب التقدم والارتقاء الكثيرة المتزايدة ويتوهمون أن لا حداً لما يقدر أن يبلغه الإنسان. يقولون إن الإنسان بلغ في هذا العصر حداً بعيداً في التسلط على قوى الطبيعة، وإذا اتخذنا التقدم الحديث مقياساً، جاز لنا القول إنه في سنوات قلال، أو في عشرات من السنين، سيخضع كل حادث في الأرض للعقل البشري خضوعاً تاماً لخير الجنس البشري.

هكذا يحاجّون ويجادلون في حماقتهم، لأنهم ينسون أن «الإنسان يدبر والله يقدّر». وهذا قول حق اليوم، كما هو حق منذ الأزل. فعلى الرغم من أساليب الدعاية الحديثة، لا يمكن التسلط على قلب الإنسان تسلطاً تاماً. وليس ثمة دليل على أن الإنسان قد اقترب من حل لمشكلة القضاء على الحرب والفقر والجوع. ويقول الخبراء إن الجنس البشري يتزايد بنسبة تزيد عن موارد الأغذية في العالم. وقد تمكن الأطباء والجراحون من إطالة الحياة، ولكنهم عجزوا عن إنقاذ الناس من الموت. والحوادث والنكبات التي تقضى على الناس آخذة في الزيادة، لا النقصان. وقصارى القول إن بعض الناس يفكرون في أن الإنسان قد غدا إلماً

بفضل القوى العظمى التي ظفر بها الجنس البشرى . ولكن الأمر غير ذلك . وحتى إن ظفر الإنسان بقوى أعظم في المستقبل ، فإن الأمر يبقى غير ما يتوهمون . وخير للبشرية كلها وأبقى ، أن يعرف الإنسان قدره تماماً ، ومكانته الصحيحة في هذا العالم .

وثانياً : هناك الاتجاه الآخر ، الاتجاه المادى ، وهو موقف الذين يقولون ان كل تصرفات الخلائق البشرية ، وكل حوادث التاريخ البشرى — إنما تخضع للنواميس المادية ، أى النواميس الطبيعية والكىماوية والبيولوجية والسيكولوجية التي كشفها العلماء ، والناواميس الاقتصادية التي كشفها علماء الإقتصاد وعلماء الاجتماع .

وفي هذا كثير من الحق . وأكثر الفلاسفة في القرون الثلاثة الأخيرة قد غالوا في تقدير قوة عقل الإنسان ومدى سيطرته على أعماله وأفكاره ، وتغافلوا عن الأساس المادى في الحياة الإنسانية . وليس من ينكر أن جسد الإنسان مادى وطعامه وكسائه ماديان . ولكن التسليم بهذا منطوق على أن النشاط البشرى مادى في بعض نواحيه دون البعض الآخر . وشتان بين القول ان عملاً ما يخضع في بعض نواحيه للنواميس المادية ، والقول انه خاضع بكليته وجملته لهذه النواميس .

ولإيضاح هذه النقطة لنأخذ ، مثلاً ، فكر مفكر عظيم مثل الإمام الغزالي . وما من شك في أن فكره كان خاضعاً لعوامل خاصة من حيث أنه ولد في طوس ، وعاش ردحاً من الزمن في بغداد ، ثم في سورية ، وهكذا ، وأيضاً من حيث تركيبه الجسمانى . والآن لفترض أنه قد توافرت لدينا كل هذه البيانات العلمية الكافية عن ظروف حياته الخارجية ، وعن دماغه ، وغدده ، وأعضائه الهضمية ، وهكذا — نقول حتى لو تكاملت لدينا كل هذه البيانات

فإننا عاجزون عن أن نفهم النظريات العقلية التي تعلّق بها ، والتعاليم الدينية التي شرحها . ولكي نفهم هذه ، ينبغي أن نقرأ كتبه ومؤلفاته . وبهذه الطريقة دون غيرها ، تقدّر عظمته وعلو كعبه كمفكر .

وكلمة أخيرة . لنشكر الله من أجل المعرفة الصحيحة المتزايدة التي استنار بها الجنس البشري ، لأن هذا في الواقع هو مزيد من معرفة أعمال الله في خلق العالم وما فيه ، ولندرك أن النواميس الطبيعية والإقتصادية إنما هي الأسباب التي بمقتضاها يسيطر الله على حوادث التاريخ وعلى حياة البشر ، ولنفدّر أجمل تقدير فضل الله في إعطاء الإنسان قوة بها يغيّر أخلاقه من الشر والإثم إلى الخير والبر ، ولنعتمد على معونته في إصلاح حياتنا وعاداتنا . ومهما بلغنا نحن الخلائق البشرية من معرفة متزايدة ، ومن السيطرة على الطبيعة وعلى قلوبنا ، فلنذكر دوماً أن هذا هو عالم الله وليس عالمنا ، وأنه هو المتصرف الأعلى ، والمدير الأكبر ، لكل الحوادث الأرضية في هذا الكون الذي صنعه .

عقيدة أهل الإسلام

ولعل خير ما نختتم به بحثنا عن الإسلام خلاصة للعقيدة،

كما كتبها الشيخ الأكبر محي الدين العربي^(١)

قال الشيخ الإمام العالم العامل محي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن العربي: هذه رسالة تتضمن ما ينبغي أن يعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الإسلام ، مسلمة من غير نظر إلى دليل ولا إلى برهان . فيا أخوتي المؤمنين ختم الله لنا ولكم بالحسنى ، لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه للكذابين به وبرسالته : إني أشهد الله وأشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه . فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والاقرار بأحديته ، لما علم عليه السلام أن يستوقف عباده بين يديه ويسألهم عما هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهد شهادته . وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه . ولهذا يُدبر الشيطان عند الآذان وله حصاص ، وفي رواية وله ضراط . وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة ، فيلزم أن يشهد له فتكون تلك الشهادة له من جملة من يسعى في سعادة المشهود له . وهو عدو محض ليس له إلينا خير البتة . وإذا كان العدو لا بد أن يشهد لك بما أشهدته على نفسك ، فأحرى أن يشهد لك وليك وحبيبك من هو على دينك وملتك ، وأحرى أن تشهد أنت على نفسك بالوحدانية والإيمان في دار الدنيا . فيا إخواني ويا أحبائي رضي الله عنكم ، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة ، وهو مؤلف

(١) نقلا عن كتاب (الهدية السعدية) ، وهو مجموعة ست رسائل لبعض علماء الإسلام طبعت بمطبعة النجاح ، لصاحبها محمد حسين التريزى .

هذا الكتاب ومنشؤه ، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين ومن سمعه ، أن يشهد قولاً وعقداً أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته ، منزّه عن الصاحبة والوادة ، لا شريك له ، ملك لا وزير له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده ، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في وجوده ، والعالم كله موجود به ، وهو أوجده وهو متصف بالوجود لنفسه . لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه ، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه ، ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان ، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ، ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء ، مقدس عن الجهات والأقطار ، مرئي بالقلوب والأبصار ، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله ، وعلى المعنى الذي أراد ، كما أن العرش وما سواه به استوى وله الآخرة والأولى ، ليس له مثل معقول ولا دلّت عليه العقول ، لا يحده زمان ولا يقبله مكان ، بل كان ولا مكان وهو على ما عليه كان . خلق المتمكن والمكان ، وأنشأ الزمان وقال أنا الواحد الحي لا يؤده حفظ المخلوقات ، ولا يرجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعه المصنوعات . تعالى أن يحله الحوادث ، أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها ، بل يقال كان ولا شيء معه . فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه ، فهو القيوم الذي لا ينام ، والقهار الذي لا يرام . ليس كمثله شيء . خلق العرش وجعله حد الاستواء . وأنشأ الكرسي وأوسع له للأرض والسموات . العلى اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً يعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء . أبداع العالم كله على غير مثال ، سبق وخلق الخلق ، وأخلق الذي خلق . أنزل الأرواح في الأشباح أمناء ، وجعل هذه الأشباح المنزلّة إليها الأرواح في الأرض خلقاً . وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، فلا تتحرك ذرة إلا إلهه ، وعنه خلق الكل من غير حاجة إليه ، ولا موجب أو جب ذلك عليه ، ولكن سبق بأن يخلق فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو

على كل شيء قدير . أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً . يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، كيف لا يعلم شيئاً وهو خلقه ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . علم الأشياء قبل وجودها . ثم أوجدناها على حد ما علمها فلم يزل عالماً بالأشياء . لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء ، وأحكمها وبه حكم عليها من شاء وحكمها . علم السكيات على الإطلاق ، كما علم الجزئيات بالاجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق ، فهو عالم الغيب والشهادة فيمالي الله عما يشركون . فقال لما يريد فهو المريد الكائنات في عالم الأرض والسموات ، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده ، كما أنه لم يردده حتى علمه ، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لم يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد ، كما يستحيل أن يوجد نسب هذه الحقائق في غير حى ، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها . فما في الوجود طاعة ولا عصيان ، ولا ربح ولا خسران ، ولا عبد ولا حر ، ولا برد ولا حر ، ولا حيوة ولا موت ، ولا حصول ولا فوت ، ولا نهار ولا ليل ، ولا اعتدال ولا ميل ، ولا بر ولا بحر ، ولا شفع ولا وتر ، ولا جوهر ولا عرض ، ولا صحة ولا مرض ، ولا فرح ولا ترح ، ولا روح ولا شبح ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا أرض ولا سماء ، ولا تركيب ولا تحليل ، ولا كثير ولا قليل ، ولا بياض ولا سواد ، ولا رقاد ولا سهاد ، ولا ظاهر ولا باطن ، ولا متحرك ولا ساكن ، ولا يابس ولا رطب ، ولا قشر ولا لب ، ولا شيء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والتماثلات الآ وهو مراد الله تعالى . وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده . وكيف يوجد المختار ما لا يريد . لا راداً لأمره ولا معقب لحكمه ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويمرئ من يشاء ويذل من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويهدي من يشاء . ماشاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن . لواجتمع الخلايق كلمهم على أن يريدوا

شيئاً لم يرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه ، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله إيجادهم وأرادوه عندما أراد منهم أن لا يريدوه ما فعلوه ، ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه . فالكفر والإيمان ، والطاعة والعصيان ، من مشيئته وحكمه وإرادته . ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم غير موجود ، وإن كان ثابتاً في العلم في عينه ، ثم أوجد العالم من غير تفكير ولا تدبر عن جهل أو عدم علم ، فيعطيه التفكير والتدبر علم ما جهل جلّ وعلا عن ذلك ، بل أوجده عن العلم وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجده عليه من زمان ومكان أكوان وألوان . فلا يريد في الوجود وعلى الحقيقة سواه ، إذ هو القائل سبحانه : وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، وأنه سبحانه كما علم فاحكم وأراد نخصص وقدّر فأوجد ، كذلك سمع ورأى ماتحرك أو سكن أو نطق في الوري ، من العالم الأسفل والأعلى . لا يحجب سمعه البعد فهو القريب ، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد . يسمع كلام النفس في النفس وصوت الماسة الخفية عند اللمس ، ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء ، لا يحجبه الامتزاج والظلمات ولا النور وهو السميع البصير . تسكلم سبحانه ، لا من صمت متقدم ولا سكوت متوهم ، بكلام قديم أزلى كسائر صفاته من علمه وإرادته . وكلم به موسى عليه السلام سمّاه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل ، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا نغفات . بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات . فكلامه سبحانه من غير لهات ولا لسان ، كما أن سمعه من غير اصمخة ولا آذان ، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان ، كما أن إرادته من غير قلب ولا جنان ، كما أن علمه من غير اضطراب ولا نظر في برهان ، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان . فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الأحسان جسيم الأمتنان . كل ماسواه فهو من جوده فائض فضله وعدله الباسط له القابض ، أكل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه . لا شريك له في ملكه . إن أنعم فنعم فذلك فضله ،

وان أبلى فعذب فذلك عدله . لم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيث . ولا يتوجه عليه لسواه حكم ، فيتصف بالجزع لذلك والخوف . كل ماسواه تحت قهره سلطان ومتصرف عزّ ارادته وأمره . فهو للمهم نفوس المكلفين التقوى والفجور ، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء ، والأخذ بها من شاء ، هنا وفي يوم النشور . لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله . أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين ، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . ولم يعترض عليه معترض هناك ، فقال إذ لا موجود ثمّ سواه هيا كل تحت تصريف اسمائه الاله ، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان ، أو شقيماً لما كان من ذلك في شأن . لكنه لم يرد فكان كما أراد ، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي العباد . فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم . وقال تعالى هي خمس وهي خمسون ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد لتصرف في ملكي وانفاذي مشيئتي في ملكي ، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر ، ولم تعثر عليها الأفكار والضمائر ، إلا بوهب إلهي لمن اعتنى به من عباده وسبق له ذلك برحمة اشهاد . فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم ، وأنه من دقایق القديم ، فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا اياه . والله خلقكم وما تعلمون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . والله الحجة البالغة فلو شاء لهذا كم أجمعين .

الشهادة الثانية :

وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتبه من جوده ، ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ صلى الله عليه وسلم ما أنزل من ربه إليه ، وأدى أمانته ونصح أمته ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه ، فخطب وذكر وخوف وحذر وبشر وأذرو وعد وأوعد وأمطر وأرعد . وما خصّ بذلك التذكير أحداً من أحد

عن إذن الواحد الصمد . ثم قال أهل بلغت . فقالوا بلغت يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد واني مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمت ومما لم أعلم . فما جاء به وقرر أن الموت حق عن أجل مسمى عند الله ، إذا جاء لا يؤخر ، فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك ، كما آمنت وأقررت أن القبر حق . وعذاب القبر حق . وبعث الأجساد من القبور حق . والعرض على الله حق . والحوض حق . والميزان حق . وتطهير الصحف حق ، والصراط حق . والجنة حق . والنار حق . وفريق في الجنة حق . وفريق في السعير حق ، وكرب ذلك اليوم حق على طائفة ، وطائفة أخرى لا يحزنهم الفرع الأكبر . وشفاعة الملائكة والنبیین والمؤمنين واخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق . والتأييد للمؤمنين والموحدين في النعيم للقيم في الجنان حق ، والتأييد لأهل النار في النار حق . وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله علم أو جهل حق ، فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤديها اذا سئلتها حيث كان نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان ، وثبتنا عند الانتقال من هذه الدار الى دار الحيوان ، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان ، وحال بيننا وبين دار سرايلها القطران ، وجعلنا من الذين أخذوا الكتب بالإيمان ، ومن انقلب من الحوض وهو ريان ، وثقل له الميزان ، وثبت له على الصراط القدمان ، انه المنعم المحسان . لقد جاءت رسل ربنا بالحق فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام أهل التقليد وأهل النظر مخصصة مختصرة ، والحمد لله وحده (تمت) .

المسيحية

مصدر الايمان المسيحي :

إن كل دين من الأديان الحيّة يؤمن بالله، وإن اختلفت مناحى التفكير في ذاته ووجوده . وتستمد المسيحية إيمانها بالله من أكثر من مصدر .

وأولى هذه المصادر الكتاب المقدس ، وخاصة العهد الجديد ، الذي يرون فيه الله معلناً في حياة المسيح وخدمته وتعاليمه وموته وقيامته . وقد صاغت الكنيسة هذه المعتقدات في قانون مسطور يسمونه « قانون الإيمان »، وهو الذي يشمل ماتسلاًته الكنيسة مدى أجيال متعاقبة من حقائق الكتاب المقدس .

ومع التسليم بأن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد لمعرفة الله ، فإن هناك شواهد وأدلة عن الله في نظام الطبيعة وجمالها وتنسيقها ، وفي الإنسان ذاته وما فيه من صلاح ونبوغ وقدرة على الكفاح في سبيل القيم العليا، مثل الأنبياء والقديسين ، وكذلك في الاختبار الديني الذي يشهد له ملايين من أخيار الناس . والله في المسيحية صفات وخواص — كما في الأديان الأخرى نجملها فيما يلي :

أولاً - الله هو الخالق :

يستهل الكتاب المقدس بقوله: « في البدء خلق الله السموات والأرض »^(١) ثم تعقب هذه آيات أخرى تثبت أن الله خلق جميع الكائنات بكلمة قدرته . وفي سفر المزامير يتغنّى المرنم بقوله : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه »^(٢) . وفي سفر أشعيا يقول النبي : « أما عرفت ، أم لم تسمع . إله الدهر ، الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا . ليس عن فهمه فحص »^(٣) . وقد أشار المسيح في العهد الجديد ، في أقواله وأمثاله ، إلى خالق عالم الطبيعة مثل طيور السماء ، وزنايق الحقل ، والشمس التي تشرق على الصالحين والظالمين ، والمطر الذي يهطل على الأبرار والظالمين (متى ٥ : ٤٥ و ٦ : ٢٥-٣٣) . وكذلك يشير إلى خالق عالم الإنسان ، الذي يعتنى به ويرعاه ، في مثل حديثه عن الدرهم المفقود ، والراعى الذى يصعد فوق النجاد ويهبط إلى الوهاد ، سعيًا وراء الخروف الضال (لوقا ١٥ : ٣-٣٢) .

ثانياً - الله هو الديان :

إن الخطية في العالم شر مستطير ، وهى تقفناى مع إرادة الله الطاهر القدوس وقصده نحو الإنسان . ولكن ما هى الخطية ؟ لعل المسيحية هى الدين الوحيد الذى استعمل هذه اللفظة ببدلول خاص . وهى فى نظر المسيحية تعنى أحد أمرين : إما حالة شخصية للإنسان كله ، أو عمل خاطئ معين أو موقف معين . وفى كلتا الحالتين هى مضادة لإرادة الله المقدسة .

وإذا حسبنا الخطية حالة عامة للإنسان ، أو خطايا معينة ، فالله لا يستخف بها . وهو عادل بار فى إدانة الخطيئة ، وعقاب الخاطئ الذى يرفض التوبة . وقد

(١) تكوين ١ : ١

(٢) أشعيا ٤٠ : ٢٨

(٣) مزمو ١٩ : ١ <http://kotob.has.it>

يكون هذا العقاب المأنيشاً عن مخالفة نواميس الله الأدبية . ويرى بعضهم أن هذا الرأي عن دينونة الله لا ينسجم مع محبة الله . ولكن ينبغي أن نضع محبة الله وعدله جنباً إلى جنب ، والله ليس متهاوداً عاطفياً ، ولا جباراً منتقماً . انه عدل ورحمة وبرٌّ ومحبة . والله من فرط رحمته ومحبته لا يريد أن يهلك أحداً ، ولكن عدله وبره لا يُفعلان .

ثالثاً - الله فاد ومخلص :

ليست دينونة الله الكلمة النهائية . وهذا هو جوهر العقيدة المسيحية . لأن محبة الله ورحمته تبقيان على الرغم من خطية الإنسان . وفي العهد القديم وعد الله شعباً اختاره أن يكون له ربا وإلهاماداموا على العهد مقيمين ، ولكنهم زاغوا وفسدوا مرارا وتكرارا ، وعبدوا آلهة أخرى ، واقترفوا المعاصي والذنوب . ولكن الله بقي على عهده ، ووعدهم بفاد أو مخلص ، حتى ولو أنصتت لدعوته أقلية ضئيلة من المؤمنين به .

وقد زعم هذا الشعب أن المسيح الذي وعدهم به ربهم ، سيكون منقذا سياسيا يعيد إليهم مجدهم الدارس ، وعزهم السليب . ولما جاء المسيح أبى عليهم هذا الزعم الباطل ، وأعلن لهم أنه جاء ليذبح محبة الله ورحمته ، وينقذ الخاطئين من شرورهم وآثامهم ، ويردّهم إلى الحياة الجديدة عن طريق الإيمان والتوبة والطاعة ليحقق لهم غفران الله ومرضاته .

هذه هي الرسالة التي قدمتها المسيحية للناس ، والتي صاغها الرسل وقادة الكنيسة في عبارات لاهوتية مسطورة .

ولأن أتباع المسيح رأوا فيه الله متجسداً ، تحدثوا عنه كربٍّ ومخلص وفاد . وليس معنى هذا أن المسيح إله ثان ، فالمسيحية ديانة توحيد لا تؤمن بإله غير الله الواحد الأحد ، على أنهم رأوا في يسوع صفات المحبة والرحمة والحنان التي

تسوقهم للتوبة عن ذنوبهم ، وطاعة الله وعبادته ، الله الذى دعاه يسوع أباً .

رابعا - الله الآب

تفرّدت المسيحية فى إطلاق هذه الصفة على الله ، ولكن ليس لهذه اللفظة فى المدلول المسيحى ، أية صلة بالأبوة البيولوجية ، وقد علّم يسوع أتباعه أن يصلوا قائلين : « أبانا الذى فى السموات ٠٠ » ، وهى الصلاة الربانية التى يرددها المسيحيون فى كل أرجاء الأرض .

وقد تبنت الكنيسة هذه الصفة من صفات الله ، وصاغت فى نصوص عقائد الإيمان . وكلمة « أب » بسيطة فى معناها ، عميقة فى معناها ، فالله الآب السماوى يحبنا كأبناء - أبراراً كنعاناً أو خاطئين ، مذنبين كنعاناً أو تائبين ، حكماء كنعاناً أو جاهلين - وقد لا نكون أهلاً لحبة الأبوة الإلهية (كما شرح المسيح ذلك فى مثل الابن الضال - لوقا ١٥ : ١١ - ٣٢) ، ولكنه لا يفتأ يحبنا حينما نجيء إليه بروح التوبة والإخلاص ، ولسان حالنا « أقوم وأذهب إلى أبى وأقول له يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك ، ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك ابناً » .

هذه هى الصفات الأساسية لله فى المسيحية : خالق . ديان عادل . فاد مخّص . أب . ولكن المسيحيين يؤمنون أن الله يرى كل شىء ، ويسمع كل شىء ، ويعرف كل شىء ، وهو قادر على كل شىء ، أزلى أبدي . انه الحاكم الأعلى لكل الكون ، وهو الإله الواحد الذى نستمد منه حياتنا ، وكل نعمة من نعم الأرض . وهو بعيد عنا جداً وبلا حدود ، ولكنه معنا أيضاً ، ويعمل الخير لأجلنا . هو يمنحنا عزاء فى كربنا ، ونوراً فى ظلامنا ، وقوة فى ضعفنا .

ويؤمن المسيحيون بوحدة الله الواحد ، وهو كآب يحبّ الناس أجمعين ، بمحنان غير محدود ، فكلهم أخوة وأبناء للآب الواحد وفى يسوع المسيح

أعلن لنا ذاته وطبيعته في جلاء ووضوح . وبالروح القدس نحس بحضوره معنا وقربه معنا — كأب وابن وروح قدس — وسنعود إلى عقيدة الثالوث في فصول تالية.

يسوع المسيح في المسيحية

« المسيح » كلمة يونانية تعنى « الممسوح » ، ولذلك دُعى المؤمنون به « مسيحيون » . وقد كان المسيح إنساناً كاملاً معصوماً من الخطيئة ، خلافاً لسائر الأنبياء والمرسلين . ولكنه لم يكن عبقرياً دينياً ولا مجرد رسول ، بل كان « كلمة الله وروحه » . كان إلهاً متجسداً ، أعلن للناس في حياته ذات الله ، وصفاته ومحبه للبشر .

ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن المسيح ولد في فلسطين من عذراء طاهرة ، لم يمسسها رجل ، في قرية بيت لحم ، وفي عصر أغسطس قيصر الرومان . وفي بداية خدمته العامة اختار اثني عشر رجلاً من تلاميذه يحملون الرسالة من بعده . وبعد خدمته العامة التي ناهزت ثلاث سنوات قضاها يعلم الناس عن ملكوت الله ، ملكوت البر والحق والمحبة والخير ، ويشفي المرضى ، ويجري المعجزات الباهرات ، تصدى له الفريسيون اليهود ، وهم الحفاظ على الناموس ، والصدوقيون وهم طبقة الكهنوت الأرستقراطية ، والرومان الذين خشوا على سلطتهم من تعاليمه الجديدة ، وحكموا عليه بالموت صلباً .

على أن صلبه لم يكن نهاية القصة ، فقد قام في اليوم الثالث وانتصر على الموت وعلى القبر ، وأظهر قوة الله العجيبة في فداء البشرية . والقيامة عقيدة جوهرية في المسيحية ، إذ تؤكد وجود المسيح الحي بين أتباعه والمؤمنين به ، وهي عربون الحياة الأبدية ، وأقوى دليل على قوة الله وعدله وتزكيت الخير والبر .

تجسد الكلمة :

« التجسد » كلمة في علم اللاهوت المسيحي تدلّ على أن « (المسيح) قد صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده - مجداً كما لو حيد من الآب مملوئاً نعمة وحقاً » (يوحنا ١ : ١٤) ، ففي المسيح المتجسد نرى مشيئة الله وقصده ، وندرك طبيعته وذاته ، وحقه ومحبه . [وسنعود إلى هذا البحث بإسهاب]

وليس المسيح إعلان الله وحسب ، بل هو أيضاً فادى الأنام ، ومخلص البشرية ، الذي يقود الناس إلى الحياة الجديدة .

معنى الصليب :

الصليب هو رمز الإيمان المسيحي ، وذلك لأن موت المسيح بأيدي آئمة أبفضوه وأساءوا فهم رسالته ، حقيقة تاريخية . ويسمى التعليم المسيحي عن الصليب « عقيدة الكفارة » ، فكأن موت المسيح على الصليب أقام « قنطرة » على الفجوة التي كانت قائمة بين الله والناس .

وهذا لا يعنى أن الله قد انفصل عن البشر وتفاضى عنهم ، ولكن العكس هو الصحيح ، فالناس هم الذين بعدوا عن الله بمعصياتهم وذنوبهم ، ولكن محبة الله لهم ظلّت قائمة ، وقد حاول الله أن يردنا إليه بمحبته التي تبدّت في المسيح ، لكي نصير خليفة جديدة فيه . هذا هو لبّ الإيمان المسيحي والاختبار المسيحي .

وينبغي أن نفكر في موت المسيح ، لا كموضوع قائم بذاته ، بل مرتبط بما سبقه وما لحق به . . . بدعوة المسيح وحياته على الأرض ، حيث كان الله يتكلم في ابنه (كلمته) ، داعياً الناس إلى الخلاص . وقد بانّت محبة الله ورحمته وقوته على الخطية والموت في غلبة يسوع على الموت ، وفي القيامة التي زكّت هذه الحياة الطاهرة ، وأيدت غلبة الخير على الشر ، والحق على الباطل .

ومنذ فجر المسيحية قامت العقيدة المسيحية على أن « يسوع المسيح ربّ » .

وفي سبيل هذه العقيدة كالفوا وناضلوا بدعوى السلام في عالم معادٍ ، وعانوا الاضطهاد والموت راضين مؤمنين . وما تزال هذه العقيدة قوة المسيحية ، تقوم على حياة يسوع المسيح وموته وقيامته ثم حضوره الحى . ولئن كان الذين يدعون أنفسهم مسيحيين لا يتمسكون دائماً بهذا الإيمان الحى ، إلا أن المسيحية قوة للخير أينما حلت .

الروح القدس :

الروح القدس هو الأتقنوم الثالث في الله الواحد الأبدى غير المحدود ، وهو يعمل في حياتنا ، وموجود معنا دائماً . وفي البيان الذى سجله البشير يوحنا عن غشاء يسوع الأخير مع تلاميذه ، قال لهم المسيح انه سوف لا يتركهم بلا معين ، وانه سيرسل لهم معزياً باسمه ليكون معهم إلى الأبد ، ويرشدهم إلى كل الحق ، ويذكّرهم بكل ما علمهم به . ويسوع ، كإنسان ، لم يكن ممكناً له أن يوجد في كل مكان ، وفي كل زمان . لذلك وعد تلاميذه أن يكون روحه معهم في كل مكان وإلى نهاية الزمان . فالروح القدس هو المسيح الحى . من ثم يكون الإله الواحد متمثلاً في مظاهر ثلاثة : الله الآب . الله الابن . الله الروح القدس . وسنعود إلى الموضوع بأوفى بيان في فصول تالية عن « كلمة الله » و « الثالث » .

عمل الروح القدس فينا :

هل نحن في حاجة للروح القدس مادام لنا الله ؟ إن بولس الرسول يفترض عقيدة الثالث كأنها قضية قد سلمت بها الكنيسة منذ البداية بقوله : « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم أجمعين » (٢ كورنثوس ١٣ : ١٤) . وهى البركة الختامية فى العبادة المسيحية . وترى ما معنى « شركة الروح القدس » ؟

إن الروح القدس هو حضور الله معنا ، وعمله فينا . ويؤمن المسيحيون أن

الله ذو جلال يعلو بعيداً عنا. هذه هي طبيعة الله في السمو والعلو والعظمة والقدرة، على أن المسيحيين يؤمنون أيضاً أن الله روح شخصيٌ محب للبشر، يهتم بهم وهو قريب منهم. والإيمان بالروح القدس يؤكد هذا القرب الإلهي والمحبة الالهية. الله الروح القدس يتحدث إلى أعماق أرواحنا، ونستجيب له بأفكارنا وحياتنا. ونحن نتحدث إليه في الصلاة، واثقين أنه السميع الذي يهبنا الإرشاد والقوة، ويهديننا إلى سواء السبيل، في كافة القرارات التي نتخذها.

الكنيسة المسيحية

كان يوم الخمسين عيداً يهودياً مقدساً، وهو يقع في اليوم الخمسين بعد عيد الفصح. وكان أتباع المسيح مجتمعين معاً بعد صعود ربهم إلى السماء، وإذا بإحساس جديد قد غمرهم، وحاس قد استبدَّ بهم. وتقول القصة «ألسنة من نار» استقرت عليهم. وسمِعهم الواقفون يتكلمون، كلٌّ في لفته. وقد يرمز هذا المظهر إلى وحدة عميقة في المسيح، ارتفعت فوق حواجز الجنس والقومية واللغة... هذا هو الذي نسمّيه في المسيحية «حلول الروح القدس» على أتباع المسيح. وبعد أن ألقى بطرس زعيم الجماعة عظة دعاهم فيها إلى التوبة وغفران خطاياهم في المسيح، قبل كلامه ثلاثة آلاف شخص، اندمجوا معاً في شركة واحدة، في الصلاة والتسبيح. وتختتم قصة يوم الخمسين بهذه العبارة: «وكانوا يوماً فيوماً يجتمعون في الهيكل معاً ويكسرون الخبز في بيوتهم، وكانوا يتناولون الطعام بفرح وبهجة قلب، مسبّحين الله، ولهم نعمة لدى جميع الشعب. وكان الرب يضمُّ كل يوم إلى الكنيسة الذين يخلصون» (أعمال ٢: ٤٦ - ٤٧).

هنا نشأة الكنيسة في التاريخ

وفي سفر الأعمال ورسائل العهد الجديد، نلتصق حماس الكنيسة الفتية لنشر الدعوة المسيحية في كل مكان، بدون سيف ولا رمح، وبدون حرب

ولا جهاد. وعلى الرغم من الصعاب الكثيرة، والاضطهاد الذي عانته تلك الفئة المستضعفة من الناس، تكونت في العهد الأول جماعات مسيحية على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، وفي آسيا الصغرى، وفي جنوب أوروبا، وإلى جهة الغرب حتى رومية. وكان بولس اليهودى المهتدى مرسلًا عظيمًا، كما كان لاهوتيًا وإداريًا، وكتب رسائله إلى الكنائس التي أسسها في رحلاته.

ويؤمن المسيحيون أن الروح القدس ما فتئ يتكلم حتى اليوم للأفراد وللكنيسة الجامعة، مقدما الإرشاد والقوة في كل موقف جديد، وفي كل مشكلة عاصية. والمسيحية لا تنظر إلى الوراء، إلى تاريخ قديم، بل إلى مستقبل أمجد، بقوة الروح القدس وإرشاده، وهو حيٌّ على الدوام.

طوائف المسيحية :

هناك طوائف عديدة في المسيحية مثل الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت، وثمة خلافات ليست جوهرية ظهرت على مسار التاريخ لأسباب قومية ولغوية وعنصرية، ولكن جوهر الإيمان واحد في جميعها. وفي هذا العصر نضجت فكرة الوحدة المسيحية، وهى تأخذ الآن مجراها في التاريخ. والكنيسة المسيحية ليست نظاماً دنيوياً، ولكنها شركة في المسيح، ومؤسسة في المجتمع، ونظام لبث الدعوة وخدمة العالم أجمع.

١ - الكنيسة شركة في المسيح :

المسيحية بطبيعتها لا يمكن أن تكون دين عزلة. وقد ظن قلة من المسيحيين أن يهربوا من العالم، وينخرطوا في سلك الرهبنة، لحفظ نفوسهم طاهرة. ولكن الحالة الطبيعية للمسيحية أن تعيش في العالم، وتبث دعوتها ورسالتها، وتحدم البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وبيئاتهم، وأن تحيا حياة جماعية في جماعات كبرى أو صغرى، تسمى كنائس أو طوائف، هى بمثابة سر في

أمة الله، تجمعها كلها رابطة وأخوة هي الإيمان بالمسيح، وإن اختلفت في بعض الطقوس والعادات والممارسات الشكلية.

فالكنيسة إذاً هي شركة رأسها المسيح.

الكنيسة مؤسسة في المجتمع :

ولئن تسكن الكنيسة، قبل كل شيء، شركة رأسها المسيح، ومسيّرُها هو الروح القدس، إلا أنه لا بد من نظام فيها يدير شؤونها، وقوانين تحكم إدارتها، وقادة ومجالس إدارية يشرفون على نواحي نشاطها وخدمتها في العالم. وعلى الكنيسة أن تتعاون مع الهيئات والمجتمعات الأخرى، ومع الدولة التي تميش في كنفها — على أن يكون ولاؤها أول كل شيء، وقبل كل شيء، لله، ولو عانت في سبيل ذلك أمرٌ صنوف الاضطهاد.

الكنيسة شاهدة لربها :

والكنيسة ملتزمة باذاعة كلمة الله، بالعبادة وإقامة العبادات، وممارسة الأسرار المقدسة، والقيام بالخدمات المسيحية، الاجتماعية والطبية والتعليمية والثقافية.

الكنيسة خادمة للعالم :

رأينا الكنيسة في مهدها تشهد للمسيح، وتخدم العالم بياعث من الروح القدس، وتذيع رسالتها فيما وراء حدود الشرق الأوسط، حيث نبئت اليهودية والمسيحية. وفي كل أطوار التاريخ لم تتوان الكنيسة عن نشر هذه الدعوة في كل أرجاء الأرض، وإلى أبعد الأصقاع ومجاهل الدنيا.

وليس الهدف من رسالة الكنيسة، كسب الأنصار إلى هذا الدين وحسب، ولكن المسيحية تهتم قبل كل شيء بالخدمة العامة في سائر بلدان الدنيا، وتمتد يد العون والإسعاف لأبناء الإنسانية على اختلاف نزعاتهم وأديانهم وجنسياتهم إبان الكوارث والأزمات والضيقات، وتسهم بنصيب وافر في الخدمات الاجتماعية، ومحو الأمية، ومساعدة اللاجئين، وغير ذلك من جهود.

الله في المسيحية

الله قريب المنال - هو قوة أدبية روحية - الله تداخل الى عالم الاختبار الانساني .

إن فكرتنا عن الله تطبع أثرها العميق في حياتنا العملية ، لأنها تؤثر على المرء وهو يباشر عمله ، وهو يعامل أفراد أسرته ، وهو ينفق أمواله . لماذا ؟ لأن الناس يسرون على نسق الأشياء التي يعبدون . قال المرنم العبري القديم :

« مثلها يكون صانعوها » !

والله هو المثل الأعلى الذي عرفه الإنسان ، وحسبك أن تجعل هذا المثل خفيضاً أو دينياً تهبط بالناس إلى مرتبة خفيضة دينية . والإله القاسي الغاضب الذي لا يبالي ، يجعل الناس الذين يعبدونه قساة غاضبين غير مباليين .

ولعلَّ أهم سؤال يوجهه السائل لإنسان قوله : « مَنْ هو إلهك ؟ » وهنا مفتاح السر ، لكشف أخلاق الفرد ومثله العليا .

وحين نسأل هذا السؤال الهام ، ونصطدم ببعض الصعاب ، فأين نجد الجواب ؟ ما أكثر الذين فكروا في هذا الموضوع وتكلموا عنه ، وما أكثر الكتب التي أخرجتها القرائح البشرية في وصف الله سبحانه وتعالى ، وما أضخم المؤلفات التي حوتها المكتبات . ولكن إلى مَنْ نتجه للظفر بالجواب الصحيح ، وما الصوت الصارخ من بطون الأجيال لإرشادنا إليه ؟ إنا لا نجد في نهاية الأمر إلا صوتاً واحداً — هو صوت يسوع ، فهو النبع السخي الذي استمدت منه الأجيال المسيحية وحيها وإلهامها . ولقد اختلف علماء اللاهوت وتباينت آراؤهم ، ولكنهم اتجهوا كلهم في تفكيرهم نحو يسوع . فلنتجه إليه نحن أيضاً . وليست عظمتة في أنه أدبي أخلاقي وحسب ، فإنه قد أعلن أيضاً في اختباره

حقيقة الله وذاته ، فعنه نعرف مَنْ هو الله في الاختبار الإنساني .

الله قريب المنال دائما :

وحين نفكر في صلة يسوع بالله ، كما دونتها بشار الإنجيل ، ألا نجد قبل كل شيء أنه قريب المنال ؟ هو قريب إلى الناس ، وهو يملؤ كل لحظة من حياة يسوع ، فهو لم يعهد البعد عن الله في أى وقت من أوقات حياته - سواء اكان في إبراء الناس أم تعليمهم ، سواء أكان في راحته أم سيره - الله معه في كل وقت .

وليس معنى هذا أن الله موجود في كل شعور ، وفي كل مكان وحسب ، بل انه قريب إلى الإنسان في قصده وعطفه واهتمامه وعنايته ، وتأثيره يمتد إلى كل لحظة في الحياة وإلى كل موقف منها . وقد قال يسوع : « أليباع عصفوران بفلس ، ولكن واحدا منهما لا يسقط بدون أبيكم » . وهذا القول يقوم على فكرة قوامها أن العالم مليء بإله قريب إلى كل شيء ، ويعنى بكل شيء .

وتبرز هذه الفكرة بروزاً قوياً في استخدام يسوع لكلمة « الآب » وصفاً لله . ولم تكن هذه الكلمة مستحدثة ، بل جاءت من قبل في العهد القديم وفي دين الإغريق ، ولكنها كانت تظللها فكرة أخرى - هي فكرة قوة الله وسلطانه . فكان القوم ينظرون إلى الله نظرهم إلى الإمبراطور الرومانى ، عاهل قوى جبار لا يقربه أحد . كان « ملك الملوك ورب الأرباب » وهذه فكرة صحيحة لا عيب فيها ، ولكن إلهاً كهذا لا يكون قريباً من الناس . يحكم ويتسلط ، ولكنه لا يتخلل نسيج الحياة . ولذا قال يسوع « أبا الآب » - وبهذه الكلمة ذكرَّ الناس أن الله هنا على الأرض ، وأنه يُعنى بالبشر ، لا يستصغر أحداً في نظره ، بل يفهم أقل حاجات خلائقه وأدق أفكارهم .

ولكى نفهم معنى هذه الفكرة يجب أن نوازن بينها وبين فكرتين آخرين عن الله - فهناك فكرة تقول ان الآلهة أعظم وأرفع من أن تُعنى بشئون البشر، ان الآلهة تتحكم فى الناس، ولكنها لا تهتم بأمورهم. هذه كانت الفكرة اليونانية القديمة، فان آلهتهم كانت تولى الولائم وتقيم الأفراح فوق جبل الأولمب وهى فى شغل شاغل عن البشر، ليس لديها فسحة من الوقت أو الفكر لتعنى بشأن عبد حقير. وهذه أيضا هى الفكرة الإسلامية عن الله، فهو عظيم أكبر، سيّد الحياة وربها، ولكنه ليس قريبا الى حياة الإنسان، لا يُعنى بمشاكلها ولا يجرؤ اختباراتها.

وثمة فكرة أخرى، هى فكرة العلم الحديث التى تقول ان الله خلق العالم، ولكنه تخلى عنه الآن. وكأن الله أشبه بالمهندس واضع التصميم، خلق السموات والأرض ووضع نواميس الطبيعة، ثم كفَّ يده عن العمل وترك الكون يسير على هدى نواميسه، وهو بعيد عنا اليوم بعد صانع قطار السكة الحديد عن الناس الذين يسافرون فيه.

لكن المسيح يصيح احتجاجاً على هاتين الفكرتين، فالله ليس أكبر وأعظم من أن يهتم بنا، وهو لم يتخلَّ عن أداة الكون بعد صنعها. إنما هو موجود اليوم، يملأ حياة كل بشر، كما تملأ أفكار الآب حياة ابنه. « وإذا صليتم فقولوا: أبانا .. ». هذا هو سرُّ الله الذى عرفناه فى المسيح، يملأ حياة كل بشر.

الله فى الجوهر قوة أدبية روحية :

- اقرأ الإنجيل مرة أخرى واسأل نفسك: ما الذى يجعل الله إلهاً، وما سرُّ حياته، وما جوهره، وكيف فكَّر المسيح فى الله.

وقد أجاب البشر على السؤال القائِل : « مَنْ هو الله » جوابين . قالوا

أولاً ان الله قوة. سرّ حوا بابصارهم إلى البحار والجبال ، وشعروا بالمواصف والزوابع ، فهالهم قوتها وبطشها . فاصطنع الإنسان البدائي لنفسه آلهة القوة وقضى معظم وقته خائفاً مذعوراً منها لثلاث تؤول إليه . وقالوا ثانياً ان الله عقل مدبر ، رأوا بعيونهم عجائب النواميس الطبيعية ، فقالوا ان الله عاقل حكيم ، يدير دقائق الكون بحكمة وعقل . هذا هو اله العلم الحديث . ولقد أطلق أحد العلماء لقباً على الله فقال انه « الرياضي الأكبر » .

وقد اعترف يسوع طبعاً أن الله قادر عزيز ، وأنه مدبر حكيم . ولكن حين أراد أن يصف الله بأخص أوصافه قال : الله هو الخير والصلاح ، هو القوة الادبية الروحية - فالحق والعدل والقداسة والبر - هذه أخص صفات الله . وفي أقوال الإنجيل الكريم يلتقي المسيح أبهر الأنوار على طبيعة الله الأدبية والروحية ، لا يقول إلا القليل عن قوة الله وحكمته ، ولكنه يتكلم في كل صفحة من صفحاته عن طبيعة الله الأدبية . وهذا هو معنى « محبة » الله . ليست إحساساً من العطف ولا الإشفاق ، بل هي عمل الخير والصلاح للناس ، محبة الله العامل في الكون . وقد كانت هذه الفكرة في قلب أشعياء حين قال عن الله « تعالى الله في البر والصلاح » . فلا الحكمة ولا القوة هي التي تجعل الله إلهاً ، بل البر والصلاح .

وأقوى مظهر لطبيعة الله الأدبية نراه ماثلاً في الصليب . وانه ليصعب على كثيرين أن يروا ضرورة الصليب في العقيدة المسيحية . فإن إخواننا المسلمين يقولون : « ان الله بلا شك قادر أن يمحو الخطية ، وان يقول (معلمش) كما نقول نحن في حديثنا » . نعم يقدر الله أن يقول هذا ، وهو يقوله إذا كان لا يعبأ شيئاً بالصلاح والبر ، ولكن لأن الله يهتم اهتماماً جدياً بالصلاح والبر ، نراه لا يكتفي فقط بأن يغفر للانسان ، بل يغيّره ويحدد ذهنه ، ليكون إنساناً أفضل . لا يكتفي الله بأن يمحو الخطية ، بل يمحوها على طريقة تحمل الإنسان على

كرهها ومقتهها. من ثمَّ كان الصليب الذى أعلن فيه كل غضب الله وألمه إزاء مظالم العالم وأخطائه ومساوئه، وتمثل فيه كره الله للخطية وحزنه عليها . هذا هو ما تفعله الخطية بالله - تجرح قلب الله جرحاً عميقاً بحيث يرتضى أن يحملها فى نفسه ، إذا كان فى هذا السبيل الغلبة عليها .

والأخذ بهذه الفكرة أخذاً جدياً يبدل وجه الحياة كلها ، فلا نخدم الله فقط بصلاتنا وأصوامنا وعبادتنا ، بل بصلاحنا ، لأن الحياة الصالحة البارة هى العبادة الحقيقية التى يرضاها الله . وبهذا تغدو الأخلاق ، لاشيئاً تكميلياً للدين ، بل هى الدين ذاته ، لأن حياة الصلاح والبر هى التى يريد بها الله منا .

وهذه الحقائق كلها نتعلمها من التجسد

ورب قائل يقول : هذه كلها أفكار نبيلة عظيمة ، ولكن كيف نعرف أنها حق ؟ من ذا الذى رأى الله إلهاً قريباً إلينا ، ورآه قوة أدبية روحية ؟

وهذا السؤال يأتى بنا الى النقطة الثالثة فى الفكر المسيحى عن الله . فهو إله تداخل الى عالم الاختبار الإنسانى بواسطة تجسده فى يسوع الناصرى . فإذا سئلنا هذا السؤال ، أجبتنا : « انظروا الى يسوع ، وادرسوا حياته ، واستمعوا الى أقواله ، وأبصروا أعماله ، فتروا قلب الله » . كان هذا فكريسوع نفسه. ألم يقل لقيلبس : « من رآنى فقد رأى الآب » .

ولا أنكر أن هذا بحث عميق حقاً . على أننى أعتقد ان أساس التجسد لا يحتاج إلى عناء الفكر . فإننا اذا أردنا أن نعرف شيئاً عن أمر ما ، وجب علينا أن نتصل بهذا الأمر عن قرب . واذا أنا أخفيت شيئاً فى يدي ، فأنت لا تعرفه إلا اذا جسسته ولمسته ورأيتَه وذقته وشمته . وبدون هذا تقدر فقط أن تذهب الى الحدس والتخمين ما شئت أن تذهب . هكذا مع الله ، إذا أردنا أن نعرفه ، فلا بد أن يكون بيننا وبينه صلة .

فما هذه الصلة ؟ يقول بعضهم انها الطبيعة التي تعلن مجد الله وحكمته ، ويقول آخرون انها كتاب ديني مثل الكتاب المقدس أو القرآن الكريم ، حيث دونت شرائع الله وأحكامه . ولكن الفكر المسيحي عن الله لا يتمشى مع هذا الرأي ولا ذاك . فإن كان الله في جوهره وذاته صلاحاً أدبياً وبراً ، لا بد أن يعلن ذاته في حياة ، لأن البر والصلاح لا يتمثلان الا في حياة انسانية . فانت لا تقدر أن تقول مثلاً على الأحجار أو الكتب انها صالحة بارة . ولن تقدر أن تقول إلا رجالاً أبراراً أو نساء صالحات . ولذلك لا يمكن أن يعلن لنا الله قلب بره وصلاحه وقوته الأدبية إلا عن طريق حياة إنسانية كاملة . ويسوع المسيح هو الله يتصل بنا في حياة البشر . وهذا هو السبب الذي يحمل المسيحي على الإيمان ان « كلمة » الله ليس كتاباً - ولا الكتاب المقدس ذاته - بل هو شخص حيٌ - يسوع الناصري الذي يشعُّ نور الله في وجهه .

وهذا ما يجعل المسيحي واثقاً أن الله قريب اليه ، وأن الله في جوهره برٌ وصلاح . والمسيح هو هذه الأشياء كلها ، نرى إلى وجهه ، فنبصر صفات الله متلمعة فيه .

الإنجيل في المسيحية

خَيْل للذين وقفوا فوق تلة الجلجثة تحت صلبان ثلاثة ، ان تلك كانت نهاية المطاف . فقد مات يسوع الناصري بين لصين . وكان ذلك بعد ظهر يوم الجمعة فوق تلة جرداء خارج أسوار أورشليم . وفي وقت الظهيرة أظلمت الشمس ، وتحت ستار هذه الظلمة الرهيبة أسلم يسوع الروح ، وانتهت الأيام القلقل التي قضاها معلماً وشافياً . ولم تعد الجموع تسمع من شفثيه كلمات الحق والحياة . ولم تعد تطأ قدماه — هو وحفنة من أتباعه — طرقات الجليل واليهودية المعفرة بالتراب . انتهت مهمته التي خالها الناس بعثة المسيح المرتقب .

في خلال ظلمة يوم الجمعة ، أحسَّ التلاميذ ان رجاءهم قد بات ملفوفاً بالسخرية . فلا يعقل أن مَنْ حسبوه ابن الله يحكم عليه قادة دينهم ، وتصلبه السلطات الرومانية . ولم يكن مستساغاً ان تحقيق المواعيد التي حفلت بها أسفارهم المقدسة ، يتمَّ عن طريق إنسان مائت على الصليب . من ثمَّ يهرب بطرس والآخرون مثقلين بخيبة الرجاء ، وتحطم الآمال العريضة . ولم يبق عند قدسى المصلوب غير التلميذ الذي أحبه سيده ، والأم العذراء .

واذ تقترب النهاية يفسدل على المشهد ستار كثيف . ويسوع لم يخلف وراءه سجلاً مكتوباً . ولم تحتزن ذكريات أعماله وأقواله إلا في قلوب وعقول فئة قليلة من مريديه وتلاميذه . والأعرج الذي طفر على رجله ، والأعمى الذي غدا بصيراً ، والجائع الذي شبع بطفه ، والأطفال الذين نعموا بلحسة محبته وعطفه ، والرجال والنساء الذين امتلأت قلوبهم بالأمل الكبير ، والتلاميذ الذين بهرتهم الرؤى المجيدة — كل هؤلاء سيذكرونه إلى حين . . . ولكن ماذا بعد ذلك . فالعقول البشرية مهما قويت خزان رقيقة ، فكيف تحمل هذه الذكريات السعيدة ؟

لم يكن هذا أملاً قابلاً للتحقيق . فصدمة موته كانت كافية لمحو هذه الذكريات . وقد اقترن هذا الموت بالعار والخوف والأمل الضائع ، بحيث كان محتملاً أن ينسى التلاميذ أحداث السنوات القلال التي قضوها معه .

وبعد ثلاث ساعات من الظلمة المدهمة خرجت صبيحة داوية من فوق الصليب « قد أكل » وبعدها همسات خافتة : « يا أبتاه في يدك استودع روحي » .

أهذه هي النهاية المفجعة !

بقلوب ملفوفة بالغم والحزن ، اقتاد التلميذ المحبوب الأم المباركة إلى بيته في أورشليم . وأشار الكهنة والشيوخ والكتبة إلى اللات على الصليب الأوسط إشارة الشماتة والتشفي قائلين : لم يعد له الآن حول ولا طول لإثارة الشعب علينا .

وفي تلك اللحظة الحاسمة في تاريخ البشرية ، كنت ترى مواطناً أورشليم يعودون إلى بيوتهم وحوارياتهم ومجامعهم ، وهم لا يدرون معنى ما رأوا وما سمعوا . أما الكهنة والكتبة فقد عادوا إلى أدراج الناموس والأنبياء ، وهم يجهلون أن هذا الذي مات قد كملت فيه كل المواعيد . وراحوا ينقبون في كتبهم عن المسيح المرتقب ، وملكوت الله ، والفادي ، والمنقذ ، ونور الأمم والشعوب ، وديان العالم . وظلوا في أناتهم وتنهدياتهم آملين أن يتحقق هذا يوماً ما !

وفي قصر هيرودس كنت تشهد الوالى الرومانى — بيلاطس البنطى — يوقع على صك الإعدام رسمياً ويتأهب لإرساله مع حاشية عسكرية إلى طيباريوس قيصر لاعتماده .

لقد انتهى كل شيء . ولعل المدونات التاريخية يومئذ سطرت عبارات قليلة عن هذا الحادث . فان تاسينوس المؤرخ الرومانى يقول فقط : « إنسان

اسمه المسيح حكم عليه بيلاطس البنطى بالموت فى عهد طيباريوس قيصر ..
وذلك لأن التاريخ لاتتسع صفحاته للآمال الضائعة والحركات الخاسرة !

فى يوم السبت كان صمت وحزن وخوف . وفى فجر الأحد ، ارتفع الستار
الأسود الذى أعمى أبصار الناس . فأبصروا أمجاد القيامة وأخذ التلاميذ
والرواة يتحدثون عن هذه الأحداث الجسام ..

وكان نسوة قد انطلقن فى فجر ذلك اليوم حاملات الأطياب لتحنيط
الجسد الموضوع فى قبر منحوت فى قلب الصخر ، وقد رأين الحجر مدحرجا
والقبر فارغاً ، وسمعن ملاكاً يقول : المسيح قام ! وظفرت مريم المجدلية بأول
حديث مع السيد المقام ، وهرولت مسرعة لتنبئ بطرس ويوحنا اللذين أقبلتا
سراعاً ورأيا فأمننا .

وفى بادئ الأمر لم يصدق أحد هذه الروايات عن القيامة ، حتى بعض
التلاميذ أنفسهم حسبوها قصصاً خرافية ، ولكن يسوع ظهر لهم خلال أربعين
يوماً أكثر من مرة . وشهده تلميذان فى طريقهما إلى عمواس وتعشيا معه .
ورآه بعيونهم خمسمائة من الأخوة . وتجمعت لديهم كل الأدلة المثبتة لحقيقة
القيامة . وبدون هذا لا يمكن تأويل التغيير العظيم الذى طرأ على التلاميذ ،
فقد غالبهم يوم الصلب رعب هائل ، وحزن عميق ، ويأس مرير . ولكن
ما تنقضى أسابيع قلال حتى يخرجوا كالأسود من مخابئهم ليفتنوا المسكونة .

إذا لم تنته رسالة يسوع عند الجلجثة فى ألم وعار ، ولم تُنس أقواله وأعماله .
فان التلاميذ أخذوا الآن يفهمون سيدهم ، ويستذكرون أقواله وأعماله فى
معان جديدة . وبقلوب عامرة بهذه الذكريات راحوا ينادون ويبشرون جموع
الشعب ، وحلّ الروح القدس يوم الخمسين على جماهير غفيرة . . . وولدت
الكنيسة . . . ومن حياة الكنيسة واستجابة لحاجاتها ورغباتها ، انبثقت

هذه الكتابات الخالدة التي نسميها « الإنجيل او اسفار العهد الجديد » .

ويشمل العهد الجديد سبعمائة وعشرين وثيقة - أربع منها هي بشارات الإنجيل ، وواحدة سفر تاريخي هو أعمال الرسل ، واحد عشر رسالة ، وسفر الرؤيا . واقدم وثيقة في رأى بعض الشراح هي رسالة بولس إلى تسالونيكي على أرجح الأقوال ، كتبها من كورنثوس حوالى سنة ٥٠ ب . م اى بعد الصلب بعشرين سنة . ويقول آخرون ان الرسالة إلى غلاطية هي أقدم هذه الوثائق .

أما اقدم بشارت الإنجيل فهي بشارة مرقس كتبت في رومية حوالى سنة ٦٥ ب . م اى بعد أكثر من ثلاثين سنة من تاريخ الحوادث التي دونتها .

وهنا تتصدى لنا مشكلة : إن كانت أولى الوثائق المسيحية كتبت بعد حياة يسوع ، فكيف نستوثق بأنها مدونات تاريخية صحيحة . ثم ان أكثر هذه الوثائق كتبها أشخاص غير التلاميذ الأصليين الذين عاشوا مع المسيح . فبولس لم ير يسوع بالجسد ، وان يكن قد رآه في رؤيا باهرة في طريق دمشق . وقد يكون مرقس رأى يسوع ، ولكن في فترات متقطعة اهمها في بستان جنسائى . فكيف إذاً نضع ثقتنا في وثائق العهد الجديد ؟ وكيف نركن إلى مجرد ذكريات اختزنها الصحابة الأولون في عقولهم ؟ إننا اليوم ندون تقاريرنا ومذكراتنا بطرق شتى ، ولكن في القرن الأول لم يكن لدى العالم غير الأصوات البشرية ، والذاكرات البشرية ، لتدوين الوقائع التاريخية . فكيف قام الأولون بتدوين هذه الوقائع ؟

لو ان تلك السنوات التي انقضت بين موت يسوع وبين كتابة اول وثيقة ، كانت صمتاً مطبقاً ، ولو ان الرسل وشهود العيان الأولين ماتوا دون ان ينطقوا باسم يسوع ، لما كانت هناك مسيحية على الإطلاق ، ولكانت

أسفار العهد الجديد مجرد احلام ابتكرها كُتَّاب اذكاء ، وكنا نحن المسيحيين نسلّم بأن اسفارنا المقدسة ليست إلا مصنفات ادبية لاتستند إلى حقائق راهنة .

ولكن تلك السنوات لم تكن صمتاً ، بل حفلت بنشاط عارم للنشر الدعوة المسيحية ، وحماسة منقطعة النظير في الشهادة للمسيح . كانت تلك سنوات نادى فيها الرسل والمؤمنون جميعاً الذين رأوا سيدهم وسمعوه ، بعقيدتهم التي استندت إلى شهادة العيان . وقد تبدت آثار هذه الحركة الكاسحة ، وقوة المسيحية الأولى ، في فصول سفر أعمال الرسل ورسائل بولس . وما حلّت سنة ٧٠ ب.م حتى كنت ترى الكنائس المسيحية منتشرة ، لافي فلسطين وسورية وآسيا الصغرى فقط ، بل في مصر واليونان وإيطاليا ، وربما في أسبانيا أيضاً ...

كل هذا يشهد لدعاية واسعة النطاق ، وشهادة كانت تتمزج أحياناً بالعرق والدموع والدماء .

ولاشك أن أولى القصص التي اعتصمت بها الكنيسة ، وأحلتها مكانة الإعزاز والتقديس هي موت المسيح وقيامته ، وذلك لأن القيامة كانت الشعاعة التي أشعلت ضياء المسيحية ، وكانت استهلال البشارة المفرحة التي قهرت العالم ، وهي البشارة التي افتتح بها بطرس الرسول خطاباته الثلاثة الأولى (أعمال ٢ : ١٤ — ٣٦ و ٣ : ١٢ — ٢٦ و ٤ : ٨ — ١٢) وهي البداية التي بنى عليها الرسول بولس رسالته : « إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا ، وباطل أيضاً إيمانكم » (١ كورنثوس ١٥ : ١٤) .

وليس مستغرباً بعد هذا أنه عندما كتبت بشائر الإنجيل ، احتملت قصة

الآلام والصلب والقيامة ، التي لم تشغل إلا أسبوعاً واحداً من حياة يسوع ،
ثلث بشار متى ومرقس ولوقا .

ومن هنا أخذت الكنائس تتناثر في كل مكان ، لأن الرسل والمعلمين
جاءوا أصقاع العالم المعروف يومئذ ، حاملين هذه الرسالة الجديدة . وأذاع الرسل
والدعاة من كنوز ذكرياتهم أقوال يسوع وأفعاله ، وقصة حياته وموته وقيامته .
وقد كتبت البشائر فيما بعد من هذه المواد التي تلقنها المسيحيون الأولون . فلم
تنسج بشارت انجيلنا من نظريات مجردة ، ولم تؤلف في أبراج من العاج للتأمل
والنجوى ، ولم تكتب بطريقة فنية مصطنعة وتزويق لفظي ، إنما كتبت من
وقائع حفظها الناس عن ظهر القلب ، وتناقلوها شفاهاً في كثير من البلدان .

البشائر والانجيل .

يعد صمود المسيح ، راح الرسل وغيرهم يجوبون البلاد منادين ببشرى
الخلاص بيسوع المسيح بحياته وموته وقيامته . وقد أطلق على مادة مفاداتهم
كلمة « الانجيل » . فمثلاً يكتب بولس إلى أهل رومية يقول : « مستعد لتبشيركم
انتم الذين في رومية أيضاً ٠٠ بانجيل المسيح » (١ : ١٥) . وهكذا حينما كان
يسمع أحدهم في عصور المسيحية الأولى كلمة « الإنجيل » ، يتجه تفكيره تَوّاً الى
البشرى بالمسيح . وبعد زمن اقتضى الأمر تدوين بعض الاشياء من سيرة يسوع
وكان طبيعياً أن تُطلق اللفظة التي عرفت في المنادة الشفوية على السيرة المكتوبة
التي تضمنت بعض تفاصيل هذه البشرى (في ايجاز لا اسهاب) . وقد أطلق
على كل سيرة مكتوبة كلمة « الإنجيل » أو « بشارة » ، لأن كل سيرة تضمنت
البشرى عينها . لذلك نسمع الناس اليوم يتحدثون عن أربعة أناجيل أو أربع
بشائر . ومعنى هذا أن هناك انجيلاً واحداً في أربع بشار مختلفة لأربعة من
الكتّاب . وحين نقول « انجيل لوقا » نعني البشرى أو البشارة كما شرحها
الكتّاب لوقا .

ومن الشيق أن نلاحظ هنا أنه في المخطوطات القديمة للعهد الجديد، جمعت السير الأربع (التي نسميها الآن الأناجيل الأربعة أو البشائر الأربع) في كتاب واحد تحت عنوان واحد « الإنجيل ». وكتب اسم الكاتب في أول كل سيرة، كأن يقال « الإنجيل كما كتبه لوقا ».

إذا فالفكرة القائلة أن يسوع المسيح جاء إلى العالم بإنجيل في شكل كتاب مجهز، أو خلاصة للحق الذي سلمه للناس — خاطئة لا تطابق الواقع. ولا يصح أن يقال أن الإنجيل نزل عليه، بل الأولى أن يقال أنه عندما انزل الله يسوع إلى العالم، أعطى الإنجيل للناس، الذي معناه كما قلنا « البشري ». وكان مجيء يسوع المسيح إلى العالم، بكل ما انطوى عليه، بمثابة البشري أو « الإنجيل ». وهو الاسم الذي يطلق على رسالة يسوع التي تلقاها العالم في حياته وأفعاله وأقواله. « جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله » (مرقس ١: ١٤). وقصارى القول أن يسوع المسيح نفسه هو الإنجيل، وهو البشارة من الله.

وقد يقال في معرض الجدل أنه كان الأصح أن تكون سيرة واحدة بدل أربع سير للمسيح. ونحن لا ننكر أن في وجود سير كثيرة شيئاً من الحرج، وقد أحس بهذا الذين يقومون بالتعليم الديني، وخاصة للطلاب والباحثين من غير المسيحيين. ومما هو جدير بالذكر أنه في أواخر القرن الثاني أحس « تاتيان » بهذا الحرج، وحاول التخلص منه بجمع البشائر الأربع في رواية واحدة متحدة، وصاغ منها اتفاقاً عرف باتفاق البشائر. وظل مائتي سنة (إلى سنة ٤٣٠ ب. م) النسخة الوحيدة المتداولة للإنجيل التي كانت تقرأ في الكنائس بين المسيحيين الناطقين بالسريانية. وفي تلك الرقعة من العالم لم تكن تستعمل بشائر الإنجيل منفردة إلا نادراً، واطلق على هذه النسخة الشاملة روايات البشائر الأربع مسلسل « الإنجيل ». ولو أن هذه النسخة الشاملة خلدت وبقيت على الزمن

واختفى ما عداها ، لسان المسيحيون في الشرق الذين اختلطوا بالمسلمين تجنبوا متاعب لاحتصر لها ، إذ كانوا يقفون وبين أيديهم « انجيل واحد » . ولكن لا . فإنه من حسن حظ العالم المسيحي أن هذا لم يحدث . لأن في البشائر الأربع التي بأيدينا نرى صورة مختلفة أخاذة من صفات ربنا وحياته ، ومظاهر مختلفة من تعاليمه التي كانت تختفى عن انظارنا أبدا الدهر . والواقع أن وضع سيرة واحد رسمية مستقاة من البشائر الأربع ، لم ترق في نظر الكنيسة الجامعة . وفي هذا الصدد يقول أحد علماء الإنجيل « ان الإنجيل يقدم لنا يسوع المسيح . فمن انجيل مرقس نتعلم من كان يسوع المسيح ، وما الدور الذي لعبه على الأرض في التاريخ البشرى . ومن أناجيل لوقا ومتى نتعلم شيئاً من تعاليم يسوع . ومن انجيل يوحنا نتعلم المعنى العميق الذي استخلصه تباعه من حياته » .

الفوارق في روايات الانجيل :

إن البشائر الأربع على اتفاق تام في الحقائق الجوهرية الأساسية — وهي أن يسوع جال بين الناس يصنع خيراً ، ويشفي المرضى والمنكوبين ، وأنه صلب وقام من الأموات ثانية ، وظهر للتلاميذ . وقد خضعت روايات الإنجيل لضروب من النقد الدقيق والفحص الشديد أكثر من أى كتاب قديم آخر . ومع هذا لا يستطيع ألا المكابر أو المتحيز أو الجاهل ، أن ينكر الاتفاق التام بين البشائر في الحقائق الأساسية من سيرة المسيح . فالنظريات القائلة ان يسوع نفسه لم يُصلب ، وأن آخر حلٍّ محله ، أو أنه لم يقم من الأموات — لا أثر لها إطلاقاً في البشائر الأربع .

على أنه يجب التسليم في غير موارد أن هناك بعض الفارق أو التناقض أو الاختلاف في قليل من الروايات . وقد لوحظت هذه الحالات منذ القرن الثانى ، واتخذها المهرطقة مادة للنقد والتجريح . وكان النقد في ذلك الزمن البعيد محصوراً في الفوارق بين سلسلة نسب يسوع ، كما رواها كل من متى ولوقا ، وبين الترتيب

التاريخي والتسلسل الزمني لبعض الحوادث في رواية يوحنا عند مقارنتها بروايات البشيرين الثلاثة الآخرين. ولم يدَّع أحد العصمة اللفظية الحرفية لروايات الإنجيل. فقد كان الكتّاب خاضعين للعوامل العقلية والنفسية التي يخضع لها الكتّاب عادة في كل جيل. ولا نجنى شيئاً إذا نحن تظاهرنّا أو أدعينّا أن ليس بين البشائر بعض الفوارق التافهة، ويمكن في غير عناء تعليل بعض هذه الفوارق والمتناقضات. وقد ألقى العلماء في العصور المتأخرة كثيراً من النور على هذه المشاكل.

على أن هذا كله لن يضير الصورة الرائعة التي رسمتها بشائر الإنجيل عن « النموذج الإسمي، والإنسان الكامل، وإعلان الله الأزلي الخالد، ذاك الذي كان انساناً تاماً، وإلهاً تاماً، ابن الإنسان، وكلمة الله، ومخلص العالمين، ورب الحياة ». هذه هي الصورة الجميلة التي رسمتها كل من بشائر الإنجيل. وإن كنا لا ندعى العصمة اللفظية الحرفية لكتابتها، فإن من حقنا أن نشيد بصدقه ووحيه ومطابقته للواقع تماماً. وكما أنه من السخف والبعد عن النظرة العلمية الفاحصة، أن نتجاهل المشاكل الكثيرة التي تواجهنا في روايات الإنجيل، فإنه من الجهل المطبق أن يدعى المكابرون أنه ليس لدى المسيحيين مصادر وثيقة يستندون إليها بسبب وجود هذه الفوارق والمتناقضات التافهة في الروايات.

وأقرأ ما يقوله في هذا الصدد الأستاذ الكبير عباس العقاد في كتابه « عبقرية المسيح » صفحة ١٩٤ و ١٩٥ :

« ليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعاً عمدة لا يُعول عليها في تاريخ السيد المسيح، لأنها كتبت عن سماع بعيد، ولم تكتب عن سماع قريب في الزمن والمكان، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنسخ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين، كأنشقاق القبور، وبعث

موتاهم وطوفهم بين الناس — وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال . . .
وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ ، إذ هي قد تضمنت
أقوالاً في مناسباتها لا يسهل القول باختلافها . ومواطن الاختلاف بينها معقولة
مع استقصاء اسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من
قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذاك . فإنجيل متى : مثلاً ملحوظ
فيه أنه يخاطب (اليهود) ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ،
ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد .
وإنجيل مرقس : على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب (الأمم) ولا يتحفظ
في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل المحافظين والإيمان
بالهية المسيح . وإنجيل لوقا : يكتبه طبيب ويقدمه إلى سرى كبير فيورد فيه
الأخبار والوصايا من (الوجهة الإنسانية) ، ويحضر في ذهنه ثقافة السرى الذي
أهدى إليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية . وإنجيل يوحنا : غلبت عليه فكرة
(الفلسفة) وبدأه بالكلام عن الكلمة Logos ، ووصف فيه التجسد الإلهي
على النحو الذي يألفه اليونان و من حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات
واحدة . وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصادر ،
فمن الواجب أن يدخل في الحسبان أنها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم
أقرب الناس إلى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق
منها بالاعتماد .»

المسيحية والخطية البشرية

والآن : نعود إلى موضوع آخر يحسبه كثيرون من غير المسيحيين عثرة : ماذا عسى أن تقول المسيحية عن الخطية ؟ كان على المسيحية منذ نشأتها الأولى أن تكافح وتفاضل مع وجهات نظر الآخرين في معنى الخلاص . وانه لشيئ حقاً أن نلاحظ أنها قد عُنيت عناية جديّة من البدء بهذا الفارق الصارخ الذى ميّزها عن العقائد الأخرى . فلم تسكن الخطية في نظر كتّاب الأسفار المقدسة المسيحية حماقة أو دمامة ، ولم تكن داءً أو جهلاً ، بل هى عصيان وإرادة شريرة جاحمة، ليست موجهة الى تقليد من التقاليد الاجتماعية المرعية ، ولا إلى نظام أدبي عاطل عن العنصر الشخصى ، بل إلى الله الحى ذاته . ولم تحتل التوبة مكانة رفيعة في الكتاب المقدس وحسب ، بل قد حثّ الكتاب للقدس الإنسان على أن ينيب ويتوب ، لا عن هذا العمل أو ذاك من الأعمال الخاطئة ، بل من أجل نفسه . وعلمّه أيضاً أن يحكم على نفسه ويدينها ، على أساس مقياس يسوع المسيح الأدبى .

وقلّ بين الناس من ينكر على المسيح سمو تعاليمه الأدبية الأخلاقية ، مهما يكن موقفه حيال المسيح ذاته . وليس هيئاً على الذين يقرأون كلماته الأخاذة انخارقة عن النقائص البشرية، مثل الأفكار الشهوانية ، والأعمال الجوحة ، أو الطمع فى المال ، أن ينسوها أو يفضوا الطرف عنها . وهو يأمرنا أن نحب أعداءنا ، وأن نلقى وراء ظهورنا كل أثر من آثار الآداب الضيقة ، وأن نمارس بدلاً عنها المحبة الواسعة المجيدة ، التى فى نطاقها يهيم الآب السماوى غيظه على الأبرار والأشرار سواء . ونحن نعلم علم اليقين انه حين نقرب إلى يسوع ، لا نقدر ان نبليغ مستواه ، وانما واقعون تحت دينوته ، لا بسبب الخطأ الذى نأتيه ، ولكن بسبب الخير الذى نأباه . وحين نفع تحت مؤثرات طهر يسوع ومحبته ، نتعلم شيئاً عن معنى الخطية .

وهل هذا كل مافى الأمر ؟ أليس لدى المسيحية مزيد مما تعطيه غير شريعة جديدة تفضل العقائد الأخرى ؟ هنا يبدو إنجيل الخلاص فى انصع مظهره وأبهاها . فالخطية من وجهة النظر المسيحية ، عصيان ضد الله ، وشرود عن الصلة به ، ومعصية ضد قداسه تعالى . لكننا ندرك فى سر الصليب ان الله لم يكتف بكرة الخطية كراهية مقدسة ، ودينونته إياها والحكم عليها . إنما يعلن لنا يسوع ، وهو على الصليب ، فكر الله فى حمل الخطية على نفسه . ويبين لنا موت يسوع معنى خطية الإنسان فى نظر الله ، كما ذهب إليه قدماء علماء اللاهوت فى قولهم : « شناعة الخطية الشنيعة » — بل يبين أيضاً ان الله قد تنازل ليجدد الصلة التى قطعت خطيتنا أو أصرها ، ويتخطى الشقة التى أحدثها بيننا وبينه اعوجاجنا وزيفنا .

ومن المبادئ الأولية التى يجب مراعاتها فى وجهة النظر المسيحية عن الخطية والغفران ، ليس ما يفعله الإنسان ، بل ما يفعله الله . وترى ما الذى فعل الله ؟ أليس يُسأل هنا فى هذا المقام هذا السؤال الفاحص الخطير ؟

لقد رأينا مدى المصور كيف عالج الناس الموضوع . فهم إما اقتنعوا واكتفوا بمستوى من الآداب الوضعية المألوفة ، وإما أحنوا الرءوس أمام إله مطلق القوة يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء ، قد خسفت القوة فيه كل صلاح ، بحيث لم يعد من الميسور إحكام صلة أدبية بين الإنسان وبين الله ، وإما أنهم تعلقوا بأهداب رجاء خافت ، وأسطورة كريمة ، عن إله يبدأ هو نفسه من جانبه بالعمل على إنقاذ الإنسان . على أنه إذا اقتصر هذا الرجاء على رغبة الإنسان ليس إلا ، فإننا لا نتقدم قيد إنملة إلى ما نصبو من يقين .

وفى قلب المسيحية ، وفى لبابها ، عاش يسوع الناصرى ، ومات ، وقام ليكون مع تلاميذه وأنصاره . وفى قلبها ولبابها أنه عاش فى مكان عرفه التاريخ ، وفى حقبة عيَّنها الزمن ، ونسج الناس حوله أفسكاراً ، لامن خيالات

أدفعهم ، ولا في فضاء السموات الخاوية ، بل من قوة تأثيره فيهم وفضله عليهم . ولقد وجد الناس في يسوع المسيح حضور الله ذاته ، الذى تنزل ليفتديهم . وبأن ذلك الدليل الناصع في شعور السيد بأن بينه وبين الله علاقة وثيقة . ويسوع هو الذى عرف أن ابن الإنسان سيبدل حياته فدية عن كثيرين . والذين كتبوا عن مجيء يسوع المسيح إلى العالم ليخلص الخطاة ويموت عن الفجار ، ليصالح العالم مع الله ، كانوا قوماً ممن رأوا مرأى العين ، أو على الأقل عرفوا الذين رأوا السيد في حياته وفي موته الشنيع ، فتكلموا بما عرفوا هم أنفسهم .

وقد وقعت الواقعة فعلاً ، وتمَّ العمل . ولم تعد الحادثة قصة يرويها الناس « عن » الله ، لأنه قد أجرى فعلاً ما أراد في (كلمته) ابنه ، ومن كان واحداً مع الآب قد حمل عبء خطايا العالم ، وقبيل أن تنفذ فيه مشيئة الإنسانية . فإن كنا نؤمن في المسيح أن الله يحب أولاده الخطاة ويردُّهم — وهم عاجزون عن ذلك — إلى الصلة التى قطعوا وشائجها بأعمالهم ، فإنه لا يسعنا أن نقبل هذا الإيمان أمراً هيناً ، أو نتغاضى عن السكفة الباهظة التى تقاضاها . ولدى مقارنة هذا بكل أنواع الترضية والاستغفار البشرية ، وبكل أسباب الشدة والآلام التى يحفل بها العالم ، فإننا نرى هنا غفراناً قد أشتري ، لا بتضحية الإنسان وآلامه ، بل بآلام الله ذاته .

* * *

هذه هى الرسالة التى تاق إليها البشر كما يقين من الجهود والمحاولات المضنية في أديان العالم . فالذين تقربوا إلى الله ، أحسُّوا إحساساً قهرياً بعدم جدارتهم واستحقاقهم ، وعرفوا أن بينهم وبينه شقَّة واسعة لا تتخطاها الأصوام والصلوات والذبائح ، ولا صرامة الزهد والتقشف ، وما ينطويان عليه من ضناء وتذلل . ولن يؤمنوا إلا متى رأوا الله يتخذ الخطوة من جانبه أولاً ، ويبدو أمامهم متأهباً لقبول الإنسان في صلة القربى التى انقطعت أو اصرها .

والغفران ، الذى هو إعادة ودّ مقطوع واستعادة صلة مبتورة ، ليس معناه محو الخطايا كما تُمحي الكتابة من على الصبورة ، بل هو كلفة باهظة كما تتمثلها فى الصليب . وليس هذا مجرد الصفح والتجاوز عن الخطية ، فالله ليس متراخياً متهاوناً ، ولكنه غافر غفور ، رحمن رحيم . هذا هو الحق الذى يخضع قوة الخطية ويذل شوكتها .

الحياة والموت :

وما الذى تقول المسيحية عن الحياة والموت؟ إن إمجيل المسيحية ليس مجرد شريعة جديدة تُطاع بالروح القانوني . كما أن الحياة المسيحية فى جوهرها هى صلة بالله ، فيها تستقر روح الله (وهى روح المسيح) فى روح الإنسان . وبذلك يتسنى للإنسان أن يختبر حياة الله ، فيقوى على غلبة التجربة وعلى فعل مشيئته تعالى . وليس فى هذا كله شيء عن الشعوذة أو السحر ، فالعملية خاضعة لنواميسها البسيطة الجامعة . ذلك أنه إذا أراد الإنسان باتضاع أن يسكن الله فى قلبه ، ورضى أن يقبله ، معترفاً بخطايا ، وطالباً فى اخلاص ملكوت الله قبل كل شيء ، فإن الروح الالهى ينساب إلى داخله ، ويبدل تدريجاً حياته ويحدد شخصيته .

وفى هذه الصلة بين الله والإنسان ، فى يسوع المسيح ، يتوافر لنا الرجاء المسيحى فى الخلود . ولم يقل العهد الجديد إلا قليلاً لاشباع رغبة حب الاستطلاع ، والوقوف على وصف تفصيلي مسهب للعالم الآخر ، ولكن الكتابات المسيحية أفصحوا بجلاء عن نقطة واحدة : وهى أنه متى أحكمت هذه الصلة الجوهرية بين نفس الإنسان وبين الله فى المسيح ، فلن يكون للموت سلطان على تلك النفس . لأن هذه الحياة الجديدة أقوى من القبر . ويفدو الموت طوراً من أطوار الرحلة ، لا يعقبه أدوار متوالية من الوجود المتتابع كما يذهب إليه الهنود فى عقيدة تناسخ الأرواح ، وإنما يعقبه وجود سعيد تظهر

فيه بأجل معانيها الحياة المستترة في المسيح . وحين يؤمن المسيحيون بقيامة المسيح من الأموات ، لا يقتصرون في هذا على المسيح وحده ، بل يؤمنون أيضاً أن المؤمنين به سيقومون مثله ، كيف لا وقد « صار (هو) باكورة الراقدين » ..

المسيحية والتقدم :

ومن النتائج التي تترتب على هذه العقيدة في الروح واهب الحياة ، أن المسيحية هي بالضرورة ، دين التقدم والرقى . وربما يبدي المسيحيون في بعض الأحيان شيئاً من الضعف والهزال في هذا المضمار ، ولكن الأمر الذي لا يُنكر أنه حيث يسود الروح المسيحي الحق ، يصبح الصوت الداوي حائماً الناس على التقدم والارتقاء . ومن الطبيعي أن ينظر القوم الذين يؤمنون بالله كروح ، بينه وبين البشر صلة ، إلى الحياة كأداة لمظهر الله وإعلانه ، وأن يتعلموا المزيد من إرادته وطرقه ، كلما تقدمت الأجيال وتعاقبت العصور .

المسيحية دين جامع :

إن الانجيل في جوهره رسالة جامعة شاملة ، فليس فيها ما يقتصر فقط على أمة واحدة ، أو جنس واحد ، أو طبقة واحدة من الناس . ولم يفقه التلاميذ الأولون في بادئ الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت ، ولكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت إلى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية ، وعرف أنها لليهودى والاممى ، والبربرى واليونانى ، والذكر والانثى ، على السواء ، دون تفریق أو تمييز . إن إعلان الله في المسيح قد خلا من كل نعة عنصرية أو نزعة ضيقة — هو يسع البشرية قاطبة . وإنجيل الخلاص من الخطية لجميع الناس ، كلهم فيه سواسية ، وهو لا يقوم على ذبائح وتقدمات معينة ، ولا يتطلب ميزات عنصرية خاصة . وليس أساسه استحقاق الإنسان وجدارته ، بل عطف الله

ومحبته. حقاً ان رسالة الحياة في روح الله وقوته ، التي بها يغلب الإنسان التجربة ، ويفعل مشيئة الله ، جامعة شاملة في دعوتها وفي آثارها . فلا حدود فيها ولا قيود ، ولا شرق ولا غرب ، ولا قداسة متفوقة للمستجدين البرّ ، ولا إنكار لحق البسطاء والجهلاء في رؤيا السماء — ولكنها حياة بشرية كاملة ، لأنها إلهية كاملة ، فيها يشترك كل الناس على قدم المساواة . وإن وجد بين المسيحيين من يخرج على هذا الاجماع ، فهو عدو الدين وعدو الله .

ومما تألم له نفوسنا أن الأوبئة القديمة التي تفتك بالإنسانية قد نشطت في هذا العصر نشاطاً لم يسبق له مثيل . ففي أكثر البلدان يحتم شبح الخوف على قلوب الناس ، ويسدل ظلاله الكثيفة على آمال البشرية وأمانها . والكرهية بين الجماعات والشعوب ، وما ينجم عنها من اضطهاد قبيح مذموم ، قد أُمست إلهاماً قومياً في كثير من الميادين ، وتزداد سطوة هذا الإله حتى ليخشى أن يفدو معبوداً تمنو له الجباه ، والجشع الكلب في المال يقيم فاصلاً بين الذين لهم والذين ليس لهم ، ويحفز الأخيرين على الغضب والانتقاض والثورة ، ويفزع الأولين بداء العصبية التي يحسُّ بها القوى حينما تستهدف قوته للخطر .

على إننا في هذه الفترة من التاريخ ، نرانا مضطرين للاستناد إلى إيماننا لنخلص من التشاؤم إلى رجاء مجيد . ونعلم يقيناً أن هناك « واحداً » — على غير غرارنا — لا يُهزم ولن يعرف الهزيمة . ففي إعلان المسيح نرى الله ، لا إلهاً بعيداً لا يبالي ولا يعبأ إلاً بنفسه ، بل أباً محباً للجنس البشري كأبناء له ، حباً لا يوصف ولا يُستقصى . ونحن الذين عرفنا المسيح ، رسوله وابنه ، مصدعاً بالألم على الصليب ، الذي ارتفع عليه بسبب محبته للإنسان — قد فزنا برؤيا خارقة متلعة ، أزاحت لنا اللثام عن عمق عاطفة الله نحو خاصته . وبسبب هذه الرؤيا المجيدة استعذب المسيحيون ميمة الاستشهاد مدى عصور التاريخ ، ونزحوا عن الأهل والوطن إلى أقاصي الأرض لحمل رسالة الأنجيل .

كلمة الله

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

«... إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»

(قرآن كريم)

«فِي الْبَدءِ كَانَ الْكَلِمَةُ ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ» .

(إنجيل يوحنا ١ : ١)

نؤمن حقاً وبقيناً أن الله لم يلد ، ولم يولد . ولكن نؤمن أيضاً أن المسيح هو ابن الله (كلمته الأزلية) . ولا خفاء أن المسيحية ولدت في مهد يهودي ، وكان طبيعياً أن تتكلم بلغة اليهود ، وفكر اليهود ، للعقلية اليهودية . على أنها جاءت إلى العالم ديناً جامعاً شاملاً ، فلم يمضِ زمن طويل حتى خرجت إلى العالم لتشق طريقها بين الأمم . ولم تمضِ ثلاثون عاماً على صعود المسيح إلى السماء حتى كانت قد سيطرت على أهم بقاع آسيا الصغرى ، وغزت بلاد اليونان ، ووصلت إلى روما . ويقدر البعض أنه في تلك الحقبة الضئيلة كان تعداد المسيحيين من الأمم (الوثنيين) ، بالنسبة للمسيحيين من اليهود ، ما يوازي مائة ألف أمي لكل مسيحي يهودي . ولم تكن العادات اليهودية ولا التقاليد الموسوية ، معروفة عند هذه الجماهير . مثال ذلك أن اليونانيين ما سمعوا قط عن «المسيّا» الذي ينتظره اليهود . وفكرة مجيء المسيح ، وملكه الشامل ، بحسب الفكر اليهودي ، كانت عقيدة غريبة ومعادية للأمم . فما لهم ورجاء اليهودية ، وأحلامها ، وملكها ؟ ولم تكن سلسلة نسب المسيح

وانتمائه إلى داود ، وحسابه حسب الجسد من النسل الملكي ، تعنى شيئاً بالنسبة لليوناني . هنالبُ المشكل ، فكيف تُقدم المسيحية للعالم اليوناني ؟ وما من شك ان قوة أية عقيدة من العقائد ، لا تعتمد على قوة هذه العقيدة ، قدر اعتمادها على توافقها مع فكر العصر ، واستعداد الجماهير لقبولها . وكان على المسيحية أن تخلق هذا التوافق ، وأن تهيم نفسها لقبول الجماهير لها . ألا يوجد مدخل فكري جديد ، غير المدخل اليهودي تستطيع به المسيحية أن تجتذب أصحاب الفكر الهليني ، إلى حظيرتها ؟ أيلزم للأئمة أن يهودوا أولاً حتى يدرك أسرار المسيحية ؟ لقد كانت المشكلة تكمن في كيف يُقدم المسيح والمسيحية ، في ثوب يستطيع اليوناني أن يدركه ويستوعبه . ولقد استخدم الوحي الإلهي يوحنا الرسول ، ليقوم بحلّ هذا المشكل . ولقد عاش يوحنا في مدينة أفسس حوالي عام ١٠٠ للميلاد . وعرف بلاشك مشا كل الفكر اليوناني ، ومداخله ، فتقدم ببشارته لليونانيين ، واليهود على السواء تحت عصمة الوحي الإلهي ، وإرشاد الروح القدس . ولقد تمجد الإعلان الإلهي فيه حينما أرشده بأن المدخل للفكر اليوناني ، واليهودي على السواء ، هو في الحديث عن « الكلمة » . هنا يستطيع أن يصل إلى العقل اليهودي ، ويستوعبه الفكر اليوناني . فكلتا الدائرتين ، تتداخلان معاً عند هذه النقطة الفريدة . . . وسوف نتحدث عن « الكلمة » في الفكر اليهودي ، ثم نعرض بعد ذلك للكلمة عند فلاسفة اليونان . ونخلص من ههنا وتلك إلى التطبيق المسيحي .

(وهنا نقبس آراء الدكتور وليم باركلي في تعليقه على الأصحاح الأول من انجيل يوحنا) .

الكلمة في الفكر اليهودي :

كانت هناك عوامل أربعة ، شكلت أفكار اليهود عن الكلمة :

١ — كان اليهودى يرى فى الكلمة أكثر من صوت صارخ ، فالكلمة لها قوتها ، ولها وجودها الذاتى المستقل الذى يعمل عمله . وكما قال أحد أساتذة اللاهوت « الكلمة المنطوقة عند العبرانى ، كانت قوة حيّة رهيبة ، فهى وحدة نشاط مشعونة بالقوة . إنها تندفع كطلقة الرصاص ، لتصيب الهدف . » . وربما لهذا السبب كانت اللغة العبرية شحيحة فى كلماتها . فهى لا تضم أكثر من عشرة آلاف كلمة ، بينما اليونانية التى يتحدث بها الشعب ، زادت كلماتها عن المائتى ألف كلمة

٢ — والعهد القديم حافل بالإشارات إلى هذه الفكرة العامة عن قوة الكلمة . فحينما خُدع اسحق ، ونطق بالبركة ليعقوب ، بدلا من عيسو البكر ، لم توجد هناك قوة تستطيع أن تسترد البركة ولم يبق للبكر سوى اللعنة . (تكوين ٢٧) . لقد خرجت الكلمة من فيه لتعمل عملها ، ولا تستطيع قوة على الأرض أن توقفها .

وفى بداية سفر التكوين ، يُفتتح كل فصل من فصول قصة الخلق بالقول « وقال الله ٠٠٠ » . (تكوين ١ : ٣ ، ٦ ، ١١) . إن كلمة الله قوة جبارة تخلق كل شيء من لا شيء ، وفى سفر المزامير نستمتع إلى المرء يقول : « بكلمة الرب صنعت السموات » (مزمور ٣٣ : ٦) . وفى المزمور المائة والسابع « أرسل كلمته فشفاها » (مزمور ١٠٧ : ٢٠) . وفى المزمور المائة والسابع والأربعين « يُرسل كلمته فى الأرض . سريعا جدا يجرى قوله » (مزمور ١٤٧ : ١٥) . وفى نبوات أشعيا « لأنه كما ينزل المطر ٠٠٠٠ هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فى ، لا ترجع إلى فارغة ، بل تعمل ما سررت به ، وتنجح فيما أرسلتها إليه » (أشعيا ٥٥ : ١١) . ويتحدث الله على لسان

أرميا : « اليس هكذا كلمتي كنار ، ومطرقة تحطم الصخر » (أرميا ٢٣: ٢٩)
والنعمة عينها نسمعها في الأسفار الأبوكريفية :

ففي سفر عزرا يتحدث الكاتب عن الله بالقول : « لقد تكلمت من بدء
الخليقة ، من أول يوم ، وقلت : لتكن السموات والأرض . وكانت كلمتك
عملاً كاملاً » . أما كاتب سفر الحكمة فيخاطب الله « كالواحد الذي صنع
كل شيء بكلمته » .

إننا نلمح في العهد القديم بجملة إشارات متعددة يضيق بها المقام ، عن قوة
الكلمة وأثرها . وإذا كانت كلمة الإنسان لها مثل هذه القوة ، فكيف
تكون كلمة الله الحي ؟ ...

٣ — ثم حدث تطور في الحياة العبرانية ، نجم عنه أثر كبير في تشكيل
الفكر العبراني ، عن الكلمة . فلمدة تزيد على مائة عام قبل مجيء المسيح ،
أصبحت العبرية لغة منسية ، ولقد كانت الأسفار المقدسة مسطرة باللغة العبرية ،
التي لم يكن يدركها عامة الشعب ، عدا فئة قليلة من العلماء ، وكان الشعب
يتحدث الآرامية ، وهي لغة متطورة عن العبرانية . ولذلك كان لازماً أن تترجم
الأسفار المقدسة إلى الآرامية حتى يستطيع الشعب أن يدرسها ، ويستوعبها .
وهكذا قام العلماء بترجمة أسفار العهد القديم ، ودُعيت هذه الترجمات
« بالترجوم » . وكانت فصول التوراة تُقرأ في الجوامع بالعبرية ، ثم تُتلى بعد
ذلك بالآرامية من أسفار الترجوم . ولقد كتبت أسفار الترجوم ، في وقت ساد
على أفكار الناس الإحساس بعظمة الله ، وسموه ، وأصبح اتضاعه أمراً يدعو
للدهشة . فالله يسمو على أفكارنا ، وتشابهنا ، وأمثالنا ، وتصوراتنا . وطبيعي
كان أولئك الذين قاموا بترجمة التوراة ، يشاركون أبناء عصرهم في هذه العقيدة .
لذلك كانوا يخشون أن ينسبوا لله الصور المادية ، والتشبيهات الحسية ،
والمسات الإنسانية . وهكذا بذلوا غاية الجهد ، في تخليص الذات الإلهي من

هذه الصور . والدارس للتوراة يستطيع أن يلمس الكثير من هذه الصور ، والاستعارات المادية ، أى أن التوراة تتحدث عن الله بصور إنسانية . فحينما التقى علماء الترجوم بأية يُستشف منها الاتجاه إلى هذه الصور ، كانوا يعبرون عن ذات الله بلقب « كلمة الله » . على سبيل المثال ورد في سفر الخروج القول : « وأخرج موسى الشعب من الحلة لملاقاة الله » . . . فقد رأى العلماء أن هذا التعبير أكثر بشرية من أن نتحدث به عن الله ، فترجموها « فأخرج موسى الشعب من الحلة للملاقاة كلمة الله » (١٩ : ١٧) . وفى السفر عينه نقرأ أيضاً أن الله قال لشعبه عن يوم السبت « سبوتى تحفظونها ، لأنه علامة بينى وبينكم فى أجيالكم المتعاقبة » (خروج ٣١ : ١٣) . هذه لمسة بشرية يسمونها جلال الله . فلذلك لا بد أن يكون السبت « علامة بين كلمتى وبينكم » . وفى سفر التثنية : « الرب إلهك العابر أمامك نار آكلة » (تثنية ٩ : ٣) . وقد وردت فى الترجوم « كلمة الرب إلهك . . . نار آكلة » . ونقرأ أيضاً فى نبوات اشعيا قول الله عن الخليفة : « أنا الأول وأنا الآخر . يدى أسست الأرض ويمينى نشرت السموات » (اشعيا ٤٨ : ١٣) رأى فيها علماء الترجوم استعارة بشرية ، فترجموها : « بكلمتى أسست الأرض ، وبقوتى نشرت السموات » . ولقد وردت « كلمة الله » فى الترجوم ، ما يقرب من ثمانمائة وعشرين مرة . ولكن ينبغى ألاّ يتطرق إلى القارىء الظن أن المقصود استبدال كلمة من كلمات الوحي . بل لقد كان هدف أحبار اليهود ، التعبير عن ذات الله باسم جديد إذ لا يجوز ارتباط الصفات المادية ، والاستعارات البشرية ، بالذات الإلهية ، ولكن الحقيقة بقيت ان كلمة الله أصبح تعبيراً جديداً فى قاموس علم اللاهوت العبرى ، وابتدأ الشعب يعتاده ويدركه ، لأنه كثيراً ما كان يسمعه يتردد فى قراءات المجمع اليهودية . إن كل يهودى كان معتاداً أن يسمع لقب « الممرأ » كلمة الله ، من فم الكتبة والأحبار .

٤ — في هذا المجال علينا ألاّ نغفل حقيقة جوهرية ، كان لها أيضاً أثرها في تطوير الفكر اليهودي عن الكلمة . فلقد كان لليونانيين معرقهم باللوجوس Logos . ولكن اللوجوس اليوناني ، كان يعنى الكلمة ، كما كان يعنى الفكر أو العقل . ولقد كان كلا المعنيين ، مترابطين في ذهن الرسول يوحنا ، وفي أذهان كبار المفكرين من اليهود في حديثهم عن « الكلمة » ، فحينما كانوا يتحدثون عن « الكلمة » ، كانوا يقصدون فكر الله ، وكلمة الله .

وهذا يبدو واضحاً في أماكن متفرقة من أسفار الحكمة . ولقد كان الأدب العبري يحوى مجموعة عُرِفَتْ بأسفار الحكمة . وهذه الأسفار هى خلاصة أقوال الحكماء ، والفهماء ، ممن اختبروا الحياة أكثر من سواهم . ولكن هذه الأقوال لم تكن فلسفية نظرية ، بقدر ما كانت عملية تمسُّ شئون الحياة ، ومشاكلها . ومن بين أسفار الحكمة اليهودية سفر الأمثال لسليمان . وفي سفر الأمثال نلتقى بمجمل غربية تضافى على الحكمة قُوى سرية ، خلاقة ، أزلية ، حتى يُخيّل للباحث وكأن الحكمة ذات متميزة ، وواسطة أزلية ، وعامل خلاق مع الله منذ البدء . وهناك ثلاث فقرات تبدو فيها هذه الفكرة بوضوح ..

ففي الإصحاح الثالث من سفر الأمثال ، يرد القول عن الحكمة ...
« هى شجرة حياة لمسكها ، والتمسك بها مغبوط . الرب بالحكمة أسس الأرض . أثبت السموات بالفهم . بعلمه انشقت اللجج . وتقطر السحاب ندى »
(أمثال ٣ : ١٨ — ٢٠) .

لقد عرفنا من اليونان ، ان اللوجوس Logos يعنى الكلمة ، ويعنى أيضاً العقل ، أو الفكر . ورأينا كيف أضفى الفكر اليهودي على الكلمة السلطان ، والقوة الخلاقة . وهنا نرى الجانب الثانى من الفكر عن اللوجوس يتبلور ويتضح .. فما الحكمة والعقل أو الفهم إلا صنوان ، أو تعبيران عن شيء

واحد .. في البداية رأينا الفكر العبراني يتحدث عن كلمة الله ، هنا نراه يتحدث عن حكمة الله ، وفكر الله .

وفي الأصحاح الرابع : « اقتن الحكمة . اقتن الفهم . . . احفظه فإنه هو حياتك » (أمثال ٤ : ٥ ، ١٣) .

يقول يوحنا « في البدء كان الكلمة .. فيه كانت الحياة » . وهنا يتحدث سليمان عن الفهم أنه الحياة ، الجانب الواحد يرتبط مع الآخر في الفكر العبرى عن الكلمة ..

على أن أوضح الفقرات هي الفقرة الثالثة . وفيها نقرأ القول عن الحكمة « الرب قناني أول طريقه . من قبل أعماله منذ القدم . منذ الأزل مُسَحَّت . منذ البدء . منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غمرٌ أُبدئت . إذ لم تكن يبايع كثيرة المياه . من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت . إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد ولا البراري ، ولا أول أعفار (تراب) المسكونة . لما ثبتت السموات كنت هناك أنا . لما رسم دائرة على وجه الغمر . لما وضع للبحر حده ، فلا تتعدى المياه تخمه ، لما رسم أسس الأرض ، كنت عنده صانعا . وكنت كل يوم لذته . فرحة دائما قدامه » (أمثال ٨ : ٢٢ - ٣٠) .

ألا يرى القارئ في هذه الكلمات صورة مما ورد في حديث يوحنا عن الكلمة ؟ ألا نسمع هنا أصداً من أفكار الوحي في البشارة الرابعة عن الكلمة الأزلَى ؟ فالحكمة هناك منذ الأزل ، قوة جبارة خالقة ، يصدر عنها النور والبهجة والحياة ، أليس هذا هو نفس حديث يوحنا عن الكلمة (اللوجوس) الذى من البدء كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ؟ ! ، إن الحكمة هنا تبدو صنواً لشخص المسيح بالصورة التي وردت في مستهل بشارة يوحنا .

ولا تتوقف هذه الفكرة عن الحكمة عند الأسفار القانونية فحسب . فبين

العهد القديم ، والعهد الجديد، استمرت كتابات اليهود الحكمية ، التي جمعت فيما بعد ضمن أسفار الأبوكريفا ، في ما يسمى بأسفار الحكمة .

وفي أحدها ، ويُدعى « حكمة يشوع بن سيراخ » ، نقرأ هذا الفقرة على لسان الحكمة :

« من فم العظيم الأسمى خرجتُ ،

وملأت الوجود كله كالضباب .

في الأماكن العالية مسكنى ،

وعرشي في عمود السحاب .

بمفردى طوّقت دائرة السماء ،

وقدماى سارتا في أعماق الهاوية . »

هنا نرى الحكمة قوة أزلية خالقة كانت مع الله منذ البدء . ولقد كتب سفر يشوع بن سيراخ ، أو « الجامع » كما يلد للبعض تسميته ، في فلسطين قبل ميلاد المسيح بمائة عام . وحوالى نفس التاريخ ، كتب سفر آخر بالأسكندرية في مصر ، وعرف باسم « حكمة سليمان » ، هذا السفر يضمُّ أسمى ما كتب عن الحكمة . فالحكمة هي الكنز الذى يقتنيه بنو البشر ، ليصبحوا أقرب الكل إلى الله ، وهى صانعة كل شيء ، وهى نفخة سلطان العلى ، والذات المنبثقة من القدير ، وهى تستطيع أن تصنع كل شيء ، وتعيد خلقه من جديد . والأكثر من هذا أن كاتب الشعر لا يقف عند حد الحديث عن الحكمة وعن صفاتها ، بل يصل إلى حد مساواة الحكمة بالكلمة . فالكلمتان تعبران عن ذات واحدة . فهو يتحدث عن حكمة الله ، وعن كلمة الله ، بنفس الجمل ، وب نفس المعنى . ففى صلاته إلى الله نستمتع إليه يقول :

« يا الله ، إله آبائي ، ورب المراحم ، الذى صنعت كل شيء بكلمتك ، وهيات الإنسان بحكمتك » (٢ : ٩) .

وفى حديثه عن الكلمة نستمع إلى أصداء مما نادى به التلميذ الحبيب :
« فبينما كل شيء فى سكون تام ، والليل فى مسيره السريع ، إذا بكلمتك الأزل
الجبار ، يقفز من السماء ، من عرشك الملكى ، كجبار حرب شديد البأس ، إلى أرض
الخراب والدمار ، ليقدم وصيتك الصريحة ، كسيف حاد » .

إن كاتب « حكمة سليمان » يتحدث عن الحكمة كقوة الله الخالقة ، المنيرة ،
الأزلية . فالحكمة والكلمة صنوان . إلهما واسطتا الخالق للخلق ، وهما يقربان
إرادة الله ، إلى قلوب وعقول الناس .

وهكذا وجد يوحنا ، أن أفضل طريق يصل به إلى قلوب أبناء شعبه أن
يبدأ بالحديث عن الكلمة ، الكلمة التى ليست مجرد صوت صارخ ، بل قوة
دافعة لها فاعليتها ، كلمة الله الذى به خلق العالمين ، الكلمة كما وردت فى الترجوم
لتعبر عن فكرة عمل الله ، وذاته ، وصفاته . ثم الحكمة الإلهى ، كما تصوره
أسفار الحكمة ، قوة الله الخالق الأزل ، الذى ينير كل إنسان . وهكذا قال لأبناء
شعبه مستعيراً هذا الفكر ليعبر عن المسيح : « إذا أردتم أن تروا كلمة الله
الأزلى ، وأن تنظروا قوة الله الخلاقة . إذا أردتم أن تبصروا الكلمة الذى به
خلق الوجود بما فيه ، والذى وهب النور والحياة لكل إنسان ، تطلعوا إلى ربنا
يسوع المسيح ، فهو كلمة الله قد تمثل بشراً فيما بينكم » .

وفى الفكر اليونانى :

أسلفنا فى البداية أن مشكلة يوحنا لم تكن فى تقديم المسيح
اليهود ، بقدر ما كانت فى تقديم المسيح لليونانيين ، ترى هل واءمت فكرة
الكلمة العقلية اليونانية ؟

عرفنا أن فكرة الكلمة كانت معروفة عند مفكرى اليونان ، ويرجع تاريخها إلى ٥٦٠ ق.م . ، ومن الغريب فى مدينة أفسس أيضاً ، حيث كتبت بشارة يوحنا . فهناك عاش فى ذلك الحين ، فيلسوف يدعى « هيراكليتوس » ، كان محور فلسفته أن كل شىء فى الوجود فى حالة فيضان ، وتدفق ، وحركة مستمرة ، فكل ما فى الوجود يتغير يوماً بعد يوم ، ولحظة بعد لحظة . ولقد كانت الصورة التى استلهمها : إنك لا تضع قدمك فى مجرى الينبوع الواحد مرة بعد أخرى ، فالمياه تتغير بين حين وآخر ، لأن الجرى دائم الجريان ، وعلى هذا القياس نادى هيراكليتوس بأن كل ما فى الوجود فى حالة فيضان متغير . ولكن إن كان الأمر كذلك ، ألا يعنى هذا أن الحياة كلها فى حالة فوضى ، وتغير ، وارتباك كامل ؟ وأين نكتشف معنى ثابتاً فى وجود يسود عليه المد ، والجذر ، والتغير ، والتبدل ؟ يحيب ذلك الفيلسوف ان هذا المد والجذر ، والفيضان العارم ، والثورة المتغيرة ، لا تسير على غير هدى ، وإلا عمّت الفوضى الوجود ، ولكن تحكمها نوااميس ثابتة ، وقوانين محددة ، وتتبع مثلاً معيناً لا يتغير خلال العصور والأجيال ، وإلى أبد الدهر ، ومن الذى يحكم هذه النوااميس ويسيطر على هذا المثال ؟ إنه اللوجوس « الكلمة » - العقل الالهى . فالكلمة عند هذا المفكر هو رائد كل نظام يسير عليه الوجود ، والمهيمن على كل ناموس يخضع له . ولكنه لم يكتف بالوقوف عند هذا الحد ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقال انه لا يوجد فقط مثال فى العالم الطبيعى ، بل هناك أيضاً مثال فى عالم الأحداث ، فلا يتحرك شىء فى هذا الوجود على غير هدى . وفى كل حياة ، ووراء كل حادث فى الحياة ، يوجد هدف ، وقصد ، وخطة موضوعة . ومن الذى يسيطر أيضاً على الأحداث ، ويجرىها حسب حكمته ؟

الجواب مرة ثانية اللوجوس .. الكلمة . العقل الالهى .

ثم تعمق المفكر بعد ذلك إلى أبعد من هذا، فبدأ يتأمل في أعماق الانسان، قال وما هو ذلك الشيء في أعماق الانسان الذي يجعله يميز بين الخير والشر ؟ ما الذي يُعطينا المقدرة على التأمل ، والتفكير ؟ ما الذي يعيننا لنعرف الحق، ونختار الخير ؟ ومرة ثالثة يجيب المفكر، انه اللوجوس في أعماق الانسان. فهو الذي يهب الانسان العقل المميز ، ومعرفة الحق ، والمقدرة على تمييز الأشياء المتخالفة . ففي عالم الطبيعة والأحداث يسير كل شيء حسب سلطان اللوجوس ، وفي عالم باطن الانسان « اللوجوس » في الأعماق هو الكائن المميز بين الحق والباطل ، والقوة الممينة على قبول الخير ، فاللوجوس يسيطر على هذا الوجود ، كما يسيطر على كيان الانسان .

وحين اكتشف اليونانيون هذا الحق تمسكوا به ، ونادى به أكثر أتباع المدرسة الرواقية ، فقد كان الرواقيون في عجب ودهشة من النظام الذي يسير عليه هذا الوجود . فالنظام يستلزم وجود قوة مفكرة ، والناموس يستوجب كيان عقل مدبر ، وحيث هناك نظام ، ومثال ، وناموس ، وأنموذج ، فلا بد أن يكون وراء هذه كلها العقل المنظم .

فمن الذي يحفظ الكواكب في مجراتها؟ من الذي يسيطر على المد والجزر؟ من الذي يسود على تعاقب الليل والنهار ، وتعاقب الفصول بانتظام ؟ والجواب كما أسلفنا : اللوجوس ، كلمة الله ، عقل الله . فاللوجوس هو القوة التي تفسر ظواهر هذا الوجود ، وهو الساطان الذي يسيطر على نواميس الكون ، فلا يسوده الارتباك والتشويش . وهو المقدرة السامية التي تدفع العوالم إلى الحركة بكل هدوء ونظام ، أو بحسب التعبير الرواقي ، اللوجوس هو الذي يتخلل كل شيء ، ويتسلط على كل شيء .

بقيت لحة أخرى في الفكر اليوناني عن الكلمة . فبين يهود الأسكندرية

عاش فيلسوف يُدعى « فيلو » ، ولقد أوقف هذا المفكر حياته على دراسة الفلسفتين ، اليهودية واليونانية . فلم يكن هناك واحد بين اليهود نظيره ، له الإيمان التام بكل ما ورد في أسفار العهد القديم ، كما لم يكن هناك يهودى مثله ، أدرك عظمة الفكر اليونانى ، وتعمق في أسرارهِ .

وهو أيضاً خالبت لبّه فكرة الكلمة أو اللوجوس ، فنادى بأن اللوجوس كائن منذ الأزل ، وأنه الوساطة التى بها خُلق الوجود ، ثم قال إن اللوجوس هو فكر الله مطبوعاً على العالم ، كما أنه وسيلة الله للخلق . وعلى حد تعبيره : « كما يمسك الزارع بالحرث ، ويتخذ منه واسطة لبعث الحياة والازدهار فى الأرض الجرداء ، هكذا الكلمة هو الوساطة لبعث الكون وتسيير دفته » .

ثم قال : ان عقل الانسان يحمل طابع اللوجوس ، فهو الذى يهبه التمييز ، والمقدرة على المعرفة . فاللوجوس هو الوسيط الواحد بين الله والانسان . . بين الكائن والحادث .. وكما قال : اللوجوس هو الكاهن الذى يسمو بالانسان أمام الله ..

هكذا كان « الكلمة » فى الفكر اليونانى ، قوة الله الخالق ، والمسيطر ، والمرشد ، والحافظ ، والمسير لكل ما فى الوجود . فأتى يوحنا فى بشارته ، وقال لليونانيين « انكم لأجيال طويلة كنتم تفكرون عن الكلمة ، وتكتبون عن الكلمة ، وتحلمون عن الكلمة ، القوة الخالقة لهذا الكون ، والقوة الحافظة والمسيرة لهذا الوجود ، والقوة العاقلة المفكرة فى قلوب الناس ، والقوة الروحية المهمة لكل ما هو سام ، ورفيع فى الحياة ، وها هو اللوجوس .. كلمة الله ، فكر الله ، قد تجسد الى العالم فى شخص يسموع المسيح . . » والكلمة صار جسداً ، وحل بيننا .

استطاع اليهود واليونانيون على السواء ، أن يصلوا إلى إدراك معنى اللوجوس ، كلمة الله ، وفكر الله ، وعقل الله،الذى أبدع هذا الوجود، والذى أعطى لكل شيء معناه . وهكذا أتى يوحنا إلى اليهود واليونانيين على السواء ، ليخبرهم أن يسوع المسيح هو كلمة الله ، القوة الخالقة ، الحافظة ، المسيطرة ، المنيرة لكل عقل ، قد أتى في ملء الزمان ، ولبس جسم بشريتنا. وما عليهم بعد أن يرهقوا عقولهم في البحث والتنقيب ، إلا أن يتطلعوا بالإيمان إلى يسوع المسيح ، ليلمسوا في فكر الله المتجسد الحى في شخصه المبارك .

هذا هو يسوع المسيح الذى تدعوه المسيحية « ابن الله » .

الثالوث في المسيحية

عقيدة الثالوث من العقائد الجوهرية الأساسية في الدين المسيحي، وهي قديمة كقدم إعلانها منذ مُخلق عاقل يعبد الله . أما الإسم ثالوث فهو موضوع محدث . كأن تسمى جبلاً أو بحيرة أو بقعة من الأرض باسم لم يكن لها من قبل . فحدوث الإسم لا يعنى أن ذلك المكان محدث . والاسم العربي « ثالوث » معرَّب كلمة « ثرياس » اليونانية أو كلمة « ترينتاس » اللاتينية . ولم أقف على أول من استعمله في العربية . وأعتقد أن القرآن أشار إلى استعماله باللغة العربية في سورة المائدة آية ٧٧ « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » . وعليه يكون استعمال هذا الإسم قبل الإسلام، وهو مشتق من ثلث الشيء، أى جعله ثلاثة أركان. وأول من استعمل لفظ « ثرياس » ياليونانية هو تيوفيلوس أسقف أنطاكية نحو سنة ١٧٠م وأول من استعمل كلمة « ترينتاس » باللاتينية هو ترويليانوس في آخر القرن الثاني . على أن كلمة ، « ثالوث » العربية لاتعبر تمام التعبير عن الكلمة اليونانية أو اللاتينية، لأن فيهما معنى وحدة ثلاثة، أو تثليث بوحدة.

عقيدة الثالوث في الوحدة .

لا تعنى عقيدة الثالوث أن لنا ثلاثة آلهة، بل إله واحد في ثلاثة أقانيم . وقد عبّر عن هذه العقيدة أحسن تعبير قانون ماراثناسيوس - « الإيمان الجامع » هو أن نعبد إلهاً واحداً في ثالوث، وثلوثاً في وحدانية، لا نخلط الأقانيم ولا نفصل الجوهر . فإن للآب أقنوماً على حدة ، وللإبن أقنوماً آخر، وللروح أقنوماً آخر . ولكن لاهوت الآب والإبن والروح القدس كله واحد، والمجد متساو والجلال أبدي معا .. الآب إله والإبن إله والروح القدس إله، ولكن ليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد . . . الآب رب والإبن رب والروح القدس رب ، ولكن ليسوا

ثلاثة أرباب بل رب واحد . . . الدين الجامع ينهانا عن أن نقول بوجود ثلاثة آلهة أو ثلاثة أرباب .

وليس المعتقدون في الثالث أقل توحيداً من غير المعتقدين به. وكيف يمكننا أن نكون غير موحدين أمام آيات الكتاب الكثيرة الصريحة في كلا العهدين. وإليك بعضها ، وبعضها القليل فقط، لأنها أكثر من أن تُقتبس: « اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد » تثنية ٦ : ٤ - وفي العبرانية كلمة رب بالمفرد، وكلمة إله بالجمع ، أى « الرب آلهتنا رب واحد . وقد اقتبس يسوع هذه الآية ودعاها أولى الوصايا (مرقس ١٢ : ٢٩) .

« هكذا يقول الرب ملك إسرائيل ، وفاديه رب الجنود ، أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى » أشعيا ٤٤ : ٦ - « ليس إله آخر إلا واحداً . لنا إله واحد » يعقوب ٢ : ١٩ - « أنت تؤمن أن الله واحد. حسناً تفعل » . فالخلاف ليس في الوحدة بل في كيفية الوحدة .

ومن الحقائق الأولية المسلّم بها بداهة أن الخلق مهما سما ، لا يستطيع أن يدرك كنهه الخالق. والخالق الذى يدرك الخلق كنهه ليس خالقاً . فلما أراد يسوع أن يوضح لنيقوديموس حقيقة التغير الذى يؤهل الإنسان لدخول السماء، والذى بدونه لا يستطيع أن يرى ملكوت الله، استعار كلمة ولادة : « ينبغى أن تولدوا من فوق » . فلم يفهم نيقوديموس العالم المعلم الشيخ ذلك، فأجاب يسوع « ان قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون ان قلت لكم السمويات » ، أى ان بسطت لكم الحقائق السموية بلغة بشرية ، لا تفهمونها فكيف تفهمونها ان كلمتكم بلغة السماء ، وهى اللغة التى قال عنها بولس « لا يُنطق بها ولا يسوغ لإنسان أن ينطق بها » ، وهذا هو السبب فى أن الذين قاموا من الموت عجزوا عن التعبير عما شاهدوه، لأن لغة البشر عاجزة عن ذلك.

أسماء الله صفات

إن كل أسماء الله فى كل لغات البشر هى فى الحقيقة صفات . ولا عبرة بقول

مَن قال ان اسم الله في العربية مرتجل، وانه هو سمى نفسه به. وعلى فرض صحة هذا، فهو قد سمى نفسه للبشر بلغة البشر. والحقيقة أن اسم الله صفة، معناه «القدير» مثل إيل العبرانية. وفي العربية ٩٩ إسما لله كلها صفات. ولعل أقرب ما وصف به البشر الله، قولهم «الله روح» وهو مستعار من الريح.

وما أكثر الآيات عند المسيحيين والمسلمين التي تنسب إلى الله الأجزاء كالقول - يد الله . عين الله . رجل الله . قلب الله . وتنسب إليه الإنفعال كالقول - غضب ، وفرح ، أوسر ، وندم إلخ . وما ذلك إلا لتقريب الحقائق إلى أفهامنا بلفظنا .

بل اننا في كثير من الأحيان نجد أن لغة البشر عاجزة عن التعبير عن أفكار العلماء النوايح بلغة البشر أنفسهم، مهما اجتهدوا أن يبسطوها لنا . ولقد حاول كثيرون أن يبسطوا لنا أفكار الفيلسوف انشتاين في النسبية، ولكنها لا تزال غير مدركة عند كثيرين وأنا منهم . فاذا كنا إلى الآن عاجزين عن إدراك ماهية المادة، أفنتظر أن ندرك ماهية خالق المادة ؟

أمسك الإمبراطور تراجانوس أمام الخبر يشوع، صنما كان يعبد، وقال له: أرني إلهك كما أريتك إلهي. فقال له الخبر: تعال غدا عند الظهر فأريك إلهي . ولما جاء أخذه إلى السطح، وأشار إلى قرص الشمس، وقال له: حدّق جيدا فإلهي هناك، فبهر نور الشمس بصره ، ولم يقدر أن يفتح عينيه - فقال له الخبر ، هذا نور إلهي ، فان كنت غير قادر أن تفتح عينيك في نوره، فكيف تقدر أن تراه هو .

وقد شبه ابن خلدون في مقدمته العقل بميزان الصائغ، فانه يصلح لوزن الذهب بمقدار معين ، وإذا وزنت فيه مافوق طاقته تحطم . هكذا كل من يريد

أن يزن الله بما هو فوق طاقة العقل، يتحطم ذلك العقل، ويضل في غياهب الكفر والإلحاد. إذاً يجب أن نميز بين ما هو فوق طاقة العقل، وبين ما هو ضد العقل، فعقيدة الثالوث ليست ضد العقل بل فوق العقل . ومع قصور لغة البشر عن إدراك كنه هذا السر، فقد رأى بعضهم أن يذكر تشبيهاً لذلك، مثل جرم الشمس ونورها وحرارتها، والكل شمس واحدة . أو أن كلا من الماء والهواء مؤلف من أكثر من عنصر واحد وهو ماء واحد وهواء واحد، أو كما ورد في قانون ماراثناسيوس « كما أن النفس والجسد إنسان واحد، كذلك الإله والإنسان مسيح واحد » .

ومن أقوال أبي بكر الصديق - « العجز في طلب الإدراك إدراك. والبحث في عين ذات الله إشراف » . وقال أحد مشايخ الإسلام في الاستئانة « لا أعلم » جواباً لسائل سألته سؤالاً لا يعلمه . فأجاب السائل - أو أنت في هذا المقام وتقول « لا أعلم » - أجابه الشيخ - أنا في هذا المقام لكي أقول لا أعلم . وقال الإمام علي .

« كيفية المرء ليس المرء يدركها
فكيف كيفية الجبار بالقدم »
« هو الذي أنشأ الأشياء مبتدعاً
فكيف يدركه مستحدث النسم »

واعترف أيوب الصديق قائلاً - « قد نطقت بما لم أفهم بمجانب فوق لم أعرفها » أيوب ٤٢ : ٣ - اقرأ أيضاً مزمو ١٣٩ - وهتف الرسول بولس حين واجه أحد أسرار الله التي لا تدرك « يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص، وطرقه عن الاستقصاء » رومية ١١ : ٣٣ .

فإن كانت هذه أحكامه وطرقه، فماذا عساه أن يقول عن عين ذات الله .

ان قال هكذا الأئمة مثل أبي بكر وعلى، وإن قال هكذا أيوب وداود وبولس،
الذين تجلّى عليهم وحى روح الله، فماذا عسانا نقول نحن؟

عقيدة الثالوث في غير المسيحية :

هذه العقيدة منتشرة في أهم الأديان الوثنية قديماً وحديثاً . ففي ديانة
الفينيقيين نرى أنه كان لكل عاصمة من عواصمهم ، ولكل مستعمرة من
مستعمراتهم، ثالوث . وقد وجد المنقبون في جبيل ثالوثاً ، وهو إيل وتموز
(انظر حزقيال ٨ : ١٤) وعولم ، أى القدير والسيد والأزلى . وثالوث
المصريين أوزيريس وإزيس وهوروس ، وثالوث الهنود بوذا وبرها وفيشنا ،
وعند الصينيين ثالوث يعبرون عنه بمثلث متساو الأضلاع والزوايا .

وإن قيل ما علاقة ذلك بثالوث المسيحيين ، وهل هم أخذوه عن الوثنيين ؟
أقول لم يأخذه المسيحيون عن الوثنيين ، غير أن عقيدة الثالوث في المسيحية
وغيرها مستقاة من مصدر واحد، مثل عقيدة وجود إله أو عبادة إله . فليس من
أمة بلا معبود أو عبادة . ولم أذكر وجود هذه العقيدة عند غير المسيحيين إلا
للدلالة على أن مصدرها واحد هو الله نفسه ، وإنها غير موضوعة وضماً من
البشر، وإن تكن في الوثنية مشوهة مبعثرة بعيدة عن الوحدانية السماوية .
واستشهادى بها إنما هو من قبيل الاستدلال على الكمال من الأجزاء المبعثرة ،
كما يستدل علماء الآثار بمثل ذلك في أبحاثهم ، فيستدلون من عظام حيوانات
مبعثرة مع فقد بعضها ، على حجم ذلك الحيوان وغير ذلك من خصائصه ،
كالدنصور . وليس الاستدلال على كمال عقيدة الثالوث من آثارها وأجزائها في
الأديان الأخرى، أقل وضوحاً من الاستدلال على وجود الدينصور من آثاره
وأجزائه المبعثرة .

عقيدة الثالوث في الاسلام .

ومع كل تشديد المسلم على عقيدة التوحيد ، فلا تعجب إن قلت لك إن

عقيدة الثالوث موجودة في القرآن، كما هي في الكتاب المقدس ، بل هي ليست في العهد القديم أكثر وضوحاً مما هي في القرآن وإليك البيان :

« قال (الله) يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت » سورة ص ٧٥
 « وما خلقنا الجن والإنس إلا ليعبدون » الذاريات ٥٦ . « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لآعيبين » الأنبياء ١٦ . « أو لم يروا إنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون » يس ٧١ . « أم خلقنا الملائكة إناثاً » الصافات ١٥٠ . « إن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » يونس ٩٤ .

ومما نلاحظ هنا :

١ — ان الآيات التي يتكلم الله فيها عن نفسه بصيغة المفرد، والدالة على الوحدة في القرآن، ليست أكثر مما يتكلم فيها عن نفسه بالجمع ، الدالة على التثليث .

٢ — لا يمكن أن يقال إن ضمير الجمع للتعظيم . فهل هو جلّ جلاله يعظم نفسه أحياناً ولا يعظمها أحياناً أخرى . بل إن المفرد دلالة على الوحدة، والجمع على التثليث .

٣ — لا يمكن أن يقال انه بضمير الجمع أشرك الملائكة معه (ا) لأنهم مستثنون لقوله « أم خلقنا الملائكة » (ب) حاشا لله أن يشرك معه في الخلق إلا من كان مساوياً له في الذات والصفات .

٤ — قد نسب القرآن الخلق للمسيح « إني أنا (المسيح عيسى) أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » آل عمران ٤٩ والبقرة ١١٣ — ومن يخلق حياً يكون إلهاً . أما القول « بإذن الله » فيصدق على المسيح من جهة الجسد . وقد قال هو عن نفسه في الإنجيل « أنا لا أقدر

أن أفعل من نفسى شيئاً « يوحنا ٥ : ١٩ و ٣٠ ، أى بحسب الناسوت ، أما بحسب اللاهوت ، أو الكلمة الذى صار جسداً ، فإن « به كان كل شيء ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ». ومن الغريب أن المسلم السننى لا يكفّر المسلم الصوفى الذى يبدأ تصوفه بالقول : لا إله إلا هو بصيغة الغائب . ثم يرتقى فيقول : « لا إله إلا أنت بصيغة المخاطب » . ثم يرتقى ويقول : « لا إله إلا أنا » .

٥ - الاسم (كلمة الله) للمسيح فى القرآن هو نفس الاسم فى الإنجيل —

آل عمران ٤٥ - قابله بيوحنا ١ : ١

٦ - الروح والروح القدس فيه علم شخصى ، كما فى الإنجيل للاقنوم

الثالث - النحل ١٠٢ والمائدة ١١٣ .

٧ - إذن القرآن كالإنجيل فيه — الله وكلمته وروحه .

٨ - وما أشدّ الشبه بين البسملة الإسلامية « بسم الله الرحمن الرحيم »

بالبسملة المسيحية « بسم الآب والابن والروح القدس » !

ونحن نقرأ للامام الأكبر الشيخ محمد عبده توجيهها فى البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) قال فيه « ... الذى عرف هو قول النصارى فى ابتداء شئونهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو فى زعمهم ثلاثة مختلفة الأحاد مع أنها واحد ، فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوى على ثلاثة معان : الأول ذات والآخرة صفتان - فلفظ الجلالة هو الذات ، وهو يقابل الآب عندهم . والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم ، وهو يقابل الابن لزعيمهم أنه منبثق من الذات ، والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس ، وهى التى يرجع إليها الفعل المتجدد وباعتبارها يصدر ويتجدد ، وهو يقابل روح القدس ، فإنه عندهم الصلة بين الآب والابن ، وإن حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات » .

٩- المسلم السنّي لا يقول بخلق القرآن، بل يقول انه منزل غير مخلوق. وان سألته كيف يكون القرآن غير مخلوق وكل المواد التي يتألف منها مخلوقة — أجابك هذه المواد مخلوقة، ولكن كلمة الله غير مخلوقة. وأنت ترى من هذا أن اعتقاد المسلم بالقرآن هو نفس اعتقاد المسيحي بالمسيح، فهو كلمة الله غير المخلوق، وإنما جسده مخلوق.

عقيدة الثالث في الكتاب المقدس

الكتاب المقدس هو المصدر الأصلي، والسند الوطيد، والبيان الأكيد، والمعصوم من الخطأ، وفيه أعلن الله لنا نفسه. وليس من يعرفه حق المعرفة إلا هو نفسه. وليس لنا إذاً إلا أن نطأطئ رؤوسنا احتراماً ونقول « تكلم يارب لأن عبدك سامع » — ولم ترد عقيدة الثالث في الكتاب المقدس كنظام تعليمي، كما هي في قوانين الإيمان وعقائد الدين، ولكنها منشرة فيه انتشار الروح في الجسد، وسارية في كل أجزائه سريان الدم في الشرايين. ولكي يكون البحث بانتظام نقسمه إلى ثلاثة أقسام :

(أولاً) الآيات الدالة على المجموع وهي كثيرة نكتفي ببعضها :

« في البدء خلق الله السموات والأرض ^(١) » واسم الله في الأصل العبراني بصيغة الجمع، وهكذا هو حينما ورد. ثم الآيات الآتية: ^(٢)

« وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ». « وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا ^(٣) ». « وقال الرب . . . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم ، » ^(٤). « ثم سمعت صوت السيد قائلا من أرسل

(٢) تكوين ١ : ٢٦ .

(٤) تكوين ١١ : ٦ و ٧ .

(١) تكوين ١ : ١ .

(٣) تكوين ٤ : ٢٢ .

ومن يذهب من أجلنا»^(١) . لاحظ القول « أرسل » بالفرد و « من أجلنا » بالجمع .

(ثانياً) الآيات الدالة على ان الاقنوم الثانى الابن والكلمة هو اله حقا .

١ - انه ظهر قبل تجسده بهيئة بشرية، كما كان يظهر للملائكة ، وسمى ملاك العهد ، « ويأتى بفتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه وملاك العهد الذى تسرثون به»^(٢) . وسمّاه أشعيا ملاك حضرته الذى خلصهم (٩:٦٣) وقال ليسوع انه هو رئيس جند الرب ، وخاطبه يسوع بما لا يُطلق فى الكتاب المقدس إلا على الإله الحقيقى «الرب» أو كما فى الأصل «يهوه» (يسوع ٣:٥ و ٢:٦) . وهو أحد الثلاثة الذين ظهروا لإبراهيم عند بلوطات ممرا ، من هؤلاء الثلاثة اثنان سميّا ملاكين، ذهبا إلى سدوم والثالث بقى مع إبراهيم . وسمع العبارات التى خاطبه بها : « أديان كل الأرض لا يصنع عدلا . . . شرعت أكام المولى وأنا تراب ورماد » . وقد سمي هذا الشخص نفسه أيضا «الرب» أى يهوه ، ويؤكد ذلك قول يسوع نفسه « أبوك إبراهيم تهلل بأن يرى يومى فرأى وفرح . . . قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»^(٣) . وهو الذى ظهر لموسى فى العليقة وسمى «ملاك الرب» وخاطبه موسى كإله . وهو قال عن نفسه انه الرب يهوه « أهيه الذى أهيه » . أنا إله إبراهيم وإله يعقوب . ويؤكد ذلك الروح القدس بلسان استفانوس الشهيد المسيحى الأول، وقول يعقوب فى بركته لأولاده «رضى الساكن فى العليقة» أنظر خروج ٢ وتثنية ٦:٣٣ ومتى ٢٢:٣٢ وأعمال ٧ : ٣٠ - ٣٤ .

٢ - الآيات التى سمى فيها صريحا انه اله ووصف بأوصاف لا تصدق على

غير الله . اقرأ الرؤيا فى سفر أشعيا ص ٦ وانظر إن كان يمكن أن تصدق على غير

(٢) سلاخى ٣ : ١

(١) أشعيا ٦ : ٨

(٣) يوحنا ٨ : ٥٦

الله . ويوحنا الرسول الإنجيلي يخبرنا أنه هو يسوع (يوحنا ١٢ : ٤١)
 عمانوئيل أى الله معنا (أشعيا ٧ : ١٤ متى ١ : ٢٣) . هو الولد الذى يولد والابن
 الذى نعطاه : « وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيراً إلهاً قديراً
 أباً أبدياً رئيس السلام لنمو رياسته وللسلام لانهاية » .^(١) وأيد هذا يسوع
 نفسه فقال « دُفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض » . وأكدته
 الرسل بعده فقالوا انه وان يكن المسيح من اليهود حسب الجسد فهو « الكائن
 على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد »^(٢) - وفوق ما أعلنه تلميذه الحبيب
 ورسوله الكريم يوحنا فى إنجيله ، قال فى رسالته عن ابن الله يسوع المسيح
 « هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية » .

وفى هذا القدر كفاية عن كون المسيح ابن الله وكلمته . هو الإله الحى ،
 الحق الأزلئ ، كما أنه هو ابن مريم العذراء ومن سلالة داود الملك ، والنبي حسب
 الجسد . هو الذى فى البدء كان ، وبغيره لم يكن شئ مما كان . هو الكلمة الذى صار
 جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لو حيد من الآب . هو الله الذى اقتنى
 كنيسته بدمه (أعمال ٢٠ : ٢٨) . نعم فى هذا القدر كفاية لكل من يطلب الحق
 والحقيقة والخلاص .

ثالثاً - الآيات الدالة على أن روح القدس هو اله واقنوم ممتاز عن الآب والابن .

كلمة « روح » مشتقة من الريح ، وجاءت فى الكتاب بهذا المعنى ، ثم عبّر
 بها عن قوات غير منظورة ، كالقول روح عرافة ، وروح ضلال ، وروح ضد المسيح ،
 وعبّر بها أيضاً عن ميول خاصة فى الإنسان ، فقبيل روح الوداعة ، وروح
 منكسرة ، وروح الفضل ، وروح سبات . وسمّى بها الملائكة الأبرار (عبرانيين
 ١ : ١٤) والشياطين أو الملائكة الأشرار . (أعمال ١٩ : ١٢ وأفسس ٦ : ١٢) . وما
 هو غير مادمى كنفس الإنسان والله ، وخصوصاً الأقنوم الثالث من الثالوث

(٢) رومية ٩ : ٥

(١) اشعيا ٩ : ٦

الأقدس ، ويوصف غالباً بلفظة «قدس» و «قدوس» ، فيقال الروح القدس (متى ١ : ١٨ و ٢٠) وغير ذلك كثير .

و يُراد به في السكتاب أقنوم ذات . يقال عنه في الغيبة هو ، وفي الخطاب أنت . ويقول هو في التكلم : أنا . وهو له مساو للأب والابن في الجوهر والذات والصفات . فله كل جوهر اللاهوت وذاته وصفاته كما ترى مما يأتي :

١ - قد اشترك في الخلق وسمي روح الله ، فقيل « كان روح الله يرفّ على وجه المياه » . وهو أحد الأقانيم المتضمن في ضمير الجمع في القول « نصنع » (تكوين ١ : ٢ و ٢٦) ، بدليل ماورد في أيوب ٣٣ : ٤ « روح الله صنعني » ومزمور ١٠٤ : ٣٠ « ترسل روحك فتخلق » . أنظر أيضاً حزقيال ٣٧ - والدليل على كون الروح هو أحد الأقانيم في ضمير الجمع ، قول الله نفسه عن نفسه « من يذهب من أجلنا » أيام ٦ : ٨ - وقال بولس ان المتكلم هو الروح القدس « حسنا كلّم الروح القدس آبائنا » الخ . وهو يشير إلى هذه الآية (أعمال ٢٨ : ٢٥) وفي مزمور ٩٥ : ٧ و ٨ « اليوم إن سمعتم صوته (صوت الله) فلا تقسوا قلوبكم كما في مريبة مثل يوم مسّة في البرية » . وقال الرسول في عبرانيين (٣ : ٧) إن هذا الصوت هو صوت الروح القدس .

ولما أغاظ بنو إسرائيل الله في العهد القديم وأحزنوه ، قيل ان تصرفهم كان ضد الروح القدس (أشعيا ٦٣ : ١٠) « تمردوا وأحزنوا قدسه » ، وأيد ذلك استفانوس الشهيد الأول (أعمال ٧ : ٥٠) . وحذرنا الرسول بولس قائلاً « لا تحزنوا روح الله القدس » (افسس ٤ : ٣٠) .

وقال الرسول بطرس : ان الكذب على الروح القدس هو كذب على الله (أعمال ٥ : ٣ و ٤) . وبالروح القدس حُبِل بالمسيح في أحشاء العذراء المباركة ، وبه مُسح وأرسل كما تنبأ أشعيا ، فقال الابن الأزلي بلسان هذا النبي « منذ وجوده

(وجود الله) أنا هناك والآن السيد الرب أرسلني وروحه ». وقال « روح السيد الرب علىّ لأنه مسحني ... أرسلني » الخ (أشعيا ٤٨ : ١٦ و ٦١ : ١). يؤيد هذا بشارة الملوك للعدراء وشهادة يسوع نفسه (لوقا ١ : ٣٥ و ٤ : ٨) وهو الناطق بالأنبياء « لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » ٢ بطرس ١ : ٢١

(٢) ذكر الروح القدس مع الاب والابن ممتازاً عنهما وواحداً معهما ، قال يسوع « عمدوهم باسم (لا بأسماء) الآب والابن والروح القدس ». وفي البركة الرسولية « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس مع جميعكم » ٢ كورنثوس ١٣ : ١٤

(٣) مع أن ترتيب الأقانيم الآب أولاً ، والابن ثانياً ، والروح القدس ثالثاً ، هو الترتيب الغالب ، فليس هو الترتيب الوحيد ، كما رأيت في البركة الرسولية ، حيث ذكر الابن أولاً . وكما جاء في رسالة يهوذا آية ٢٠ « مصائب في الروح القدس ، واحفظوا أنفسكم في محبة الله منتظرين رحمة ربنا يسوع المسيح للحياة الأبدية » ، حيث ذكر الروح القدس أولاً .

« المجد للاب والابن والروح القدس ، كما كان من البدء ، وهو الآن ، وسيكون إلى دهر الداهرين آمين » .

هذه هي التمجدة المسيحية من أقدم أزمنة الكنيسة إلى الآن ، وستدوم إلى أبد الدهور .

الله الآب ، الله الابن ، الله الروح القدس (١)

الإنسان البشرى تواق أبداً إلى الحياة ، والحق ، والحب . وهو عاجز عن أن يبلغ ملء مراده في حياته على الأرض . ذلك لأن الحياة هنا مختلطة بالموت ، والحق ممتزج بالباطل ، والحب بالكراهية . من ثم يرى الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يبتعد عن هذا العالم — على الأقل في أنبل سويعاته — ليسعى وراء الحياة الطاهرة ، والحق الطاهر ، والحب الطاهر ، الذى هو الله .

على أن يسعى الإنسان إلى معرفة الله عن طريق التفكير المنطقى حول الأشياء المنظورة في العالم لا تهىء له إلا فكرة ناقصة عن الله . إنها أشبه بالمعرفة التى يحظى بها المرء عن فنان بارع بمجرد النظر إلى تحفة الفنية الرائعة . وفى طوق أن أتفرس فى الروائع التى أبدعها أمهر الفنانين ، من الآن إلى يوم الدين ، وأقف خاشعاً أمام جمالها وروعها ، ومع ذلك لن أقدر أن أعرف شيئاً عن أفكار الفنان التى تراوده ، وآماله وأشواقه التى تتردد بين جوانحه .

كذلك أقدر أن أعرف شيئاً عن الله ، عن قوته اللانهائية ، وقدرته ، وجماله ، بالتفكير فى السكون البديع الذى صنعه ، ولكن لن أقدر أن أسبر غور فكره ومحبه . ان الخليقة لا تقدم لى إلا وشلاً يتقطر من معرفة الله . لذلك كان طبيعياً أن يسعى الإنسان للاستزادة من هذه المعرفة ، وان يفكر عقله فيما وراء المراتيات ، كما فعل فيلسوف الأغريق القديم افلاطون ، يوم تساءل قبل المسيح بقرون طوال قائلاً :

« إن كان هناك إله واحد ، ففيم يفكر ، لأننا نفترض انه كائن عاقل ، وكل كائن عاقل يفكر فى شيء ما . . وإن كان هناك إله واحد ، فمن يكون موضع حبه . والمحبة من مقومات السعادة والغبطة » .

هذه الأسئلة وما مائلها ، رفعتها عقول البشر إلى السموات العليا لعلها

تستجيب إلى هذا النداء. ولن يأتي الجواب إلا من الله ذاته. وقد جاء يوم نزل ربنا إلى هذه الأرض ، واعلن لنا ذات الله وحياته في اقانيم ثلاثة : الله الآب ، الله الابن، الله الروح القدس. وهذا الإعلان هو سر الثالوث الأقدس الذي يجيب عن أسئلة الفلاسفة، وهو سرٌ يفوق العقل كما قلنا، ولكنه لا يناقضه، كما سنرى الآن..

إن دراسة فكر الإنسان و ارادته تقدم لنا صورة - ولو باهتة الألوان - عن فكر الله وإرادته . وإذا حللنا « فكر » الإنسان نراه يتألف من عناصر ثلاثة فهو كلمة ، وهو مولود ، وهو طابع شخصيته .

الإنسان يفكر في بعض المعاني مثل « العدل » و « الإيمان » و « الثبات » و « المحبة » . هذه الأفكار « كلمات » حتى قبل ان أنطق بها ، لأن الكلمة الصوتية ان هي إلا تعبير عن الكلمة الداخلية الكامنة في عقلي . وهذه الأفكار - او الكلمات الكامنة - « مولودة » . فمثلا منذ الذي جلس يوما إلى مائدة عشاء مع « العدل » ! او من ذا الذي سمع ان « المحبة » خرجت يوما إلى نزهة خلوية ! او منذ الذي عرف حجم او ميزان اولون « العزم » أو « الثبات » . ما من امرئ رأى أو لمس أو تذوق هذه الأفكار . ومع ذلك فهي حقائق لا سبيل إلى إنكارها . ولكن من أين جاءت ؟ إن العقل قد أبدعها او ولدها ، لا في مولد طبيعي ، كما تلد الحيوانات صفارها ، بل في توالد روحي، الذي به تلد الأفكار أو الكلمات الكامنة .

واخيراً « فكر الانسان » قد يأخذ « طابع » شخصيته . ولئن تكن بعض الأفكار تافهة مألوفة لا تعميها الذاكرة ولا يعبأ بها أحد ، إلا ان البعض الآخر يضع فيها للفكر حياته وقلبه وحسّه ووجوده وكيانه كله، بحيث تغدو هذه الأفكار قطعة من ذاته، تحمل شخصيته وروحه، فنعرفه بها حق المعرفة. وانت قد تميز افكار ابى العلاء المعرى وشكسبير وغيرهما من اشعارهم ، وافكار بسكال وابن

رشد والفارابی من فلسفتهم ، وافكار بيتهفن وهندل وباخ من موسيقاهم —
لأن هذه الأفكار قد صارت طابع شخصياتهم .

والآن لنطبق هذا كله على فكر الله: الله يفكر ، وفكره هو « كلمة » ،
كما ان فكرى هو كلمتى بعد ان أنطق بها . وهذا الفكر يُولد فيسمى « ابنا » .
وأخيراً يعبرُ هذا « الكلمة » أو « الابن » عن شخصية الله . على ان ثمة فارقاً
بين الله وبين الإنسان في ميدان التفكير . فللإنسان فِكر كثير وآراء متباينة ،
ولكن لله « فكراً » واحداً ، وعنده « كلمة » واحدة . وهذا « الكلمة »
الذى هو « فكر » الله لانهاى ومعادل لله ، فريد لا مثيل له ، البكر من
روح الله .

هو « الكلمة » الذى يعلن لنا ذات الله وصفاته .

هو « الكلمة » الذى به خُلقت كل الأشياء .

هو « الكلمة » مصدر الحكمة فى العالم . فالكشوف العلمية الحديثة ،
وعلوم الأحياء ، والطبيعات والكيمياء ، والفلسفة العقلية ، واللاهوت ،
وعلوم الرعاة والمجوس الحكماء — هذه كلها مصدرها « الكلمة » أو حكمة الله .

و « كلمة » الله الانهائية ، لا يدعى فقط « كلمة » للدلالة على « حكمة »
الله ، بل يدعى « ابنا » لأنه مولود . وفكر الله أو « كلمته » لا يحىء من
العالم الخارجى ، بل هو مولود بروحه . ولذلك سُمى « ابناً » . وكما أنه فى النظام
البشرى ، يدعى أصل التوالد الطبيعى « أباً » ، كذلك سُمى أصل التوالد
الروحى فى الثالوث « الآب » ، والمولود منه « الابن » ، لأنه صورة كاملة للآب
وشبيه به . وإن كان فى وسع الأب البشرى ان ينقل إلى ابنه نبل الأخلاق ،
وحلو السجايا ، وجميل الخصال ، فبالأولى ينقل الآب السماوى إلى « ابنه الأزلئ »
كل صفاته الحسنى ، وكال وجوده ، وأزليته وخلوده !

وأخيراً تمثل هذا « الكلمة » أو « الابن » الأزلى ، « بشراً سوياً » .
وفى هذا « الكلمة » أو « الابن » قد أودع الله حياته ، وكماله ، ولا نهائيته .
فهو حى كما أن الله حى ، وكامل كما أن الله كامل ، ولا نهائى كما أن الله لا نهائى .
والآب لم يوجد أولاً ثم فكر بعد ذلك ، لأن الآب والابن واحد فى الأزلية .
والله غير قابل للتغيير ، فلا زيادة فيه ولا نقصان . ومن ثم استطاع الله إذ نظر
إلى « كلمته » إلى « ابنه » إلى « صورته » ، أن يقول فى هيام الأبوة الحقبة
« أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك » — اليوم ، أى منذ الأزل ، وإلى الأبد .

وعدُ معى — أيها القارىء الكريم — إلى أصل العالم ونشأته ، وكُدس
القرون فوق القرون ، والأجيال فوق الأجيال ، والدهور فوق الدهور ، وأسمع
هذه القولة : « كان الكلمة عند الله » . عدُ معى إلى ما قبل خلق الملائكة والإنسان
والحيوان ، والأرض والسماء ، تسمع القولة عينها : كان الكلمة عند الله .

هو « الكلمة » الذى سمعه البشير يوحنا يوم كتب فى استهلال بشارته
« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » — كما
قلنا فى فصل سابق . وكما أن أفكارى المستكنة لا تظهر إلا عند الكلام ،
هكذا — على حد قول البشير « الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا » . وهذا
« الكلمة » هو الأتقنوم الثانى فى الثالوث الأقدس ، هو بداية كل الأشياء
ونهايتها ، هو الدكان قبل الخليقة ، هو ملك الكون الذى صنع كل شئ .

إن للمسيح تاريخاً سابقاً ، ندرسه ، لا بين صخور الأرض وعاديات الزمن ،
لا فى كهوف الإنسان ومغاور السلف ، لا فى مجاهل الغابات وبطون الثرى ،
بل فى حضن آب أزلى . هو الذى صنع التاريخ وشرط الزمن ، ما قبله وما
بعده . وعلى مقتضى هذا التاريخ يؤرخ البشر أحداث تاريخهم . وإذا نحن

أنكرنا ان « الكلمة صار جسداً » ، وأن ابن الله صار ابن الإنسان ، فكأننا
نسكّر التاريخ ذاته .

الروح القدس

وإن كان الله هو مصدر الحياة والحق والخير في العالم ، فلا بد أن تكون
له إرادة ، وأن يكون له عقل ، وأن تكون له محبة ، وأن يكون له فكر . ومن
حقائق الوجود أن كل كائن يحبُّ كاله . فكمال العين هو اللون ، وهي تتعشق
روعة الشمس في مغيبها . وكمال الأذن هو الصوت ، وهي تتعشق النغم الموسيقي
العذب . ونحن نعلم أن المحبة متبادلة بين الحب والمحبوب . ويبني وبين من أحب
عروة وثقى تربطنا معاً . وفي ذات الله ، الآب يحب الابن الذي ولده ، وهو رسم
جوهره . والابن يحب الآب الذي ولد منه . أحدهما يفسكر في الآخر ، وأحدهما يحب
الآخر محبة قوية دافقة كاملة بحيث تخلق بينهما رابطة حية . والمحبة في مثل هذا الطور
لا تنطق ولا تصيح ، ولا تعبر عن نفسها بألفاظ منطوقة ، ولا بأنغام مسموعة ،
ولكنها تعبر عن نفسها — كما يحدث لنا نحن البشر — بزفرة أو أنفّة أو نسمة .
لهذا سمّى الأقبوم الثالث في الذات الإلهية « الروح القدس » .

وهذه النسمة إلهية ليست زائلة كنسماتنا نحن البشر ، بل هي روح ازلي
خالد . ولست ادري ، ولا يدري غيري ، كيف يعمل هذا الروح . على اننا نؤمن
انه حلّ في العذراء المباركة ، فسمّى المولود منها « ابن الله » .

وهو بعينه الروح الذي تحدث عنه المسيح مع نيقوديموس يوم حمّته على ان
يولد ثانية بالماء والروح .

هو بعينه الروح الذي أعطاه لتلاميذه ، يوم قال لهم : « اقبلوا
الروح القدس » .

هو بعينه الروح الذى قال عنه سيدنا ليلة العشاء الأخير « هو يمجدى ،
لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » .

هو بعينه الذى قال عنه أيضاً : « ومتى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم
إلى جميع الحق » .

هو بعينه الذى هبط على الرسل يوم المحسين ، يوم ميلاد الكنيسة ، بل هو
بعينه الروح الذى يسوس الكنيسة اليوم ويدبرها ويهدى كل أبنائها إلى الحق ..

وبقاء الكنيسة حتى اليوم على الرغم مما لاقت من إعنت واضطهاد ، وعلى
الرغم من الزعامة الهزيلة والقيادة الضالة التى تولّت أمرها فى كثير من العصور ،
لهو أبلغ دليل على عمل ذلك الروح القدس .

وكما أن الزوايا الثلاث فى المثلث لا تجعل منه ثلاثة مثلثات ، بل واحد ..
وكما أن الحرارة والقوة والنور فى الشمس لا تجعل منها شمساً ثلاثاً ،
بل واحدة .

وكما أن الماء والهواء والبخار كلها مظاهر لمادة واحدة .
وكما أن الشكل واللون والرائحة فى الورد لا تجعل منها ثلاث ورود ،
بل واحدة .

وكما أن النفس والعقل والإرادة فى الإنسان تجعل منه إنساناً واحداً .
هكذا ، مع الفارق الكبير فى هذا السرّ العميق ، تتألف ذات الله من
أقانيم ثلاثة ، وهو إله واحد .

هذا هو الثالوث الأقدس فى المسيحية . وكسبحى أشهد أن « لا إله إلا الله
لا شريك له ، واحد أحد ، فى أقانيم ثلاثة ، الآب والابن والروح القدس ، له
المجد والكرامة والسلطان إلى أبد الآبدين .

هل لله شخصية

نمت عقيدة الثلاث ، وترعرت في عالم وقفت فيه وحدانية اليهود وقفه مناهضة ضد الآلهة الكثيرين والأرباب الكثيرين في العالم اليوناني الروماني . وكان المسيحيون الأولون يهوداً تشبثوا كل التشبث بعقيدة وحدانية الله . وفي هذه العقيدة كان عليهم أن يدخلوا اختبارهم الشخصي الذي عرفوه في يسوع المسيح . فلما أخذ حبهم له يزداد شيئاً فشيئاً ، يفهمون رسالته ، ويقدرّون أهمية الإعلان الذي جاء به اليهم عن الله بحياته وشخصيته وأقواله وآياته ، اضطروا أن يعيدوا النظر في معنى الوحدانية التي آمنوا بها . ولما اختبروا في حياتهم اليومية — بعد قيامته وصعوده — إلهام الروح القدس وقوته ، وازداد فهمهم لشخصية سيدهم المسيح — أدركوا شيئاً فشيئاً أن وحدانية الله تنطوي على معنى أعظم وأغزر مما عرفوا أو تصورا من قبل . ومن ثم تشكلت عقيدة الثلاث المقدسة في عقولهم ، وكانت بمثابة دفاع عن الوحدانية .

وفي الكتاب المقدس أعلن لنا الله ذاته كأننا ذا شخصية . ولن يمكن أن تكون شخصيته أقل أو أدنى من شخصية خلائقه البشرية . وللشخصية اسمي وضع للفردية وأكمله كما نعرفها ، واسمي فكرة عن الله وأليقها أنه ذو شخصية ، كما يعلمنا الكتاب المقدس .

ولكن ما الشخصية ؟

كلنا نعرف الشخصية ، ولكن الفلاسفة وعلماء النفس لم يستطيعوا أن يعرفوها ، ولعلها من الحقائق التي تتحدى كل تعريف

على أنه يمكننا القول ان «الشخص» هو أكمل وأنسب وضع للفردية التي نعرفها . فالشخص هو فرد يشعر شعوراً ذاتياً بنفسه ، ويتمتع بالإرادة والمسئولية الادبية وبشيء من قوة الإبداع (والمرجح أن الحيوانات الأخرى غير الإنسان

تعوزها القوة على هذا الشعور الذاتى ومعرفة نفسها). فالطفل قبل أن تستكمل فيه المسؤولية الأدبية، لا يعتبر شخصاً كاملاً .

والشخصية وحدة فى التفكير والعمل ، ولكنها وحدة فى تعدد . فهل نحسب الحجر مثلاً وحدة متحدة ؟ قد يكون ذلك . ولكن المخلوق البشرى أكثر تعدداً ، وفى الوقت نفسه أتم تماسكاً ووحدة . أقطع قطعة من الحجر ، فلا يتأثر الباقى منه إلا قليلاً . ثم أقطع قطعة من مخلوق بشرى ، فيتأثر الكيان البشرى كله ويتألم ، لأن وحدته لا تفسد بتعدد اجزائها ودقة تركيبها ، بل تنتفع وتقوى .

والشخصية تتألف من عناصر العقل والإرادة والعاطفة ، وتعبّر بها عن ذاتها . وقد تبدو هذه العناصر متميزة منفصلة ، ولكنها فى الواقع مقترنة ومرتبطة معاً ، بحيث لا وجود للواحدة بدون الآخرين .

ونحن نعلم أن الذاتية أو الشخصية مستحيلة ، لا معنى لها بدون شىء آخر غير الذات . فشعورنا بالذات يبدأ عادة بادراكنا الفرق بين أنفسنا وبين الأشياء الأخرى المادية ، أو بيننا وبين الآخرين . فكيف يمكن تحقيق هذا « بالنسبة لله » ؟ وقبل خلق الكون — ما « هذا الشىء الآخر غير الذات » ، حين نفكر فى الكائن الإلهى ؟

هنا تسعفنا العقيدة المسيحية

تعلمنا هذه العقيدة أن الله واحد ، لا كوحدة مجردة ، ولا كالرقم واحد فى علم الحساب ، بل كاتحاد — والاتحاد ، يقتضى عناصر متناسقة تعمل معاً ك فرد واحد . ومادام لله شخصية ، وجب أن يكون له هذا الشعور بالذات . والشعور بالذات أو معرفة الذات — وهو غير كامل فينا — يتطلب فى الشخص الواحد وجود الذات العارفة ، والذات المعروفة ، ووجود العلاقة

بينهما وهي المعرفة . وما دام لله شخصية وجب أن يكون الشعور فيه كاملاً ، وأن تكون معرفة الذات كاملة . وفي هذه الذات الإلهية الواحدة يجب أن يكون العارف والمعروف والمعرفة . وهذا الحق ممثل لنا في عقيدة الثالوث في الوحدة .

والشخصية البشرية الناقصة تقتضى طاقة المحبة . وما دام الله شخصية كاملة ، فلا بد أن تكون له طاقة المحبة كاملة . وقد تضمن الوحي المسيحي عبارة « الله محبة » . ولكن الله سرمدى أزلى . وهو إن كان محبة منذ الأزل ، قبل كون العالم ، فلا بد أن يكون في داخل ذاته تبادل للمحبة ، وإذا وجد الحب والمحبوب في داخل ذاته ، فإن الحب يحب المحبوب وبالعكس . وبين الإثنين تلك العلاقة الأزلية التي هي روح المحبة . وهؤلاء كلهم - الحب والمحبوب والروح - أشخاص أو أقانيم متساوية ، وهؤلاء كلهم الله الواحد ، بدون تمييز بينهم ، والشخصية الأزلية بدون هذه العلاقة المتبادلة في داخل ذاتها لا يمكن أن تكون شخصية أزلية .

ولكن يجب أن نذكر أن في كل الأعمال الإلهية تشترك الذات الإلهية كلها . فالله منذ الأزل هو الذى يعلم ويفكر ويريد ويدبر ويخلق ويأمر . والله منذ الأزل هو الذى يحب ويتنازل ويتمطف ، ويدبر الوسائل ، ويمسك بالإنسان ، ويعلم الحق ، ويفدى . والله منذ الأزل هو الذى يجذب الإنسان إليه ، ويدبر ، ويلهم ، ويحيى .

وتعتمد العقيدة المسيحية بهاتين الحقيقتين اللتين أشرنا إليهما : وهما أن الشخصية في الله وفي الإنسان على السواء ، تقتضى تنوعاً كما رأيت في تبادل المعرفة والمحبة ، وفي الوقت نفسه تقتضى اتحاداً في كل الأعمال التي ذكرت . فتقول للعقيدة المسيحية ان الثالوث الاقدس يشمل أقانيم ثلاثة: الله الآب ، والله الابن والله الروح القدس .

وهؤلاء الاقانيم الثلاثة ليسوا آلهة ثلاثة ، وليسوا أجزاء ثلاثة في الذات الإلهية . بل هم الله الواحد الأحد الثالث ، الله الواحد ذو الشخصية المثلثة . « الرب الهنا رب واحد » .

ولكن ما الذى تعنيه الكنيسة عند قولها « أقانيم ثلاثة » ؟ حاولت الكنيسة أن تعبر عن معرفتها واختبارها عن الله كما أستعملان لها . وكان عليها أن توفق بين عقيدتها اليهودية في الوجدانية ، وبين هذا الاختبار الجديد الذى عرفته في يسوع المسيح وروحه .

وبعد تجربة ألفاظ ومصطلحات كثيرة ، استقر رأى الكنيسة على التمسك بهذا الاصطلاح « أقانيم ثلاثة في إله واحد » . ونحن نفتبط لهذا التوفيق لأن كلمة « أقنوم » في أصلها معناها « شخصية » ، وتحمل في ثناياها معنى الحياة والعمل أكثر من غيرها من الألفاظ المجردة التى حفلت بها الفلسفة اليونانية . ونعتقد أن هذا الاصطلاح أقرب ما يكون إلى إعلان الكتاب المقدس عن الإله الحي الذى يعمل ، مع أننا نعلم أنه ليس في الألفاظ البشرية ما يصاح تماماً للتعبير به عن الذات الإلهية .

وهنا كلمة التحذير واجبة على أى حال ، لأن الانسان العصرى يفكر في الشخصية أو الأقنوم كفرد منفصل له شعور مستقل بذاته . على أنه ينبغى ألا نطبق هذه الفكرة الحديثة عن الشخصية المستقلة ، على الكلمة « أقنوم » ، كما استخدمت في القرن الرابع عبارة « أقانيم ثلثة في إله واحد » . فهما يكن قصد الآباء الأولين من هذه العبارة ، فإنهم لم يعنوا بها مطلقاً « ثلاثة أفراد » منفصلين ، بشمر كل منهم بذاته شعوراً مستقلاً . ورغبة في الاستمساك بوجدانية الله ، قيل انه ينبغى أن نترجم معنى عبارة « ثلثة أقانيم » بقولنا « ثلاثة مظاهر حيّة » . ولكن بينما نتجنب بهذا التأويل فكرة الانفصال ، فإننا نفقد

فكرة التبادل . والتبادل من العناصر الجوهرية في الذات الإلهية كما رأينا .

وهنا يجب أن نذكر أن التشبيهات البشرية عرضة للانهياب . فمن الحق أن نقول ان كل قيم الشخصية البشرية متضمنة في الذات الإلهية ، ومع ذلك فلا ندحة لنا عن التسليم بأن شخصية الله ، الذي خلقنا على صورته ، أرقى واسمى من كل الوجوه من الشخصيات البشرية التي خلقها . على أنه يجب أن تشبه شخصية الله شخصية الانسان إلى حد ما ، والأما استطاع الانسان أن يعرف الله .

الله معلن لذاته

ان الله قد تكلم وأعلن ذاته للانسان . فراراً كثيرة نلتقى في التوراة بعبارات مثل «وقال الله» . أو «هكذا قال الرب» . والكتاب المقدس نفسه - كمجموعة من الأسفار - يقال عنه في أحيان كثيرة «كلمة الله» . وهو ليس كلمة الله لأنه تعالى قد أملاه املاءً ، ولا لأن كلماته متضمنة فقط في الشذرات المصدرة بعبرة مثل «قال الله» ، ولكنه «كلمة الله» لأنه يشمل إعلانه عن ذاته ، ويتحدث مباشرة إلى القلب وإلى الضمير ، كأنه رسالته وكلماته وإعلانه عن نفسه .

ونحن نسأل «من الذي يتكلم» ، وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد: الرب الاله ، وهو وحده المعلن عن ذاته .

والحق أن الله في تكلمه مع الإنسان وإعلان ذاته له ، إنما يستخدم الأساليب والوسائط . فكلامه ينتقل إلينا عن طريق الخلائق البشرية - كالأنبيا مثلاً - الذين جاءت إليهم كلمة الرب بطريق عقولهم ، وبواسطة اللغة البشرية ، والآيات والعلامات . وللإعلان وضعه وشكله . ولكن هذا الشكل ، أو هذا العقل البشرى ، أو اللغة البشرية ، أو العلامة ، ليست هي موضوع الإعلان . فإذا قلت مثلاً «ان هذه العلامة ، أو هذا الإنسان الملمهم ، هو إعلان عن الله» ، إنما أقصد بهذا القول ان

تلك العلامة أو ذلك الإنسان وسيط ودليل ومرشد إلى الإعلان الذي يعلنه الله عن ذاته . والأسفار المقدسة يقال عنها « كلمة الله » بمعنى أنها تشهد للإعلان الذي لن يقدر أن يقوم به أحد غير الله ذاته . وليس الأنبياء والرسل معلنين ، إنما هم شهود فقط لإعلان الله .

فالله نفسه هو الذى يتكلم ، وهو الذى يعلن عن ذاته . لا أحد يقدر أن يعلن الله للناس غير الله نفسه . وإذا آمنا بهذا يجب أن نؤمن أيضاً أنه يخبرنا من هو . الله نفسه هو المعلن وهو نفسه المعلن . وفضلاً عن هذا فهو صاحب الفكر والعمل . هو الذى يدبر ويكمل هذا الإعلان ، حتى يحقق به الغرض الذى قصد إليه . وأما العقل البشرى أو اللغة البشرية ، وهما الوسيطتان اللتان نتلقى بهما إعلان الله ، فليسا الإعلان نفسه بل مجرد شاهدين له . لذلك يحق لنا القول ان الله هو المعلن والمعلن والإعلان ، كما قلنا من قبل انه هو المحب والمحبوب والمحبة ، أو العارف والمعروف والمعرفة .

قلنا ان الله منذ الأزل ، هو الذى يعلم ويجب ويريد ويتعطف ، كذلك نقول أيضاً ان الله الواحد منذ الأزل هو الذى يعلن ذاته للناس ، ومن ثم قد أعطى لنا هذا الإعلان ثلوثاً فى وحدة . واسكن الثالوث فى الوحدة ليس من مظاهر الإعلان فقط ، بل هو ذات الله منذ الأزل ، لأنه حين يعلن الله ذاته ، إنما يعلنها على حقيقتها كما هى منذ الازل .

فوحدة الله اذاً — بالنسبة لنا نحن المسيحيين — شىء آخر يختلف عن الوحدة الحسابية ، وعن فكرة العزلة والانفصال . فأى فكرة من هاتين الفكرتين تنقص من شأن الإلهية . الله واحد ، ولكن ليس مجرد وحدة . هو الإله الواحد ، ولكنه ليس المنعزل المنفصل . والاعتقاد فى التمييز فى ذاته وجوهره لا يقلل من شأن وحدته ، بل بالعكس يزيد بها ويحكمها ، وينأى بنا عن فكرة الوحدة الحسابية ، التى تخفض من شأن الإلهية .

الختام

ألقينا في الفصول السابقة نظرات مجلى على أديان العالم المختلفة وعرفنا خلاصات من عقائدها وممارستها . بقى علينا في هذا الفصل الأخير أن نلخص بعض الاتجاهات الفكرية التي تلقى ضوءاً على تلك العقائد

دين نبى فارس :

فمنذ ثلاثة آلاف سنة ظهر في الشرق الأوسط - التي كانت مهد كل الأديان التي عرفت الوجدانية - نبى الفرس « زرادشت » ينادى برسالة تشبه تلك التي نادى بها أنبياء العبرانيين . وقد توجه بهذه الرسالة إلى قبائل إيرانية تعمل في الرعى والزراعة ، وتعرض لاضطهاد مرير من قبائل بدوية معادية . وقد رأى النبي الفارسي في هذا الوضع تمثيلاً للصراع المحتدم بين الخير وبين الشر ، الذي يحاول دائماً الهدم والتدمير . وهو لذلك يقف ، مزوداً بالتعيين الإلهي ، والاستنارة الإلهية ، ليؤكد لقومه أن الحياة الصالحة ، حياة الحق والسلام والبر ، تسندها قوة الإله الأسمى وإرادته ، وأن قوات الشر مهما بدت حدة شوكتها ، وشدة سطوتها ، مصيرها الزوال والفناء ، وأن الإله الصالح سيزكى نفسه في عالم آخر .

فالحياة الخيرة تظهر بالنصر في المستقبل ، ولكنها في العالم الحاضر تحيا في صراع مستمر لا يهدأ أواره . ولكل إنسان فرصة للتعاون مع الإله الأسمى والمساهمة في هذا الصراع ، لكي يشارك هذا الإله أخيراً في صفاته وروحه .

ونستشعر في تعاليم زرادشت وجود ضمير في الإنسان يميز بين الخير والشر ، ويفرق بين الحياة الطيبة، وبين السعى الأحق وراء الملذات والنفع الذاتي . وهو يفترض ان الخير يؤتم الإرادة الإلهية ، وهو التعاون مع الله . على انه مثل الأنبياء العبرانيين ، لم يبد ميلاً نحو مطارحات الفلسفة العقلية ، ولم يكن متصوفاً ولا متقشفاً يحترق كرامة الجسد ونشاطه ، بل كان رجلاً عادياً وجد نفسه في معترك الحياة ، فحاول أن يستمتع بها ، ولكنه أحس في ضميره بدعوة إله الخير الذي يسبغ بركته على من يطيعون دعوته ، ويذل أخيراً الأرواح المتمردة ، ويهلك هلاكاً أبدياً الذين يخدمون قضية الشر .

العبرانيون :

وتلك كانت رسالة أنبياء العبرانيين ، على أن فارقاً هاماً بين هذه وتلك : وهو أن تزكية الله للخير في نظر اليهودية الأولى اقتصر على هذا العالم ، حياة الدنيا ، وليس في عالم آخر . ثم ان دين اسرائيل لم يقتصر على فرد بعينه . فبينما اقتصرت رسالة زرادشت على فرد واحد ، أبتلعت رسالته من بعده في غمرة من انحرافات والخزعبلات ، نجد في اليهودية أصواتاً متتابعة ، يتلو بعضها بعضاً ، في سلسلة من الأنبياء ، وفي تطور عجيب ، حتى تنتهي أخيراً إلى نصر باهر ، وتتجمع كلها في مجموعة من الأسفار المقدسة الخالدة . إنها رسالة ألقيت في فترات ، وبطرق متنوعة ، حتى بلغت ذروتها في يسوع المسيح .

الاسلام :

وجاءت رسالة الإسلام فرددت كثيراً من أصداء اليهودية والمسيحية ،

ولكنها أُلقيت في وسط جديد ، وفي أوضاع فطرية لأقوام بدائية ، وتمسكت بالوحداية المطلقة للقضاء على الأصنام والأوثان، التي كانت تعبدها تلك الأقوام.

بلاد الصين :

وفي وسط التقاليد المضطربة في بلاد الصين نلمح فكرة السماء العليا ، التي يجب أن يأخذها « الملك العاقل » نموذجاً له ، فيصير « شريكاً لله » . ثم نرى الفضيلة تنتقل مرة من طور إلى طور إلى شعبه كله « الذي يحبه » . وفي تعاليم معلمى الصين الثلاثة الذين تفخر بهم - لاوتز ، وكنفوشيوس ، ومنسيوس - نجد في وسط مجموعة من الخرافات ، فكرة إلهية تزكى الآداب والأخلاق . وإننا انرى « لاوتز » يتخذ الطريق الهندى القائم على الزهد والتقشف ، وينسحب من العالم ويتجنبه ، ومع ذلك فإن هناك فكرة عميقة متأصلة يسميها « الطريق » ، وهى المبدأ الإلهى للكون الذى يجب أن تنسجم معه كل الأشياء ، وهذه الفكرة عينها قد تضمنتها تعاليم كنفوشيوس (وتلميذه منسيوس) في وضع عملي أخلاقى . وذلك لأن كنفوشيوس وجد نفسه في عالم مفكك مضطرب ، تغمره الأديان التى تخلو من كل قوة أدبية ، فأفرز نفسه ورسائله لتوطيد أركان الأخلاق - وكان جوهرها في عرفه طاعة الوالدين ، والحكام العدول ، والعفة والأمانة والصدق . وهو يفترض أن هذه المدركات كلها - أى الخير - من طبيعة الإنسان ذاته - ولذلك تماشى التحدث عن الكائنات الروحية والمبررات الدينية على أنه يؤمن بسلطة إلهية وراء كل سلطان بشرى .

بلاد الهند .

والآن لنلق نظرة إلى أديان الهند . وأول ما نلاحظه خلو الفلسفات والأديان الهندية من نظرية متكاملة عن الالتزامات الأدبية الأخلاقية ، أو عقيدة منسجمة متألفة عن حياة الخير والصلاح . وأرفع مستوى دينى بلغته أديان الهند

هو فكرة الولاء والفناء في ذات إلهية. ولتحقيق هذا الهدف تُغمر نفس الفرد بغبطة تصوفية، أما المستويات الأخلاقية في الحياة الدنيا فلا عبرة بها نعم، اننا نجد في تعاليم بوذا نظاماً أدبياً أخلاقياً شديد الصرامة يعلنه للذين يرغبون في الاستنارة، ولكن السرّ الدفين الذي اكتشفه بوذا ونقله إلى أتباعه هو أن الحياة ذاتها شرٌّ لا خير فيها، وأن سبيل الحكمة هو محاولة الإفلات من زحمة الحياة بالقضاء على كل الرغبات والميول - ليست الرغبات الشريرة وحسب، بل الرغبات جميعها، وبذلك يمكن للنفس البشرية أن تجتنب لعنة الفناء.

من ثمّ نرى البوذية الأصلية لا تقدم لنا عقيدة واضحة عن الحياة الصالحة في حياة الدنيا، ولا أية فكرة عن افتداء الحياة الإنسانية، ولكنها تقدم لنا فقط طريقاً للفداء والخلاص من الحياة ذاتها، وتدير ظهرها لكل الآمال والأمانى والرغبات التي تتوق إليها النفس.

صحيح أن بوذا وضع عقيدة في مستوى خفيض للذين تنقصهم الشجاعة للقيام بالمغامرة الكبرى، وعلى مقتضى هذه العقيدة يأملون في الإرتقاء في حياة أخرى في المستقبل. وهذه هي الفكرة الوحيدة التي نقلتها البلدان الأخرى التي دانت بالبوذية بعيداً عن موطنها الأصلي. ولكنها في هذا الإجراء قد تنكرت لمبادئ مؤسسها، وأحاطت نفسها بأوضاع من الوثنية والسحر، وبات ديناً طقسياً جامداً. على أنها قد احتفظت في الوقت عينه ببعض خواص الهدوء النفسي والرفقة والتواضع والتسامح.

وبعبارة إجمالية يمكن القول ان البوذية - حسب إعتقاد مؤسسها - تعجز عن افتداء الحياة الإنسانية لأنها تحسبها شرّاً لا براء له. ويذهب كثيرون من العلماء والمفكرين إلى أنه إذا رغبت الهند في العثور على مبدأ للتجديد الأدبي فلا مناص لها من البحث عن دين آخر أو فلسفة أخرى.

المسيحية .

إن المسيحية - وهي أرفع الأديان وأسمها في الوحدانية الأخلاقية - تأخذ اليهودية فرشاً تاريخياً لها ، وتؤمن بالله الواحد ، إلهاً شخصياً ، خالداً أزلياً ، الخالق الأوحد لكل العالمين ، الحال في كل مكان ، ولكنه المنزه المتعالى ، الكامل في جوده وحكمته وقوته ، والرهيب في قداسته ، والديان العادل لكل الأرواح الحرّة ، الذى يعتنى بكل خلائقه ، ويهذى كل الأشياء صُعدا إلى نصرة الخير .

على أن هذا الإله الواحد ، الذى لاتدرکه افهام الناس في كمال جوهره ، قد أعلن ذاته تدريجياً ، في مراحل متتابعة ، لضمير الإنسان وعقله ، حتى بلغ هذا الإعلان ذروته في يسوع المسيح ، الإنسان الكامل ، الذى هو في الوقت عينه « صورة الله » .

وإذ نتبع هذا التطور يبلغ ذروته العليا في المسيحية ، فإننا نرى - ما لا نراه في أى دين آخر - طموحاً إلى أفضل وأرقى المثل الأخلاقية التى تجد فيها النفس ضالتها . وهذا كله بفضل الفكرة السامية عن الله ، الإله الواحد ، الخالق ، الديان ، الأب ، الذى أعلن ذاته بانبيائه ، وأخبراً بابنه ، موصلاً ذاته للناس بروحه القدوس ، وداعياً إياهم - هنا في هذه الحياة - إلى صلة به ، وبمقاصده السامية في الخليقة ، وأمرأ إياهم في الوقت عينه أن هذه الحياة المشوبة بالاضطراب والقلق إن هى إلا المرحلة الأولى لهذا الاختبار السعيد ، مؤدية إلى مرحلة أبقى تنفضج فيها الأنفس ، وتكتمل ملكوت الله ، حيث تجتنى الثمار الشهية ، ويكمل كل شيء فيما وراء هذه الحياة الفانية .

وفي نور هذا الفهم لذات الله ، تجد البشرية في السعى لتحقيق آمالها وأمانها الأخلاقية الأدبية تشجيعاً قوياً وترويضاً صارماً ، وتحس في أحماقها

ببشاعة الخطيئة ، وفي الوقت عينه بإحساس الحرية لتتحرك وتعمل وتتقدم ،
تتوافر لديها ثروة هائلة من البواعث النبيلة ، ومخزن لا ينضب من القوة ،
وذلك لأنها ترى أمامها مثلاً أعلى ، مجسماً ، ومستوى من الحياة رفيعاً ، في
شخص يسوع المسيح . وذلك لأن الحق المطلق ، والخير المطلق ، والجمال المطلق ،
وما إلى ذلك من قيم ، تقوى فينا حين نراها مجسمة في شخص أماننا . عندئذ
تتجرد من معانيها الفامضة المهمة التي نراها في الأديان الأخرى
والفلسفات العالمية .

بعض المؤلفات التي أصدرها المؤلف
(والتي لم تنفذ طبعتها)

دراسات في الكتاب المقدس :

حياة يسوع
الأمثال في العصر الحديث
كفاح في البرية
لمحات من التاريخ في الكتاب
الوصايا العشر في العصر الحديث
دار الإنجيل
المدخل إلى الكتاب المقدس
الحكمة في العصر الحديث
الروح القدس في العصر الحديث

الاخلاق الدينية والمشاكل الاجتماعية :

أوراق متناثرة
عظات وعبر

تاريخ الكنيسة :

عشرون قرناً في موكب التاريخ

سير وتراجم وقصص وروايات وتمثيلات :

سيرة رسول الجهاد
الاثناعشر
خليل الله في اليهودية والمسيحية والإسلام
الكأس الفضية
المجهولون في الكتاب
الزعامة في الشرق
رسول فوق الأمواج
في أعماق السجون

نماذج من أعلام المشرق
نماذج من سير الأبطال
الشاب الغنى
باراباس
يوسف الرامى
الغرفة الخاوية
فى ملكوتك
مشاهد عابرة من حياة المسيح
آدم وحواء

كتب متنوعة :

أعلام الفكر الأوروبى
أعلام الفكر الفرنسى
أديان العالم الكبرى
ماذا بعد الموت ؟
لماذا الشرّ والألم ؟
العالم فى ثورة
هنا نيودلهى

سلسلة الكتاب المسيحى :

المسيحية والعلم
الكتاب المقدس اليوم
مَن هو المسيح
رسل المسيح
بواس إلى الغلاطيين

تفاسير الكتاب :

تفسير سفر إرميا
» سفر أعمال الرسل

- تفسیر رسالتی کورنثوس
» رسالتی تیموثاوس
» رسالتی تسالونیکی
» رسالۃ العبرانیین
» رسالتی بطرس
» رسالتی یعقوب و یهوذا



۱۱۰

۱۱۱

